

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد قام الطالب باجراء التصحيحات المطلوبة
أعضاء لجنة المناقشة

عضو اللجنة
د. محمد عبد الحليم

عضو اللجنة

المشرف على الرسالة

د. محمد عبد الحليم

المجلس الأعلى للدراسات والبحوث
وزارة التعليم العالي

كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات والبحوث والعليا والدراسات الإسلامية
فروع الأديب

١

د. محمد عبد الحليم

د. ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م
د. محمد عبد الحليم

الدراسات والبحوث الإسلامية في القرن الثالث عشر

من القرن الثالث حتى السابع للهجرة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب



إعداد الطالب

علي بن محمد الحميري

١٤٠١

بإشراف الأستاذ الدكتور

د. محمد عبد الحليم

١٤٠١

١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُرِيهِمْ آيَاتِهِ
وَالَّذِي يُخْرِجُ النَّجْمَ
لِيُظَاهِرَ بِهِ السُّيُوفَ
الْمُجْرِمِينَ وَيَجْزِي
الْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ
وَالَّذِي يُخْرِجُ
النَّجْمَ لِيُظَاهِرَ
بِهِ السُّيُوفَ
الْمُجْرِمِينَ

المقدم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(أ)

المقدمة

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .
وأصلى وأسلم على أشرف رسلك وأنبيائك . سيد الأولين والآخريين
والهادي إلى صراط الله المستقيم ، عليه من ربه وعلى آله وأصحابه
أفضل صلاة وتسليم وبعد :

فقد حظى الأدب العربي شعره ونثره بكثير من الدراسات
التي تناول فيها أصحابها جميع جوانبه .

وكان نصيب الشعر من تلك الدراسات أكثر من النثر ، وقد
دفعني ذلك إلى البحث عن موضوع نثرى لدراسته علي أشبارك
بجهد متواضع في هذا الضمار .

وقد وجدت ضالتي - بعد بحث ومعاينة - في موضوع هام
لم ينل من الدراسة ما يستحقه ذلك هو : " النثر الفني في وصف
المدن والأماكن "

والواقع أن هناك دراسات تمت بملة إلى هذا الموضوع سبق أن
ظهرت في فترات مضت رأيت أن أشير إليها في هذه المقدمة وأهمها :

١ - مقالة مختصرة للأستاذ / غوستاف فون غرباوم، بعنوان :

" مدح المدن في النثر العربي " . وقد بينت ما جاء فيها

في الباب الثاني من هذا البحث وأنها على الرغم من علاقتها

بالموضوع إلا أنها موجزة جدا بحيث لا تتجاوز عشر صفحات.

٢ - ومن تلك الدراسات ما نقل عن الأستاذ / كراتشكوفيسكى في كتابه :
" تاريخ الأدب الجغرافي العربي " ، الذى نقله من اللفظة
الروسية إلى اللفظة العربية الأستاذ / صلاح الدين عثمان هاشم .
وتعد هذه الدراسة أوفى دراسة للأدب الجغرافي العربي
تمكنت من الإطلاع عليها حتى الآن ، إلا أنها قد انصبت على
الجانب الجغرافي ولم تعط الجانب الفني ما يستحقه على الرغم
من فائدتها العظيمة لكل مهتم بالجوانب الجغرافية والتاريخية
والرحلات العربية حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

ومع تلك القيمة فلم تخل من مأخذ تتعلق بموقف المؤلف لفسن
القرآن الكريم والرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، إلا أن
مثل هذه الملحوظات قد تم تفنيدها من قبل أحد الدارسين
المسلمين ^(١) وأُلحق بالكتاب المذكور .

٣ - دراسة تقدم بها الباحث / على محسن عيسى مال الله - لنيسل
درجة الماجستير بعنوان " أدب الرحلات عند العرب فى
المشرق - نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى " .

ومن عنوان هذه الرسالة ، يتضح محتواها ، فهي تهتم بأدب الرحلات
بمعناه العام وتقتصر على رحالة المشرق العربي .

وإذا رجعنا إلى موضوعنا فسنجد أنه عالج قضية النشر الفنى
الذى وصف به الناثرون المدن والأقاليم سواء كانوا ممن كتب
في البلدان ، أو من المؤرخين ، أو من أصحاب الرحلات المختلفة ،
أو المعاجم ، أو المقامات ، وهذا ما يميزه عن تلك الدراسات .

وإذا كان هذا البحث قد تطرق إلى الجانب النثرى في هذا المجال ، فإن هناك موضوعا لا يقل عنه أهمية، وهو بحث الجانب الشعري في وصف المدن والأقاليم ، وسيجد الباحث فيه مادة طيبة ستكون له خير مساعد على دراسته .

أما أهم المصادر التي اعتمدها في هذا البحث فهي :

رسائل الجاحظ ، وكتاب البلدان لليعقوبي ، ومروج الذهب للمسعودي ، وصورة الأرض لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم للمقدسي ، ومقامات الحريري ، ونزهة المشتاق للدريسي ، ومقامات الوهراني ، ورحلة ابن جبير ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ، ورحلة العبدري . وقد عرفت بهذه الكتب ومؤلّفيها عند الحديث عنها ضمن فصول البحث .

كما شملت تلك المصادر كتب التراجم ، والمعاجم ، وغيرها ما له علاقة بالموضوع .

وحتى أتى من تحقيق هذه الفاية ، كان لا بد من وضع خطة شاملة للبحث ، قسمته من خلالها إلى : الأبواب والفصول والمباحث التي تستدعيها طبيعته ، فاشتمل ذلك التقسيم على مقدمة وبابين وخاتمة .

تفرع عن الباب الأول منهما أربعة فصول ، وعن الباب الثاني ثلاثة

فصول ، وذلك على النحو التالي :

الباب الأول : وصف المدن والأقاليم عند أهم الناشرين .

الفصل الأول : النصوص الفنية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

وفيه تحدثت عن أهم الناشرين في هذه الفترة وكتبهم وهم :

- ١ - الجاحظ ورسالته في البلدان .
- ٢ - اليمقوبي وكتابه البلدان .
- ٣ - السعدي وكتابه مروج الذهب .
- ٤ - ابن حوقل وكتابه صورة الأرض .

وأثناء الحديث عنهم أوردت أهم النصوص الفنية التي وصفوا بها المدن والأقاليم .

الفصل الثاني : المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم .

وقد أفردت هذا الفصل للحديث عن المقدسي ، وكتابه أحسن التقاسيم ، لكثرة النصوص الفنية الواردة في هذا الكتاب .

الفصل الثالث : النصوص الفنية في القرنين الخامس والسادس .

وتحدثت فيه عن عدد من الناشرين وكتبهم وهم :

- ١ - الحريري ومقاماته .
- ٢ - الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق .
- ٣ - الوهراني ومقاماته .
- ٤ - ابن جبير ورحلته .

وخلال الحديث عنهم جئت بالنصوص الفنية التي عثرت عليها في كتبهم .

الفصل الرابع : النصوص الفنية في القرن السابع .

وفي هذا الفصل تحدثت عن ثلاثة ناشرين، والنصوص الفنية التي وردت في كتبهم، وهو لاء الناثرون هم :

- ١ - ياقوت الحموى - وكتابه معجم البلدان .
- ٢ - القزويني - وكتابه آثار البلاد وأخبار العباد .
- ٣ - العبدري - ورحلته .

الباب الثاني : تطور وصف المدن والأقاليم وخصائصه الفنية .

الفصل الأول : البدايات الأولى لوصف المدن والأقاليم .

وقد بينت في هذا الفصل، كيف نشأ هذا الوصف منذ ظهور الإسلام حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

الفصل الثاني : الأساليب الفنية في وصف المدن والأقاليم .

البحث الأول : تطور وصف المدن .

وفي هذا البحث تحدثت عن الأساليب الفنية التي

استعملها الناثر العربي عند وصفه الفني للمدن .

البحث الثاني : تطور وصف الأقاليم .

وفيه أوضحت الأساليب الفنية التي تميز بها وصف

الأقاليم .

الفصل الثالث : الخصائص الفنية .

البحث الأول : الاستقصاء .

وفي هذا البحث أوضحت مدى انتشار هذه الظاهرة في

ذلك اللون من النشر .

المبحث الثاني : التراكيب .

وفيه أشرت باختصار إلى التراكيب الشائعة في هذا الوصف وملاءمتها للدراسات الحديثة التي أجريت في هذا الجانب .

الخاتمة :

وفيها أشرت باختصار إلى كل ما جاء في هذا البحث المتواضع.

*

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الله عز وجل على توفيقه ، ثم أتقدم بعظيم الثناء والتقدير إلى أستاذي الكريم /سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد الحارثي، على ما بذله من جهد أثناء إشرافه على هذا البحث، وقد كان لتوجيهاته القيمة، وحسن خلقه، وتواضعه، وسعة علمه، وخبرته الطويلة، كبير الأثر في مساعدتي على إخراجه بهذه الصورة .

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذين القديرين :

سعادة / الأستاذ الدكتور / محمود حسن زيني .

سعادة / الأستاذ الدكتور / محمد نبيه حجاب .

على ما بذلاه من جهد في تقويم هذا البحث وأرجو الله أن ينفعني بتوجيهاتها السديدة وأن يكتب لهما الأجر والثواب .

كما لا أنسى أن أتقدم بشكري وتقديري الجزيلين لجميع

العاملين في هذه الجامعة العامرة وعلى رأسهم معالي الدكتور /راشد

الراجح مدير الجامعة ، وسعادة عميد كلية اللغة العربية السابق

الدكتور/عليان بن محمد الحارثي . والعميد الحالي سعادة الدكتور محمد بن

مريسي الحارثي ، وسعادة وكيل الكلية الدكتور / صالح جمال بدوي .

وسعادة رئيس قسم الدراسات العليا العربية الأستاذ الدكتور / حسن محمد

باجودة على تفانيهم في خدمة العلم وطلابهم .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ،،

الباب الأول

وَصَفُ الْمَدِينِ الْأَقَالِيمِ عِنْدَ أَهْمِ النَّاشِرِينَ

وَيَتَضَمَّنُ الْفُصُولَ الْآتِيَةَ

- الفصل الأول : النصوص الفنية في القرنين الثالث والرابع للهجرة .
- الفصل الثاني : المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .
- الفصل الثالث : النصوص الفنية في القرنين الخامس والسادس للهجرة .
- الفصل الرابع : النصوص الفنية في القرن السابع الهجري .

الفصل الأول

النصوص الفنية في القرنين
الثالث والرابع للهجرة

الباب الأول

وصف المدن والأقاليم عند أهم الناشرين

الفصل الأول : النصوص الفنية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

١ - الجاحظ ورسالته البلدان :

سوف نتحدث في هذا الفصل عن أهم الناشرين الذين وصفوا البلدان وقدموا

قطعا فنية تستحق الوقوف عندها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة .

وكان على رأس أولئك الناشرين علم من أعلام النثر العربي وصاحب أعظم مدرسة

فيه هو : * العلامة ، ذو الفنون ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ
(١)

• (٥٢٥٥هـ)

ذلك العالم الغد الذي بلغت شهرته الذروة وجاءت مؤلفاته الاقواق وعلقت

مكانته حتى عدة بعض الدارسين * أبو النثر العربي * على الإطلاق ، لكثرة
(٢)

مؤلفاته وتميز أسلوبه وتناوله جميع الفنون .

وانا كانت تلك الملحة العظيمة والقدرة الفائقة لدى الجاحظ قد مكنته من

تصنيف عدد كبير من الكتب الهامة والرسائل القيمة كان السباق فيها إلى كبير من

موضوعات البيان العربي وخبائاه فإيمه يمد أول من ألف في علم البلدان من العلماء
(٣)

المسلمين وليس ذلك بفريب على عالم جليل القدر واسع المعرفة كثير الإطلاع

من أمثاله ، كما أن سبقه ليس في هذا الفن فحسب ولكنه سبق غيره وتفوق على أقرانه

في مواطن كثيرة .

(١) سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي - ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

ج ١١ ، ص ٥٢٦ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - الأستاذ آدم مترا - ط ١ مجلد ص ٤٤١ .

(٣) الجاحظ ، حياته وآثاره ، د . طه الحاجري - ط ٢ دار المعارف بمصر

ص ٣٨٩ - ٣٩٣ .

وكتابه البلدان الذي قام بتأليفه سنة ٢٤٨ هـ حيث عرفنا ذلك من قوله :
* ولبنى هاشم - مَذْمُوكُوا هذه الدَّفْعَة - دون أيام علي بن أبي طالب والحسين
بن علي إلى يومنا هذا مائة وست عشرة سنة * (١)

قد صدره بمقدمة طريفه بدأها بالدعاء للمخاطب كعادته * زينك الله بالتقوى * .
... الخ * ثم أشار إلى السؤال الذي تلقاه من ذلك المخاطب * سألت أبقاك الله
أن أكتب كتابا في تفاضل البلدان * وهو هنا يدل على اسم الكتاب، وأنه في تفاضل
البلدان، مؤكداً ما سنوضحه في الباب الثاني، من أن هذا الضرب من النثر الفني
بدأ بذكر فضائل البلدان .

ثم أشار إلى ما من الله به على الخلق من حب لأوطانهم، وقناعة بما كتب الله
لهم، رغم الفروق الكبيرة بين أماكن الأنهار والأشجار والبراري والقفار، وأنه تعالى
قد سوى بين حب الإنسان لوطنه، وحبه لنفسه فقال عز وجل : * ولو أنا كتبنا عليهم
فيها أن اقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم * . (٢)

واستطرد الجاحظ في ذلك كعادته فذكر الغربة، وإلف الوطن وعقد مقارنة
بينهما وعاد بعد ذلك إلى ما عزم التحدث عنه؛ فذكر لقريش فضلها على العرب وعند
الخصال التي استحقت بها هذه المكانة .

ثم فصل ما لمكة زادها الله شرفاً وتعظيماً - من فضائل على سائر بقاع
الأرض وذلك بأسلوبه المعتاد الذي يفوق أساليب غيره، ولكنه لا يبعد فنياً من
حيث المزايا التي تميز النثر الفني الذي نزمع دراسته .

ومع ذلك فإننا نستطيع الاستدلال به على الأسلوب العام الذي بدأ به ذكر
فضائل المدن والبلدان بعد عصر صدر الإسلام الذي كان أكثر ذكرها يأتي عن
طريق الأحاديث النبوية الشريفة، أو الإشارات الطفيفة، من قبل الحكماء وعمال الأمصار
بناءً على طلب الخلفاء رضوان الله عليهم .

(١) رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - ط الأولى سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) آية (٦٦) من سورة النساء .

وقبل أن نصل إلى النصوص الفنية التي وصف بها الجاحظ بعض المدن، كالمدينة المنورة، والبصرة، نجد أنه يصف أهل البلدان بصفة عامة دون أن يخص بلداً بعينه .

ولكنه يصف أصحاب النجدة، والشجاعة وأرباب الحرف والصناعات، وكيف تتفوق صفاتهم، رغم اختلاف بلدانهم وهويين بذلك أثر الصنعة في سلوك الإنسان .

ثم ذكر المدينة المنورة - على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم -، وعلو الرغم من أن الجاحظ أول ناثر يصف المدن في مؤلف مستقل، ويأتي وصفه مقصوداً وليس عابراً، إلا أنه لم يخصصها بقطعة فنية نثرية كاملة بل استخدم في وصفها أسلوباً عالياً مميّزاً عن غيره من الأساليب العادية، وإن كانت كتابات الجاحظ في الكسبيير الغالب تمتاز عن أساليب غيره بميزات خاصة منها ظاهرة الإزدواج * وقد طرور الجاحظ هذه الظاهرة إلى مستوى موسيقي رائع وذلك من خلال التقسيم الموسيقي للجمل * الذي تتضح بعض صورته في النصوص القادمة إن شاء الله ، كما أن الإسطراد وغيره من الظواهر الأسلوبية التي امتاز بها أسلوبه، ستبرز هي الأخرى هنالك .

أما ماجاء عن المدينة فهو * وأمر المدينة عجب، وفي ترابها وهوائها دليلاً وشاهد وبرهان على قول النبي صلى الله عليه وسلم (إنها طيبة تنفي خبيثها وتنصع طيبها) (٢) لأن من دخلها أو أقام فيها ، كأننا من كان من الناس فإن الله يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة ليس لها اسم في الأرييح ، وذلك السبب طيبها، والمعجونات من الطيب فيها * .

ثم يقارن بين المدينة المنورة، ومدينة أخرى هي "سابور" مؤكداً أن طيب المدينة خلقة فيها، وأن طيب غيرها هو بسبب خارجي كوجود رياحين وغيرها من الأسباب :-

(١) ، القصة في أدب الجاحظ - عبد الله أحمد باقازي - ط سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م جده ، ص ٥٠ .
(٢) تنصع : من باب نصع الأمر : وضح وبان . الصحاح - الجوهري - مادة نصع .
(٣) رسائل الجاحظ ص : ١٢٩
(٤) سابور : كوره مشهورة بأرض فارس، معجم البلدان - ياقوت الحموي ط : بيروت سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٥٢ م ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

يقول : " فَإِنَّ ذَكَرُوا طَيْبَ سَابِرٍ فَإِذَا مَا طَيْبَ سَابِرٍ بِطَيْبِ أَرْيَاحِ الرِّيحِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ رِيحِ رِيَّاحِهَا وَسَاتِنِهَا وَأَنْوَارِهَا ، وَلِذَلِكَ يَقْوَى فِي زَمَانٍ وَيُضَعَفُ فِي زَمَانٍ " و طيبة التي يسمونها المدينة ، هذا الطيب خلقة فيها وجوهية منها وما موجود في جميع أحوالها .

وإن الطيب والمعجونات لتحمل اليها، فتزداد فيها طيباً وهو ضد قسبة الأهواز، وأنطاكية، فإن الغوالي تستحيل الاستحالة الشديدة .

ونحن نلاحظ بعض مميزات أسلمه الفنية ، فقرة الإستدلال وتكرار المعاني بسبل والألفاظ في كثير من الأحيان يهدف من كل ذلك إلى إيضاح المعنى الذي يريده وأن يدفع حجج معارضيته .

ثم وصف رجالها بالفقه ، وجاء ذلك في نهاية وصفه لها، وهذا ما سنلاحظه لدى كثير من النافرين، من جاء بعده، إن يأتون بذكر أهل المدينة، أو الإقليم يعد وصفهم له .

وتحدث الجاحظ عن مصر، فأورد الآيات القرآنية التي ذكرت مصر فيها باسمها وما جاء ذكرها فيه بالإشارة .

(٢)
يقول تعالى : " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مِثْوَاهُ... الخ

(٣)
وقال عز وجل : " أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي... "

ونقل الجاحظ في وصف مصر ما جاء على لسان عبد الله بن عمرو البركة عشر

(٤)
بركات : تسع بمصر والواحدة في جميع الأرض .

وفي وصف الكوفة نقل ما جاء على لسان زياد : " الكوفة جارية جميلة لا مال

(٥)
لها ، فهي تُخَطَّبُ لجمالها ، والبصرة عجوز شوها ذات مال فهي تُخَطَّبُ لمالها "

(١) رسائل الجاحظ : ص ١٢٩ .

(٢) آية ٢١ ، سورة يوسف .

(٣) آية ٥١ ، سورة الزخرف .

(٤) رسائل الجاحظ : ص ١٣٤ .

(٥) رسائل الجاحظ : ص ١٣٦ .

ونحن نلاحظ أسلوبا جديدا من أساليب وصف المدن في بداية أطواره وهو المقارنة بين مدينة وأخرى بطريقة جذابة، يتجلى فيها التشبيه التمثيلي والتصوير . وقد رأينا مثل هذه المقارنة بين المدينة وسابور، إذا كانت كتب الجاحظ تعد دوائر معارف وكتابات تدل على سعة اطلاعه، والثروة الهائلة من المعارف لديه، فحري بنا، أن نلتقى في أسلوبه مع كل الصور التي بدأ بها هذا النوع من النشر، خاصة وأنه من أوائل رواده، وأول من ألف كتابا مستقلا فيه كما بينا .

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر نهر الفرات ويفضله على النيل ، أما دجلة فإنه يذم ماءه، ويصفه بقطع شهوة الرجل، والذهاب بصهيل الخيل، ويفضل ذلك بطريقة تاريخية يذكر فيها نزول العرب على شواطئ هذا النهر وماذا عليهم إذا أرادوا تجنب ضرره ويقومون أن جميع العرب الذين ينزلون على شاطئه من بغداد إلى مدينة (بلده) لا يربعون الخيل في هذه الشواطئ ولا يسقونها من مائها .

ويستمر في الاستطراد بغية الوصول إلى ترسيخ قضية يريد تقريرها وهو أن ماء الفرات خير من ماء دجلة ، ولكنه في سبيل الوصول إلى هذه النتيجة يخرج من الكلام عن الماء إلى الحديث عن الطعام وعن أنواعه وفعلها في الجسم ثم اختلاف السوائل، وتأثيرها أيضا في جسم الإنسان ليثبت أن اجتماع أنواع الأغذية في جوف الإنسان لا تضر فيه وان اختلاف المشروبات ضارة إذا دخلت الجوف في آن واحد، فيخرج من ذلك أن ماء دجلة ضار لأن منبعه ليس من ماء واحد ولكنه من عدة مصادر . وهكذا يستطرد الجاحظ عند اثبات قضايا، فيخرج من موضوع إلى آخر حتى يظن القارئ أنه قد انتقل به إلى قضية أخرى وعند ذلك يعود به إلى قضيته الأولى حاملا معه الدليل والبرهان .

(١) مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ ، رسائل الجاحظ

ويرى بعض الدارسين أن هذه الطريقة هي سر الإعجاب به من قبل
الآخرين يقول الأستاذ آدم متز * وكثيرا ما يشوب طريقته في الكتابه الشرشرة
والإستطراد الى حد الإملال ولكن هذا يعينه هو ما كان موضع لذة المعجبين
(١)
بالجاحظ *

وأخيرا يستدل الجاحظ بالآية الكريمة : * هذا عذب فرات وهذا ملح
(٢)
أجاج * على أن الفرات أعذبها عذوبة وأن كلمة الفرات قد اشتقت لكل ماء
عذب من فرات الكوفة .

ونحن نلمس هنا الفرق الشاسع بين أسلوب أعظم كتاب النثر العربى من بدايته
حتى الان وبين أسلوب القرآن الكريم الذي أعجزت بلاغته السماوية كل أسلوب
صدره البشر على الإطلاق؛ ففي جزء من آية حصلنا على المعنى الذى حاول الجاحظ
اثباته خلال صفحات بل كان أسلوب الآية أوضح وأوفى "ولله المثل الأعلى" .

أما البصرة فإن حديث الجاحظ عنها يختلف عن حديثه في وصف المدن التى
سبقتها، فهو هنا يترك المجال لغيره وينقل عن وصفها ما قال عنها وهو تارة
ينقل عن مجهول وهذه عادة نلتقى بها في كثير من الأحاسين أو ينقل عن كاتب
بمعينه وهذا ما نلمسه في جل كتبه فهو يجمع أقوالا شتى في كل موضوع يعالجه
حتى ليخيل للقارئ أنه قد نقل كل ما قيل عن ذلك الموضوع .

وهنا يبدأ حديثه عن البصرة بالإحالة على مجهول فيقول :-

" كان يقال : الدنيا البصرة " وهذه بداية تدلنا على مدى تقدير الجاحظ
لهذه المدينة وحبها فلم يكف بتشبيهها ببلد من البلدان بل لم يكتسف
بتشبيهها بالدنيا في جانب من الجوانب ولكنه جعلها الدنيا بأسرها . ويأتى
بعد ذلك بقول الأحنف في وصف البصرة حينما أراد أن يفضلها على الكوفة موجهها
الخطاب الى أهلها :

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .
(٢) آية ٥٣ ، سورة الفرقان .

* قال الأحنف لأهل الكوفة : " نحن أعزى منكم بزيه ، وأكثر منكم بحريسه وأبعد منكم سرية ، وأكثر منكم ذرية " وهذا اللون من وصف المدن السبى استخدم فيه الأحنف أسماء التفضيل من أول جملة فى وصفه للبصرة سوف يواجهنا فى نصوص أخرى لناثرين آخرين وفى كثير من الأحيان بنفس الصورة الموجودة هنا والتي يوجه فيها الخطاب الى أبناء المدينة الأخرى ، وقد يأتى نفس اللون بمر مفاهيمه كما سنلاحظه فى النصوص التى سيتم عرضها إن شاء الله .

ثم يتحدث عن قصرين فى البصرة فيصف ما يشاهده الزائر لهذه الأرض الجميلة .

ولقد عبر عن ذلك بتشبيه يُعد فى غاية الجمال . حيث شبهها بالكافور وهو ضرب من الطيب * .
(١)
(٢)
ووصف الأرض التى يقع عليها ذلك القصر ، وقصر أنس بن مالك رضوان الله عليه .

* ومن أتى هذا القصر وقصر أنس رأى أرضاً كالكافور ، وتربة ثرية ، ورأى ضباً يحترش ، وغزلاً يقتنص ، وسمكا يصاد ما بين صاحب شص ، وصاحب شبكية ، ويسمع غناً ملاح على سكانه ، وحداء جمال على بعيره * .
(٣)
(٤)
(٥)

والجاء هنا يستخدم أسلوباً من الأساليب التى شاعت فى وصف المدن والسبى تكثر فيه الجمل الفعلية * ورأى ضبا يحترش ، وغزلاً يقتنص وسمكا يصاد * .

-
- (١) الكافور : من الطيب ، الصحاح ، مادة : كفر .
(٢) هو قصر أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة ، وكان والى خراسان فى الدولة الأموية . رسائل الجاحظ ص ١٢٨ .
(٣) يحترش . من حرش الضب : صاده ، الصحاح . مادة حرش .
(٤) الشص : شص * يصاد به السمك . الصحاح . مادة شص .
(٥) رسائل الجاحظ ص ١٢٩ .

وهو يجعل قطمته الفنية تفيض بالحيوية والنشاط فيصور حركة تلك الأسماك الدائبة بين أصحاب الشصوص وأصحاب الشباك تحاول جهدها الفرار من تلك الشصوص والشباك فتجعل الأرض المجاورة للقصر بما فيها الترع والأنهار تمتلئ بالحركة الدائمة .

ويؤكد على أن تلك الحركة ليست في النهر فحسب ولكنها عطية مشتركة بين البر والبحر فهو يربط بين غنا الملاح على سكانه في النهر ، وحداء الجمال على بعيره في البر :

" ويسمع غنا ملاح على سكانه ، وحداء جمال على بعيره " .

وكعادته في كتاباته يستخدم الفعل " قال " في صيغته المختلفة من ماض ومضارع ومبنى للمعلوم ولمجهول فيأتي بصيغة الماض هنا : " قالوا " وفي أطلس جبانة البصرة موضع يقال له الحزير ، يذكر الناس أنهم لم يروا قط هواً أعدل ولا نسيماً أرق ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع " .

ونلاحظ في الجمل السابقة كيف استطاع الجاحظ أن يسرد أسماء التفضيل : أعدل ، أرق ، أطيب في جمل متتاليه مبتدأ هذه الجمل بالنفي مما جعل أسماء التفضيل تتأخر عن تمييزها فكان لهذا الترتيب قيمة فنية كبرى .

وسوف نرى بوضوح عند استعراض نصوص لناثرين آخرين كيف استخدموا

أسماء التفضيل ومدى سبق الجاحظ لغيره في هذا المضمار إن شاء الله .

ثم ينقل كلاماً عن جعفر بن سليمان يصف فيه العراق ، والبصرة والمريـد

وداره في جمل من الكلام جاء بها بطريقة متسلسلة يقول : " وقال جعفر بن سليمان :

(١)

" العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمريـد عين البصرة وداري عين المريـد " .

وهو هنا، يشبه العراق بعين الدنيا، والبصرة بعين العراق، وهكذا .
وإذا كان وصف المدن والأقاليم في النثر العربي عرجاً على وجهين؛ الأول المدح
والآخر الذم، وإذا كنا قد مررنا ببعض النصوص النثرية في مدح الجاحظ لبعض
المدن، فإننا سنواجه في النص التالي، النوع الثاني وهو الذم، وتمشياً مع أسلوبه
في إسناد الكلام إلى الآخرين يقول :-

" زعم أهل الكوفة أن البصرة أسرع الأرض خراباً ، وأخبثها تراباً ، وأبعدنا
من السماء ، وأسرعها غرقاً " (١) وفي الذم أيضاً يأتي بنفس الأسلوب الذي مرر
بنا في النص السابق عند المدح، مع استخدام أسماء التفضيل، إلا أننا نلاحظ في النص
الخاص بالذم مجيء التمييز في مكانه الصحيح ولم يتقدم كما لاحظنا في وصف
البصرة .

ويستمر الجاحظ في مقارنته الشائكة بين البصرة والكوفة، فيناقش قضية
ذم أهل الكوفة لأهل البصرة بأنها - أي البصرة - أسرع الأرض غرقاً ويتساءل
كيف تغرق وأهلها لا يستطيعون إيصال ماء الفيض إلى حياضهم، إلا بعد
ارتفاعه في الهواء ثلاثين ذراعاً . ويؤكد لأهل الكوفة أن ذلك إن حدث فليس فيه
عيب، فأرض بغداد ينبع الماء في أجواف قصورهم عند كل زيادة ، وأنهم يتوقعون
الغرق في كل ساعة، ثم يصف ماء البصرة مفنداً حجج أهل الكوفة فيقول :-

" وهم يعيرون ماء البصرة، وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل المشوب
بماء بغداد والكوفة، لطول مقامه بالبطيخة وقد لان وصفا ورق " (٢)

ويتوقع كعادته، ظهور حجة أخرى لأهل الكوفة، وهي أن الماء الجاري أفضل من
الماء الساكن، فيرد عليهم بأن ماء البصرة ليس ساكناً، ولكنه يتعرض للأمواج العظام،
والرياح العواصف، وأنه يجري منقوضاً إلى الصخور والحجارة فراسخ وفراسخ حتى
ينتهي إليها .

(١) رسائل الجاحظ: ص ١٢٩

(٢) الفيض: غاش الماء يفيض، غيضا ، أي قل ونضب . الصحاح مادة : غيض .

(٣) رسائل الجاحظ: ص ١٤٠ .

ويستدل على كل ذلك بقرائن واضحة كنتيجة لمحاوراته المنطقية السابقة

فيقول :-

* ويدل على صلاح مائهم، كثرة دورهم ، وطول أعمارهم ، وحسن عقولهم (١)
ورفق أكفهم ، وحذقهم لجميع الصناعات ، وتقدمهم في ذلك لجميع الناس * وهو
هنا يوضح أثر البيئة في الإنسان ودورها في سلوكه .

ويؤكد ذلك كنه يذكر نهر الكوفة مرة أخرى بأنه ليس له فضيلة خاصة، وأنه فرع
من فروع نهر الفرات، وشعبة منه، وأنه يتعرض للجفاف حتى لا يكون لهم مستقى
إلا على مسافة فرسخ ، وأن جميع فروع نهر الفرات هي في الواقع أعظم من نهر الكوفة .

ويخرج من مقارنته التي أفاض فيها واقتصرنا هنا على الإشارة إلى جوانب
منها إلى وصف عام للكوفة. يبين فيه أنها لا تستحق تسميتها بمدينة ينسب
وأنها ليست الإقريه من القرى ورستاق من الرساتيق * وعامة الكوفة خراب يبسب
ومن بات فيها علم أنه في قرية من القرى ورستاقاً من الرساتيق ، بما يسمع من صياح
بنات آوى ، وضباح الثعالب ، وأصوات السباع * (٢)
(٣)

ويعود بعد هذا مرة أخرى إلى تفضيل نهر النيل على نهر الكوفة انتصاراً للبصرة
ويفضل كذلك نخيل البصرة على نخيل الكوفة . (٤)

وهكذا يظل الجاحظ يردد القضية الواحدة فيحدث عنها من جميع جوانبها
حتى يصل إلى الفرض الذي يريد إثباته والانتصار على من يحاجه فيه .

وهو هنا ليس له هدف سوى أن يصل إلى أن البصرة أفضل من الكوفة فسي
جوانب كثيرة، وفي سبيل الوصول إلى هذه النتيجة، يتحدث عن كل جانب على
انفراد، وبأسهاب شديد .

(١) رسائل الجاحظ: ص ١٤١ .

(٢) الرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد

معجم البلدان ج ١ ، ص ٣٨ .

(٣) رسائل الجاحظ: ص ١٤٢ .

(٤) نيل الكوفة .

ففى اللحظة التى ينتظر فيها القارئ انتقال الجاحظ من موضوعه الى موضوع آخر، يكون الجاحظ قد بدأ حديثه من جديد فى نفس الموضوع، ولكن من زاوية جديدة . وهنا فى مقارنته بين الكوفة والبصرة، نظن أن الموضوع قد أخذ أكثر مما يستحق، ويبدو أن جميع الجوانب قد استوفاهما بحثا وتفصيلا ، إلا أنه يعود من جديد بأسلوبه الجذاب الذى يعتمد كثيرا على محاورة القارئ، وامتصاص مقله بتنوع القضايا وإظهار المبررات المختلفة للقضية الرئيسة الواحدة، فيعد أن ناقش تفوق البصرة فى كثير من الوجوه، يتذكرو من جديد أن هناك شغرات يمكنه العوده عن طريقها، فيصف البيهة والبها لليلالى رمضان فى مسجد البصرة، وروعة وجمال مناراتها، والخراب الذى يعيشه مسجد الكوفة ، ويعود الى الكوفة ليذم أسواقها وأخلاق أهلها وحالة كواكبها ليلا،^(١) وخبرنى من بات أنه لم ير كواكبها زاهرة قط ، وأنه لم يرها إلا ودونها هبوة^(٢) وكان فى مائهم مزاج وهن ، وأسواقهم تشهد على أهلها بالفقر ، وهم أشد بفضلا أهل البصرة من أهل البصرة لهم ، وأهل البصرة هم أحسن جوارا ، وأقل بذخا ، وأقل فخرا^(٣) .

ويمرج على ينفاد من جديد مظهرها تعجبه من ميل أهلها مع أهل الكوفة ويفند حججهم كما فند حجج أهل الكوفة ، ثم يذكر أهل البصرة بفضيلة جديدة لم تشاركها فيها غيرها :-

• ولم نربلدة قط تكون أسعارها ممكنة، مع كثرة الجماجم بها إلا البصرة : طعامهم أجود الطعام، وسعرهم أرخص الأسعار، وتمرهم أكثر التمور، وبيع دسهم أكثر ، وعلى طول الزمان أصبر .

(١) هبوة : دقاق التراب الساطع فى الجو كالدخان ، وما ينبعث فى ضوء الشمس ، أساس البلاغة - الزمخشري ، مادة هبوة .

(٢) رسائل الجاحظ ص : ١٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٤٥ .



وهذا لون جديد من ألوان النثر الفنى فى وصف المدن والأقاليم ، تكون الجملة فيه اسمية خبرها (مضاف ومضاف إليه) " طعامهم أجود الطعام ، سعرهم أرخص الأسعار ، ثمرهم أكثر التمر " وهذا اللون قد أخذ به كثير من النثرين فى العصور التالية كما سنلاحظ إن شاء الله .

وتنتهى رسالة البلدان عند انتهائه من وصف البصرة وذكر فضائلها كما رأينا ، ولم يذكر بعدها إلا الحيرة ولكن باختصار شديداً .

والحقيقة أننا لن نجد هذا التقارب الكبير بين النثر الفنى والنثر العادى فى وصف المدن والأقاليم فيما سنعرض من نصوص بل سنجد يوماً شاسعاً بين وصف أولئك الكتاب العادى للمدن وبين وصفهم الفنى ، الذى كانوا يتكفون فى الكثير الغالب ، بخلاف ما عرفنا فى كتابات الجاحظ ، التى أمتازت بالسهولة وعدم التكلف ، والحرارة المنطقية ، والمقارنة بين مدينة وأخرى ، والجدل والتشبيه واقتراب أسلوبه الفسنى من نثره العادى .

٢ - اليعقوبي - وكتابه البلدان

* هو أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر المعروف باليعقوبي صاحب كتاب البلدان مؤرخ جغرافي كثير الأسفار (١) اختلف أصحاب التراجم في تاريخ وفاته، فذكر ياقوت أنه توفي سنة ٢٨٤ هـ نقلا عن الكندي المصري، ويرى الزركلي أنه توفي بعد سنة ٢٩٢ هـ واستدل على ذلك بوجود أبيات شعرية في كتابه البلدان قيلت ليلة عيد الفطر من سنة ٢٩٢ هـ .

* وكان اليعقوبي أول جغرافي بين العرب وصف الممالك معتمدا على ملاحظاته الخاصة ومتوخيا قصد ما أراد من وصف البلاد وخصائصها (٢) فقد أشار في مقدمة كتابه البلدان الى أنه عني في عنفوان شبابه، وحدة ذهنه، يعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنه سافر حديث السن واتصلت أسفاره، ودام تفريسه، ثم يشير الى أنه لم يسجل تلك الملحوظات عن البلدان جميعها بنفسه، ولكنه كان إذا لقي رجلا من تلك البلدان، سأله عن وطنه ومصره، ثم يسأله عن زرع ذلك البلد، وعن سكانه أعرب أم عجم، الى أن يسأل عن لباسهم، وأنه كان يسأل قوما بعد قوم حتى يوثق تلك الأقوال، وأنه لم يزل يكتب تلك الأخبار ويؤلف هذا الكتاب دهرًا طويلًا، ومع ذلك فهو يؤكد أن الكتاب يعد مختصرا لأخبار البلدان كأي مختصر آخر في أي علم .

والكتاب مطبوع في نهاية كتاب الأعلام النفيسة لأبي علي أحمد بن رسته .

(١) الأعلام - الزركلي - ط ٣ ص ٩٠ - ٩١ . ومعجم الأدياء ، ط . دار

المأمون ، ج ٥ ، ص ١٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع - الأستاذ المتز ، ج ٢ ص ٩ .

(٣) مقدمة البلدان لليعقوبي - نهاية الأعلام النفيسة لابن رسته -

ط ليدن سنة ١٨٩١ م - ج ٧ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

وبدأء بالحديث عن العراق، ومدينة بغداد بوجه خاص، لأن
العراق كما يرى، وسط الدنيا، وسرة الأرض يقول :

« وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض
وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى
التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة،
وكبراً، وعمارة، وكثرة مياه، وصحة هواء، ولا أنه سكنها من
أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من
جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق
على أوطانهم : (٢) »

واليمقوبي في وصفه لمدينة بغداد يدل على حبه الكبير لها
وشغفه بها، فهي المدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض
ومغاربها، ويفصل ذلك بذكر الجوانب التي فاقت نظيراتها في المشارق
والمغارب، فهي واسعة، وكبيرة وجميلة العمارة، وكثيرة المياه، وصحيحة الهواء،
ويبرهن على ذلك كله، يسكنها أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور من
جميع البلدان القاصية والدانية، آثرها الجميع على أوطانهم .

ثم ذكر بعد ذلك مرور النهرين على حافتيها وكثرة التجارات
بسبب سهولة المواصلات البرية والبحرية إليها .

ويصف توسطها بالنسبة للأرض، وما يسببه ذلك التوسط من اعتدال
الهواء، وطيب الثرى، وعذوبة الماء يقول :

-
- (١) الكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة أو
مدينة أو نهر يجمع اسمها . معجم البلدان . الحموى ، بيروت سنة
١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- (٢) الأطلاق النفيسة ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

" ثم هي وسط الدنيا على ما أجمع عليه قول الحساب
وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الإقليم الرابع وهو
الإقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان
والفصول فيكون الحربها شديدا في أيام القيظ والبرد
شديدا في أيام الشتاء ويعتدل الفصلان الخريف والربيع
في أوقاتها، ويكون دخول الخريف إلى الشتاء غير متباين
الهواء، ودخول الربيع إلى الصيف غير متباين الهواء، وكذلك
كل فصل ينتقل من هواء إلى هواء ومن زمان إلى زمان
فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثرى، وعذب الماء، وزكّت
الأشجار، وطابت الثمار، وأخصبت الزروع، وكثرت الخيرات
، وقرب مستنبت معينها، واعتدال الهواء، وطيب الثرى
، وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم
، وانفتحت أذهانهم، حتى فضلوا الناس في العلم والفهم
والأدب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب،
والحذق بكل مناظرة، وإحكام كل مهنة، وإتقان كل صناعة،
فليس عالم أعلم من عالمهم، ولا أروى من راويتهم، ولا أجدل
من متكلمهم، ولا أعرب من نحويتهم، ولا أصح من قارئهم،
ولا أوفر من مطيبهم، ولا أصدق من مفسيتهم، ولا ألطف من
صانعهم، ولا أكتب من كاتبهم، ولا أبين من منطيقهم، ولا
أعبد من عابدهم، ولا أروع من زاهدهم، ولا أفقه من
حاكمهم، ولا أخطب من خطيبهم، ولا أشعر من شاعرهم
ولا أفك من ماجنهم". (١)

ومن خلال هذا النص نتبين النقلة الجديدة التي طرأت على هذا

الضرب من الوصف فبينما نجته عند الجاحظ يتمثل في نصوص قصيرة منتشرة في ثنايا كتاباته، نراه هنا أكثر استقلالاً وأطول نفساً، وأدق تسلسلاً للأفكار، واستنباطاً للنتائج، فتوسط العراق للدنيا وتوسط بغداد للعراق، لا أنها في الإقليم الرابع، وهو الإقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول، وما لحق ذلك من مقدمات قد جعله يصل إلى نتائج ذات تسلسل منطقي دقيق، خرج من خلاله بهذه الصورة الجميلة في وصف بغداد والتي ظهرت في جمل فعلية قصيرة، ذات تقسيمات موسيقية رائعة مكونة من فاعل وفاعل فقط .

" فلذلك اعتدل الهواء ، وطاب الثرى ، وعذب الماء ، وزكت الأشجار ، وطابت الثمار . . الخ " ثم يجعل من تلك النتائج أسباباً لنتائج أخرى يريد الوصول إليها، وهي تأثير صفات الأرض في أهلها " واعتدال الهواء وطيب الثرى . . . الخ " " حسنت أخلاق أهلها ، ونضرت وجوههم . . الخ " ثم ما أكدته لهم هذه الصفات من فضل على الناس في العلم والفهم والأدب . . الخ . ويتضح هنا أثر البيئة في السكان وهو ما لمسناه عند الجاحظ آنفاً . ويعود اليعقوبي أخيراً ليثبت تلك الصفات فيهم وإثبات تفوقهم على من سواهم " فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا أروى من رآويتهم — ولا أجدل من متكلمهم . . . الخ "

وهو هنا يختتم النص بما يختتم به كثير من الناشرين في وصفهم للندن، من ذكر لفضائل أهل تلك المدينة أو الإقليم، وبنفس الصورة التي تواجهنا في تلك النصوص من استخدام أسماء التفضيل بل إنه ليسرف في ذلك إلى حد ما، فأسماء التفضيل التي نجدها في هذه القطعة بل في جزء منها قد تصل إلى ستة عشر اسماً، في جمل متوالية مما يجعل هذا النص يتولس الصدارة في استخدام أسماء التفضيل بالنسبة للنصوص التي واجهتنا حتى الآن .

واسترجاعاً سريعاً لتلك الأسماء، يوءد لنا صحة ما ذهبنا إليه.
” فأعلم ، وأروى ، وأجدل ، وأعرب ، وأصح ، وأمهر ، وأحذق ، وألطف ،
وأكتب ، وأبين ، وأعبد ، وأورع ، وأفقه ، وأخضب ، وأشعر ، وأفتك ” .
كلها أسماء تفضيل جاءت بعدها أسماء الفاعل مجرورة بمن في جميع تلك
الجميل ، مما أعطى هذه القطعة تقسيماً موسيقياً متساوياً ، يمنح القارى متعة
والنصّ جمالاً وجلالاً .

وعلى الرغم من هذه البداية الواعدة بالمطاء المتواصل إلا أن
اليعقوبي قد جعلها بدايةً لنهاية النصوص النثرية المطولة في الوصف
الغني للمدن لديه ، ففي بقية فصول كتابه لم يصادفنا أى نص من هذا
النوع ولكنه اكتفى بذكر نعمتين أو أكثر لكل مدينة تحدث عنها ثم
يعود فيصفها وصفاً عادياً كغيره من المؤلفين ، والمتتبع لتلك النعوت في
جل أجزاء الكتاب يجدها لا تخرج عن عبارات : ” جليلة القدر ، عظيمة
واسمة ” ، و ” بلد جليل ومدينتها عظيمة ” ، ثم يشير إلى عادات تلك
المدن ، وتقاليدها والمسافات بين بعضها والآخر ، وملا بس أهلها ، ومن اشتهر
منهم ، وكل ذلك بأسلوب عادى يميل أحياناً إلى الوصف التاريخي ، وأخرى
إلى الوصف الجغرافي . ويمكن أن نبين هنا أن للجاحظ أثراً واضحاً في
وصف اليعقوبي ، يتجلى في المقدمات والنتائج المنطقية ، وذكر أثر البيئة
على الناس ، ثم كثرة أسماء التفضيل في الوصف .

٣ - السعودي، وكتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر :

وهو "على بن الحسين بن علي، أبو الحسن السعودي المؤرخ من ذرية عبدالله بن مسعود رضي الله عنه" (١) أورد له أصحاب التراجم تصانيف كثيرة منها : أخبار الزمان ومن أباده الحدثان . تاريخ في نحو ثلاثين مجلدا ، ومروج الذهب ومعادن الجوهر ، والتنبيه والإشراف وغير ذلك ، كما أشار أكثر الباحثين إلى أن توفى سنة ٣٤٦ هـ . (٢)

وبالسعودي نفتح حديثنا عن القرن الرابع الهجري ، الذي سنلتقى من خلاله بأخصب فترة مر بها النثر الفني في وصف المدن والأقاليم ، على أيدي مجموعة أثروا هذا الضرب من النثر بأجمل نتاجهم الأدبي .

وإن كان عالمنا الجليل السعودي ، قد شغل بكثرة تصانيفه ، وخاصة في مجال التاريخ ، ولأن الأحداث التاريخية تأخذ من المهتمين بها كثيرا من جهودهم ، وأوقاتهم ، لدقتها وتشعبها ، فإننا سنلاحظ كيف تمكن السعودي ، من التوفيق بينها وبين تلك القطع الفنية ، التي وصف بها المدن والأقاليم ، وكيف استطاع أن يجمع عددا من أقوال الحكماء وغيرهم في هذا المجال .

ويتضح ذلك في قدرته الفائقة على انتقاء تلك الأوصاف الهامة وربطها ، بطريقة فنية بالأسلوب التاريخي الذي كثيرا ما يعتمد فيه الكاتب على السرد ، والملازمة بين المواقف والأحداث التي يريد التحدث عنها ، وقد أحسن كثيرا في كل ذلك .

(١) فوات الوفيات ، محمد شاکر الکتبی ، ط دار صادر بیروت سنة

١٩٢٤ ، تحقیق إحسان عباس ، ج ٣ ، ص ١٢-١٣ .

(٢) فوات الوفيات ج ٤ ، ص ١٣١ ، الأعلام ، ج ٥ ، ص ٨٢ ، معجم

الأدباء ، ج ١٣ ، ص ٩٠ .

وإذا " كان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري " (١) فإن " القرن الرابع الهجري قويت روح الإستطلاع العلمي وأخذت أصابعها تمتد ملتمة للحقائق في كل ناحية " (٢)

وكان من أوائل كتاب هذا القرن أبو الحسن السعودي ، الذي أبدى اهتماما كبيرا بعلم التاريخ ، حيث ظهر ذلك جليا في كتبه التي قام بتصنيفها ، وأشار إليها في مقدمة كتابه التنبيه والإشراف حيث قال :

" أما بعد فإننا لما صنفنا كتابنا الأكبر في (أخبار الزمان ومن أباده الحدّثان) من الأمم الماضية والأجيال الحالية والممالك الدائرة ، وشغفناه بالكتاب الأوسط في معناه ثم قفناه بكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) في تحف الأشراف من الملوك وأهل الدرايات ، ثم تلينا ذلك بكتاب (فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف) ، وأتبعناه بكتاب (ذخائر العلوم ، وما كان في سالف الدهور) وأردفناه بكتاب (الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار) ذكرنا في هذه الكتب الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم على الأرض والممالك والبحر والبحر والقرون البائدة ، والأمم الخالية الدائرة . . " (٣)

من خلال هذه المقدمة ندرك اهتمام السعودي بالتاريخ وتخصيص أكثر كتبه لهذا الجانب من المعرفة ، ومع ذلك فإنه قد تطرق أثناء سرد

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) التنبيه والإشراف ، السعودي ، ط ٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م ، ص ١

أحداثه التاريخية إلى كثير من النواحي الجغرافية، والحكايات والنوادر ذات العلاقة بموضوعه.

والواقع أن أسلوبه في أكثر كتاباته يمثل أسلوباً أدبياً عالياً وخاصة في طريقة سرده للقصص والحكايات التاريخية، والتي ملأ بها كتابه مروج الذهب، وحتى فيما يتعلق بوصف المدن والأقاليم فإنه استخدم هذا الأسلوب القصصي في أجمل مستوى كما سنلاحظ عند تقديم النصوص.

وليس غريباً أن يمثل عالماً كبيراً أبو الحسن السعدي بجانباً من جوانب ازدهار الحضارة في القرن الرابع الهجري، الذي "يعتبر أيضاً عصر ازدهار الحضارة العربية أو النهضة الإسلامية" (١) في جميع مجالات الحياة. ففي هذا القرن "بلغ الأدب الجغرافي العربي أوجه في مجال تطوره الخلاق، كحركة مستقلة، قائمة بذاتها" (٢) وتمكن السعدي في كتابيه (مروج الذهب والتنبية والإشراف) أن يمزج بين الناحيتين التاريخية والجغرافية وإن كان في كتابه الأول تتضح الناحية التاريخية، وفي الثاني تبرز الناحية الجغرافية، كما أشار إلى ذلك الأستاذ كراتشوفسكي "وهكذا فمن بين جميع مؤلفاته العديدة المعروفة لدينا باسمائها، نستطيع إعطاء فكرة عن نشاطه العلمي، اعتماداً على اثنين منهما فقط أحدهما هو: "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو أكثر مؤلفاته التاريخية... إيجازاً، وآخر يعكس مادة جغرافية... وهو كتاب "التنبية والإشراف" وكلاهما يقف مثالا حياً لصعوبة الفصل بين المؤلفات التاريخية والجغرافية" (٣).

(١) تاريخ الأدب العربي، كراتشوفسكي، القسم الأول ص ١٢٧.

(٢) نفسه ص ١٧٧.

(٣) نفسه ص ١٢٨.

أما أسلوبه القصصي فقد حلّى به الكتابين معا وخاصة مروج الذهب الذي سوف نختار منه عددا من النصوص الفنية في وصف المدن والأقاليم. وسوف نرى إلى أي مدى اهتم بالجانب القصصي من خلال عرض تلك النصوص التي نسب الكثير منها إلى غيره، وجعل دوره مقصورا على اختيارها ووضعها في الأماكن المناسبة لها.

ولم يهمل هذه الناحية الأستاذ كراتشكوفسكي، فقد أشار إليها في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي بقوله بعد الحديث عن المسعودي: "فهو قاص ماهر، وفي كتابه الذي يفلب عليه التاريخ، وهو مروج الذهب، يقابلنا أفضل تصوير للحياة الاجتماعية، والثقافية في عصر الخلافة" (١).

وعلى الرغم من أن المسعودي من أبناء إقليم العراق حيث أشار إلى ذلك، ووصف هذا الإقليم بأجمل الأوصاف، فإن حياته التي قضاهها في مصر قد أرغمته على أن يبدأ وصفه الفني بها مقدما على ذلك الآيات القرآنية الكريمة التي جاء ذكر مصر فيها، وهي الآيات التي سبق للجاحظ أن أوردها عند ذكره مصر، وانتقل من ذكر الآيات الكريمة إلى وصف أحد الحكماء لمصر فقال:

" ووصف بعض الحكماء مصر فقال: ثلاثة أشهر لو لوءة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء. فأما اللوء لوءة البيضاء فإن مصر في شهر .. تموز .. وآب .. وأيلول يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، وضياها على روابي وتلال مثل الكواكب، قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا في الزوارق، وأما المسكة

(١) تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشكوفسكي، ص ١٨١.

السوداء فإن في شهر .. تشرين الأول .. وتشرين الثاني
.. وكانون الأول ، ينكشف الماء عنها ، وينضب عندها
أرضها ، فتصير أرضاً سوداء ، وفيها تقع الزراعات ، وللأرض
روائح طيبة تشبه روائح المسك ، وأما الزمردة الخضراء ،
فإن في شهر .. كانون الثاني .. وشباط .. وآذار ،
تلمع ويكثر عشبها ونباتها ، فتصير كالزمردة الخضراء ،
وأما السبيكة الحمراء فإن في شهر .. نيسان .. وأيار
.. وحزيران يبيض الزرع ، ويتورد المشيب فهو كسبيكة
الذهب منظرًا ومنفعة" (١)

من وصف الحكيم لمصر واختيار السعودي هذا الوصف بعد سرد
تاريخي لملوك الروم ، يدلنا على ما تميز به وصف المدن والأماكن في
القرن الرابع الهجري ، فلم يقع اختيار السعودي على وصف مشابه لبعض
الأوصاف التي مرت بنا في القرن الثالث ، والتي يهتم الناشر فيها بالتراكيب
أكثر من غيرها ، ولكننا نلتقي في هذا النص مع صور بلاغية جميلة تطابق إلى
حد ما تشبيهات الجاحظ ، فمصر لوء لوءة بيضاء ومسكة سوداء وزمردة خضراء
وسبيكة ذهب حمراء ، كلها تشبيهات بلاغية تجذب القارئ إليها بما توحيه
من جمال فني وتمعنة أدبية ، ثم هو يأتي بنص آخر في وصف مصر قد جمع
فيه بين ما مر بنا من العناية بالتراكيب ، وبين ما هو أماننا وما سيمرنا من
الاهتمام بالناحية البلاغية ، وانتقاء الألفاظ والاهتمام بالسجع حيث " وصف
آخر مصر فقال : نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب (٢) ، وملكها

(١) مروج الذهب ، السعودي ، ط ٤ دار الفكر سنة ١٣٨٤ هـ /

٩٦٤ م ، ت : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٢) جلب : جلبه .. جلبا وجلبا واجتلبه : ساقه من موضع إلى آخر

القاموس المحيط للفيروزآبادي ، مادة : " جلبه " .

لن سلباً، ومالها رغباً، (١) وفي أهلها صخباً، وطاعتهم رهباً، وسلامهم شغباً، وحروبهم حرباً (٢) وهي لمن غلب." (٣)

فبالإضافة إلى الجمل القصيرة المكونة من الصبتدأ، والخبر الذي يمثل فيها صفة للبتدأ الذي سبقه، نجد أن الحرف الأخير في كل جملة موحد فيأتي النص بطريقة سجعوية، تتحد فيها التقسيمات الموسيقية ولا يخفى ما يبذله الناثر من جهد، وما يصادفه من عناء، في سبيل الوصول إلى هذا المستوى من الجمال .

وفي الجزء الثاني من كتابه المذكور، (مروج الذهب) أفرد السعدي فصلاً خاصاً بوصف الأرض والبلدان، وحنين النفوس للأوطان، جمع فيه كموءاً رخ بعض أقوال الحكماء - من سبق عصره - في وصف الأقاليم وما جاء عنهم في الحنين إلى الأوطان؛ وإن كنا سنشير إلى مثل هذه الأوصاف في الباب الثاني من البحث، فإننا نورد النصوص هنا بكاملها نسبة إلى الكتاب الذي جاء ذكرها فيه وللتعرف على ميول مؤلفه من خلال اختياره لهذه القطع النثرية الجميلة .

وعلى الرغم من أن الكتاب مؤلف في التاريخ كما هو ملحوظ، وأكد ذلك صاحب كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وأشار إليه غيره من الدارسين كما أسلفنا، فإن تلك القطع الفنية تمثل خلفية لهذا الضرب من النثر توءد لنا نشوءه في بيئة عربية إسلامية خالصة قبل عصر الترجمة، والنقل عن البيئات الأخرى، كما سنناقش ذلك عند الحديث عن تطوره .

(١) رغب : رغب في الشيء إذا أردته رغبة ورغبا بالتحريك . الصحاح مادة : رغب .

(٢) حرب : حربه يحربه حرباً : إذا أخذ ماله وتركه بلا شيء . الصحاح

مادة : حرب . مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١

وقد نقل لنا المسعودي نصاً لأحد الحكماء بناه على طلب الخليفة الثاني (عمر رضي الله عنه) قام فيه الحكيم بعرض مقدمة عن سبب تفاضل البلدان؛ ثم يصف عدداً كبيراً من الأقاليم، تكاد تكون الأقاليم الواقعة في نطاق الخلافة الإسلامية آنذاك إن لم تتجاوزها في بعض الجهات .

يقول المسعودي :

" ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض - كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوا الأرض ونسكن البلاد والأقطار، فصرف لسي المدن وأهويتها وساكنها، وما توارثه التربة والأهوية في سكانها .

فكتب إليه ذلك الحكيم : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساماً : شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فما تنهى في التشريق ولجج في المطمع السانح منه النور فهو مكروه لا احتراقه وناريتة وحدته واحراقه لمن دخل فيه ، وما تنهى مغرباً أيضاً أرض سكانه لموازاتيه ما أوغل في التشريق ، وهكذا ما تنهى في الشمال أضرب ببرده وقره وثلوجه وآفاته الأجسام فأورشها الآلام ، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريتة ما اتصل به من الحيوان ، ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً ، ناسب الاعتدال . وأخذ يخطه من حسن القسمة ، وسأصف لك - يا أمير المؤمنين - القطع المسكونة من الأرض " (٢)

(١) كشف الظنون - مصطفى بن عبد الله - الشهير بحاجي خليفة ، طدار

الفكر سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ج٢ ، ص ١٦٥٨ - ١٦٥٩ .

(٢) مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٦١ .

بهذه المقدمة العامة، يبدأ الحكيم وصفه للأقاليم المسكونة من الأرض، وهي مقدمة تبين طبيعة كل جهة من الجهات الأربع، حرارة وبرودة، ثم جعل الاعتدال للمنطقة المتوسطة الواقعة بين تلك الجهات .
والواقع أننا لحظنا في النصوص السابقة، وسترى في النصوص القادمة بإذن الله، أن هذه القضية قد أشار إليها أكثر الناثرين، فجعلوا العراق هي المنطقة المعتدلة لتوسطها جميع الأقاليم، وأفاضوا في وصفها، حتى جعل الجاحظ من البصرة، الدنيا، وجعل غيره من بغداد سيدة الدنيا إلى غير ذلك من الأوصاف التي اعتمد أصحابها على ظاهرة التوسط وارتباطه بالاعتدال وتأثيره في صفات البلدان وساكنيها كدليل على تأثير البيئة في السكان .

وبعد تلك المقدمة يعود الحكيم إلى ما وعد به من وصف المسكون

من الأرض فيقول :

" أما الشام فسحبٌ وآكامٌ (١) ، وريحٌ وغمامٌ (٢) ، وفندقٌ (٣) ورُكامٌ (٤) ، ترطبُ الأجسامُ وتبلدُ الأحلامُ ، وتصفِي الألوانَ ، لا سيما أرضُ حِصِّ فإنها تحسُنُ الجسمَ ، وتصفِي اللونَ ، وتبلدُ الفهمَ ، وتنزحُ (٥) غوره (٦) ، وتجفِي الطبعَ ، وتذهبُ بماءِ القريحةِ ، وتنصبُ (٧) العقولَ .

(١) آكام : الأكمة معروفه والجمع أكامات وأكم ... وجمع الأكم آكام .

الصاح ، مادة : أكم .

(٢) الغمام : السحاب ، الواحدة غمامه . الصاح . مادة : غم .

(٣) الماءُ الفندق : الكثير . الصاح . مادة : فندق .

(٤) الركام : الرمل المتراكم ، وكذلك السحاب المتراكم وما أشبهه .

الصاح مادة : ركم .

(٥) نزحت البئر نزحاً : استقسيت ماءً لها كفه . الصاح ، مادة : نزح .

(٦) غور كل شيء : قعره ، يقال : فلان بعيد الغور . الصاح ، مادة : غور .

(٧) نصب الرجل بالكسر نصبا : تعب ، وأنصبه غيره . الصاح ، مادة : نصب .

والشام يا أمير المؤمنين - وان كانت على ما
وصفت لك - فهي مسرحة خصب ، ووايل (١) سكب (٢) ،
كثرت أشجاره ، واطردت أنهاره ، ونفرت (٣) أعشاره (٤) ،
وهي منازل الأنبياء ، والقدس المجتبي ، وفيه حل أشرف
خلق الله تعالى من الصالحين ، والمتعبدين ، وحياله
ساكن المجتهدين والمنفردين .

وأما أرض مصر فأرض قوراء (٥) ، غوراء (٦) ، ديار

الفراعنة ومنازل الجبابرة ، تحمد بفضل نيلها ، ودمها
أكثر من حمدها ، هواؤها راکد ، وحرها زائد ، وشرها
وارد ، تكثر الألوان ، وتخبب الفطن وتكثر الإحسان (٧) ،
وهي معدن الذهب والجوهر والزمرد والأموال ، ومغارس
الغلات ، غير أنها تسمن الأبدان ، وتسود الأبخار ، وتنمو
فيها الأعمار ، وفي أهلها مكروريات ، وخبث ودهاء ،
وخديعة . إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن ، لترادف
فتنها ، واتصال شرورها .

-
- (١) الوايل : المطر الشديد . الصحاح مادة : ويل .
(٢) ماء سكب : أي مسكوب ، وصف بالمصدر . الصحاح مادة : سكب .
(٢) الغمر : الماء الكثير ، وقد غمره الماء يغمره أي علاه . الصحاح ، مادة : غمر .
(٤) أعشار الجزور : الأنصاء . الصحاح مادة : عشر .
(٥) دار قوراء : واسعة . الصحاح ، مادة : قور .
(٦) الفور : المظمئن من الأرض . الصحاح ، مادة : فور .
(٧) يقال في صدره على إحنه : أي حقد . . . والجمع إحسن .
الصحاح ، مادة : أحن .

وأما اليمين فيضعف الأجسام ، ويذهب الأحلام
ويذهب بالرطوبة . في أهله هم كبار ، ولهم أحساب وأخطار
، مفايضه (١) خصبة ، وأطرافه جدية ، وفي هوائه انقلاب ،
وفي سكانه اغتيال ، وبهم قطعة من الحسن ، وشعبية
من الترفه ، وفقرة (٢) من الفصاحة .

وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم ،
هواؤه حرور (٣) ، وليله بهور (٤) ، ينحف الأجسام
، ويجفف الأدمغة ، ويشجع القلوب ، ويبسط الهمم ، ويبعث
على الأحن ، وهو بلد : محل (٥) ، قحط (٦) ، جذب (٧) ،
ضنك (٨) .

وأما المغرب فيقسي القلب ، ويوحش الطبع ، ويطيش
اللب ، ويذهب بالرحمة ، ويكسب الشجاعة ، ويقشع
الضراعة ، وفي أهله غدر ، ولهم خبت ومكر ، وديارهم
مختلفة ، وهمهم غير موء تلفة ، ولديارهم في آخر الزمان نبأ
عظيم ، وخطب جسيم ، من أمر يظهر ، وأحوال تبهرو (٩) .

-
- (١) الفيضه : الأجمة ، وهي مفيض ماء يجتمع فيتبث فيه الشجر .
الصاح ، مادة : غيض .
- (٢) الفقاره بالفتح : واحدة فقار الظهر . . . والفقره بالكسر : شل
الفقاره . . وأجود بيت في القصيدة يسمى فقره تشبيهاً بفقره
الظهر . الصاح ، مادة : فقر .
- (٣) حرور : الريح الحاره ، وهي بالليل كالسوم بالنهار . الصاح ،
مادة : حرر .
- (٤) بهور : بهرة الليل والوادي والغرس : وسطه . الصاح ، مادة : بهور .
- (٥) المحل : الجذب . الصاح ، مادة : محل .
- (٦) القحط : الجذب . الصاح ، مادة : قحط .
- (٧) الجذب : نقيض الخصب . الصاح ، مادة : جذب .
- (٨) الضنك : الضيق . الصاح ، مادة : ضنك .
- (٩) بهر القمر ، أضاء حتى غلب ضوءه الكواكب . الصاح ، مادة : بهر .

وأما العراق فنار الشرق ، وسرة الأرض وقلبها ،
إليه تحادرت المياه ، وبه اتصلت النضارة ، وعنده وقف
الاعتدال ، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذنانهم ، واحتدت
خواطرهم ، واتصلت مسراتهم ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت
عقولهم ، وثبتت بصائرهم ، وقلب الأرض العراق ، وهو
المجتبى من قديم الزمان ، وهو مفتاح الشرق ، ومسلك
النور ، ومسرح العينين ، ومدنه المدائن وما والاها ،
ولأهله أعدل الألوان ، وأنقى الروائح ، وأفضل الأمزجة ،
وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبرات ،
وفضائل كثيرة ، لصفاء جوهره ، وطيب نسيمه ، واعتدال
تربيته ، واغداق الماء عليه ، ورفاهية العيش به .

وأما الجبال فتخشن الأجسام وتغلظها ، وتبلد
الأفهام وتقطعها ، وتفسد الأحلام ، وتميت الهمم ، لما
هي عليه من غلظ التربة ، ومتانة الهواء ، وتكاثفه ، واختلاف
مهابه ، وسوء متصرفاته .

والأخلاق والصور - يا أسير المومنين - تناسب
البلد وتحاذيه ، وتقاربه ، وتوافقه وتضاهيه ، وكل بلد
اعتدل هواؤه ، وخف ماؤه ، ولطف غذاؤه ، كانت
صور أهله وخلاتهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما
عليه أركانه ، وما أسس عليه بنيانه ، وكل بلد يزول عن
الاعتدال انتسب أهله إلى سوء الحال .

وأما خراسان فتكبر الهمم ، وتمظم الأجسام ،
وتلطف الأحلام ، ولأهلها عقول وهمم طاهرة ، وفيهم
غوص وتفكير ، ورأي وتقدير .

وأما بلد فارس فخصب الفضاء ، رقيق الهواء ، متراكم
الماء ، معتم بالأشجار ، كثير الثمار ، وفي أهله شح ، ولهم
حب ، وغرائزهم سيئة ، وهمهم دنيئة ، وفيهم مكر وخداع .
وأما بلاد خوزستان فهي كدرة الهواء ، تفسد
الأحلام ، وتبطل الأفهام ، وتخبت الهمم ، وتستأصل
الكرم ، يساق أهله سوق الأنعام ، وهم الهيج الطغام .

وأما أرض الجزيرة فتناسب البر بالهواء اللطيف ،
وفيها خصب وسرح ، ولا أهلها بأس ومراس . والبر
- يا أميرالمؤمنين - أفضل قطع الأرض وأسناها ،
وأشرفها وأعلاها نحو الإنجاد والتهايم ، لحماية الهواء
الأقذاء عن سكانه ، ودفعه الآفات عن قطانه ، وسماحة
الشمس ، وتهذيب الماء ، وصحة المستسم ، وارتفاع الأكدار ،
وزهاب الأضرار .

واعلم - يا أميرالمؤمنين - أن الله تبارك وتعالى
قسم الأرض أقساما فضل بعضها على بعض ، فأفضل
أقسامها العراق ، فهو سيد الآفاق وقد سكنه أجيال وأم
ذووكمال .

وأما الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بي
إلى وصفها لك ، لأنها منازل شاسعة ، وبلدان نائية
كافرة طاغية .

(١)

وفي الذي ذكرته لك ما أشقى بك إلى ما شممت
إلى علمه ، وكل ما وصفته في هذه البلدان فهو الأعم من
أمر أهلها ، والأغلب على أحوالهم ، فإن وجد فيهم أحد
بخلاف ذلك ، فهو النادر يا أميرالمؤمنين ، والحكم في

ذلك للأغلب (١).

هذا الوصف للحكيم قد اشتمل على وصف كثير من البلدان التي كانت مسكونة آنذاك، وإن كان سابقا للفترة التي عاش فيها المسمودي، إلا أنه أورد في كتابه مروج الذهب، ونسبه إلى حكيم مجهول في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أوردناه كاملا للفائدة على الرغم من الإشارة إليه في موضعه المناسب عند الحديث عن تطور وصف المدن والأقاليم، وإذا أعرنا هذا النص نظرة سريعة فنلاحظ أن صاحبه قد ركز تركيزا كاملا على وصف الأقاليم، ولم يتعرض لمدينة بعينها وفي وصفه لها بين من ناحية علمية تأثير تلك الأقاليم بالنواحي المناخية، وأكد على حالسة الهواء خاصة في تلك البلدان، ثم مدى تأثيرها بصفة عامة على سكانها من حيث أجسامهم، وأحلامهم، وأفهامهم، وعقولهم، وطبائعهم وأخلاقهم حتى ذكر الفضائل والرتائل، ونسبها إلى تأثير البلدان على أهلها وكان يصف البلد ثم يشير إلى حالة أهله، كنتيجة طبيعية لحالة البلد التي جاء بها في وصفه.

والواقع أن هذا الأسلوب من الحكيم يتفق مع الفرض الذي من أجله كتب هذا الوصف، فعلى الرغم من أنه كان مقصودا وليس بطريقة عابرة، إلا أنه كان ردا على استفسار من الخليفة لمعرفة أحوال تلك البلدان، ومدى ملاءمتها للسكنى، وحالة الهواء في تلك الأقاليم، ومدى تأثير التربة والأهوية في السكان. فكانت إجابات الحكيم متفقة مع السوء الالموجه، حيث أجمل إجابته أولا في تأثير المواقع نفسها من الجهات الأربع الشرق والغرب والشمال والجنوب وأن طبيعة كل بلد يتفق مع موقعه من تلك الجهات، ثم فصل ما أجمل فذكر كل حالة على حده.

لذلك فقد كانت معانيه تميل إلى الناحية العلمية غير أن أسلوبه كان فنياً، كما رأينا، على الرغم من أنه لم يهدف بهذا النص ناحية الإمتاع كما يحدث عند كتابة النصوص الفنية، ولم يقصد المقارنة وتفضيل بلد على آخر من باب العاطفة لأنه يسكنه، أو يريد ذم بلد لأن خصمه يسكن ذلك البلد؛ كما قد يحدث عند بعض الناثرين . ولكنه أراد إخبار الخليفة عما سأل عنه وحاول الحياد قدر الإمكان كما هو ملحوظ من النص .

أما السعوى فقد نقل لنا من جديد سوء الأما من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى كعب الأحمار عن العراق وما أجاب به كعب من اختصاص كل بلد بصفة مميزة، ومنها العراق، وجاء بهذا الوصف بطريقة شيقة جعل فيها من تلك الصفات عقلاً تلتقي وتتشاور وتختار كل واحدة منها بلداً معيناً وتلحق بها صفة أخرى حتى أسند لكل بلد صفة رئيسية وصفة أخرى ملحقة بها :

قال السعوى :

" وذكر جماعة من أهل العلم بالسيرة والأخبار أن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - لما أراد الشخوص إلى العراق - حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلادهم - سأل كعب الأحمار عن العراق فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالعراق ، فقال العلم وأنا معك ، فقال المال : وأنا لاحق بالشام ، فقالت الفتن : وأنا معك ، فقال الخصب : وأنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ، فقال الفقر : وأنا لاحق بالحجاز ، فقالت القناعة : وأنا معك ، فقال الشقاء : وأنا لاحق بالبوادي ، فقالت الصحة : وأنا معك . (١)

فكعب الأخبار هنا يريد أن ينعت أصحاب العراق بالعقل والعلم ،
وأصحاب الشام بالفنى وكثرة الفتن ، ومصر بالخصب والجبن ، وأصحاب الحجاز
بالفقر والقناعة ، وأصحاب البوادي بالشقاء والصحة ، فعبر عن ذلك بهذه الطريقة
المتعة والتي تستخدم عادة لتثبيت معنى من المعاني لدى الآخرين .
وهذه الحكاية قد جاءت بروايات مختلفة عن الجاحظ وغيره
وأحيانا بصور مختلفة (١) ما يدل على أن أمثال هذا الأسلوب كان
تستخدمها لدى الناصريين بل ربما ومحبيها لدى الآخرين .

وبعد هذه الحكايات التي جمعها السعدي عن الحكماء وغيرهم ،
يفصح عن مراده الذي حاول إخفاءه عند سرد ما مر بنا من أوصاف
البلدان التي لحظنا فيها دائما تمييز العراق عن غيره من الأقاليم بأجمل
الصفات ، وإن لم يكن السعدي وحده الذي يحاول إثبات هذا المعنى ،
فقد سبقه كما لحظنا اليعقوبي ، ولعلنا نقابل غيرها في النصوص القادمة ،
وإفصاح السعدي هنا يظهر عنه نص فني في وصف العراق ، ينسبه
لنفسه ، ويعلل ذلك بما لهذا الإقليم من حق واجب عليه ، على الرغم مما فعلته
الأيام من تفريق بينهما ، وبعد كل منهما عن الآخر ، حتى تولد عن ذلك
حنين في قلب المؤلف إلى ذلك الموطن ، فأقبل عليه يصف مكانته من قديم
الزمان لدى ملوك الفرس وأهل الروم في الإسلام ، ويبرر تلك المكانة
وذلك التقدير العظيم بما خص به من كثرة المرافق ، واعتدال الأرض ، وغضارة
العيش ، إلى غير ذلك من الصفات التي أضفاها عليه ، والتي يمكن ملاحظتها
من خلال النص نفسه .

(١) أنظر تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ،

بدمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد (١٣٧١هـ / ١٩٥١م) ، المجلد

الأولى ، ص ٣٣٨ - ٣٤١ .

قال المسعودي :

" وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به ، وإن كانت
الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحت مسافتنا عنه ، وولدت
في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم
بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا ،
وقدره عظيما ، وكانت عنايتهم إليه مصروفه ، وكانوا يشتون
بالعراق ، وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وينتقلون في الفصول
إلى الصرود من الأرض والحرور ، وقد كان أهل المروءات
في الإسلام كأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي (١)
 وغيره يشتون في الحرور وهو العراق ويصيفون في الصرود ،
وهي الجبال

وذلك لما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقه ، واعتدال
أرضه ، وغضارة (٢) عيشه ، ومادة الرافدين إليه ، وهما
دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبعد الخوف عنه ،
وتوسط الأقاليم السبعة ، وقد كانت الأوائل تشبهه
من العالم بالقلب من الجسد ، لأن أرضه من إقليم
بابل الذي تشعبت الأراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع
ذلك عن القلب ، وهكذا اعتدلت ألوان أهله ، واقتدرت
أجسامهم ، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، وسواو
الحبشة ، وغلظ البربر ، ومن جفا من الأمم ، واجتمعت

(١) هو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده . كانت وفاته سنة

ست وعشرين وقيل خمس وعشرين ومائتين ببغداد . وفيات الأعيان

طدار صادر ج ٤ ، ص ٩٣ - ٧٩ .

(٢) غضارة : الغضارة : طيب العيش . الصحاح مادة : غضر .

فيهم محاسن جميع الأقطار ، وكما اعتدلوا في الجبلية ،
لطفوا في الفطنة ، والتمسك بمحاسن الأمور ، وأشرف هذا
الإقليم مدينة السلام ، ويعز علي ما أصا رتني إليه الأقدار
من فراق هذا المصير الذي عن يقعته فصلنا ، وفي قاعته
تجمعنا ، ولكنه الزمن الذي من شيمته التشتيت ، والدهر
الذي من شروطه الإبانة . (١)

فالسعودي كما نلاحظ يحن إلى مسقط رأسه . ويذكر إجلال الناس
له بسبب محاسنه التي عددها واحدة تلوا الأخرى ، وإذا كان الإقليم قد نال
تلك المكانة فإن مدينة السلام هي أشرف مكان فيه . ثم يعود من جديد
ليكرر الحنين إليه ويتهم الزمن بأنه دائم التفريق بين المحب ومن أحب ،
والدهر الذي من شروطه الإيمار .

ويتبع ذلك بالعودة إلى الكلام عن الحنين إلى الأوطان ، وما قالتها
الحكماء والعرب في ذلك ، وهو هنا يذكرنا بأسلوب الجاحظ في الاستطراد ثم
العودة من جديد إلى ما بدأه ، وقد كان عرض السعودي لما قيل فسي
الحنين للأوطان حسنا ، ولن نتكهن هنا من متابعة كل ما عرضه أو أشار إليه
في هذا الكتاب ، إذ ليس من هدفنا ذلك ، وما نحن بصدده هو النصـوص
الخاصة بوصف المدن والأقاليم - على الرغم من تناثرها في الكتاب - فسوف
نختار منها ما يمكن الوقوف عنده .

ومن ذلك ما وصف به الحيرة حين قال :

” . . . وقد كان جماعة - من خلفاء بني العباس كالسفاح
والمنصور والرشيد وغيرهم - ينزلونها ويصلون المقام بها
لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلابتها
وقرب الخورنق والنجف منها . ” (٢)

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

وهذا جزء من وصف للحيرة تحدث فيه عن صفاتها ثم ما لحق بها من خراب عقب ذلك، ولا شك أن الجمل القصيرة المذكورة في هذا النص تذكرنا بأسلوب نلتقي به كثيرا في وصف المدن، وهو يتكون من جمل إضافية قصيرة ذات سجع واحدة وتقسيمات موسيقية متقاربة .

وينتقل منه إلى وصف مشابه له وهو لا أرض سبأ فيقول :

" وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت ممن أخصب أرض اليمن وأثراها ، وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغيطانا ، وأفسحها مروجاً ، مع بنيان حسن ، وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وازهار متفرقة وكان أهلها في أطيب عيش وأرفعه ، وأهنأ حال وأرغد قرى . وفي نهاية الخصب وطيب الهواء ، وصفاء الغضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ونهاية المملكة " (١) .

وقد جمع المسعودي في هذا النص على قصره أكثر من أسلوب في وصف البلدان ، فهو في البداية يستخدم أسماء التفضيل : أخصب ، وأثرى ، وأغدق ، وأكثر ، ثم يلحق بها تميّزا يوضح نوع التفضيل : جنانا ، مروجاً ثم مجموعة من الصفات : حسن ، مصفوف ، متكاثفة ، متفرقة ، ثم جمل إضافية متوالية ، مما جعل النص يمثل قطعة فنية جميلة ، لا يمل القارئ تقسيماتها الموسيقية ، لا اختلاف فاصلتها من جزء إلى آخر .

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

٤ - ابن حوقل وكتابه صورة الأرض :

هو " محمد بن علي بن حوقل النصيبي البغدادي الموصلي (أبو القاسم) . رحاله ، جغرافي ، كان تاجرا ورحل عن بغداد سنة ٣٣١ هـ ودخل المغرب وصقلية ، وجاب بلاد الأندلس وغيرها وتوفى بعد سنة ٣٦٢ هـ من آثاره السالك والمالك " (١) وهو الكتاب الذي تم ظهوره أخيرا بعنوان صورة الأرض وتم تداوله بهذا الاسم .

وقد أشارنا شر الطبعة الجديدة التي تحمل هذه التسمية بأن الكتاب سبق له أن " طبع مرتين في ليدن ونشر في الطبعة الأولى باسم (السالك والمالك والمفاوز والممالك) ثم حسنت هذه الطبعة ونشرت بعنوان صورة الأرض (٢)

والكتاب يقع في مجلد واحد مطبوع ، بدأه المؤلف رحمه الله بمقدمة تحدث فيها عن السبب الذي دفعه إلى تأليفه ، وهو أنه لم يقرأ في السالك كتابا مقنعا ، ثم يشير إلى بداية رحلته وأنها كانت يوم الخميس ٧ رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وبدأت من مدينة السلام . ثم يصف الحالة السياسية عند خروجه ، موضحا أن الأوضاع كانت غير مستقرة ، بسبب النزاع القائم بين الأتراك وبين أبي محمد الحسن بن عبدالله بن حمدان . ويصف حالته الشخصية عند ذلك ، فيبين أنه كان في عنفوان الشباب (٣) . ويتضح من مقدمة كتابه أن تلك الأسباب مجتمعة ، هي التي جعلته يقوم بتلك الرحلة

(١) معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة ، ط بيروت ج ١ ص ٥

والأعلام - للزركلي ج ٦ ، ص ٢٤٤

(٢) مقدمة الناشر ص ٦

(٣) مقدمة المؤلف ص ٩ - ١١

التي جاب خلالها بلاد الإسلام قاطبة . وبعد المقدمة يصف الأرض بشكل عام ثم يفصل فيذكر البلدان التي شاهدها أثناء رحلته ابتداءً بديار العرب فالمغرب والاندلس ، ثم يعمد إلى جزيرة صقلية ، ومصر فالشام فالجزيرة فالعراق . ويتجه مرة أخرى نحو الشرق ماراً بخوزستان وماوراءها من المناطق الواقعة في نطاق البلاد الإسلامية حتى ما وراء النهر .

وعلى الرغم من أن ابن حوقل من سكان مدينة بغداد ، وبدأ رحلته منها إلا أنه عند وصف البلدان ، بدأ بديار العرب ، وليس ذلك فحسب بل إنه يضع لها اعتباراً خاصاً يخالف به أكثر من سبقه وهو أن ديار العرب هي واسطة الأقاليم ، مؤكداً ذلك بصراحة ووضوح عند قوله :

” وقد فصلت بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعا صقعا ^(١)
وكورة كورة لكل عمل ، ومدأت بذكر ديار العرب فجعلتها
إقليماً واحداً لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى ، وهي
واسطة هذه الأقاليم عندي ” . ^(٢)

ولذلك فقد افتتح وصفه الفني بالحديث عن المدينة المنورة

على صاحبها من ربه أزكى التسليم والتحية :

” وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أن غبار المدينة
أمان من الجذام) ومن أقام بها وجد في ترابها
وهوائها رائحة ليست في الأرائيح طيباً ، خلقة فيها ،
وجوهريّة لا تتغير . وهي أنقى طينا من الطيب بسابور ،
وأذ نسيما من نهر الأبلّة ^(٣) ، ولا تتغير المعجونات
والطيب بها ما أقاما ” . ^(٤)

(١) الصقع بالضم : الناحية . الصحاح مادة صقع .

(٢) مقدمة صورة الأرض ص ١٥-١٦ .

(٣) نهر الأبلّة : نسبة إلى الأبلّة وهي ” بلدة على شاطئ دجلة البصرة ...

وهي أقدم من البصرة . معجم البلدان ج ١ ص ٧٧ .

(٤) صورة الأرض - ص ٣٨ .

وأول ما نلاحظه من قراءة تنا للنص هو وجود شبه إلى حد كبير بينه وبين نص سبقت لنا رؤيته ضمن نصوص الجاحظ . وهذا يؤيد لنا مدى استفادة الناشرين ما جاء على لسان الجاحظ سواء كان ذلك من تأليفه أو من روايته . وإن كان ابن حوقل قد حاول الاستشهاد بحديث جاء به بصيغة مفارقة للحديث الذي رواه الجاحظ - عن طريق التقديم والتأخير - في وصف الجاحظ للمدينة المنورة إلا أننا عند مقابلة النصين نجد أن ابن حوقل قد استفاد ما جاء على لسان الجاحظ وأضاف إليه بعض عبارات من نشره .

وإذا كان قد بدأ وصفه بحديث شريف وبخاصة لمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم ذكر ما جاء عنها لدى الجاحظ ، فإنه رأى أن مكانة المدينة المنورة وفضلها لا يتناسب معهما إلا ما جاء عن ساكنها حيا وميتا والذي كان سببا في تفضيلها وتشريفها واكتسابها تلك المكانة العظيمة عليه أفضل الصلاة والسلام .

كما رأى أن من الإنصاف إعطاء كل ذي حق حقه ، وحق الجاحظ في مجال الأدب وخاصة النشر منه ، أن يُقدم لأنه أبو النشر العربي كما قد سنا . وإذا كان ابن حوقل في هذا النص قد منح المدينة حقهما فوصفها بما وصفها به الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام مشيرا إلى ذلك الحديث ، فإنه عند سرد الصفات التي جاءت على لسان الجاحظ لم يسندها إليه بل خلطها بعبارات من نشره هو ، كانت على درجة كبيرة من الجمال ، وهي أنقى طينا من الطيب بسابور ، وألذ نسيما من نهر الأبله . على الرغم من أنه اقتبسها من تفصيل الجاحظ لوصف المدينة .

غير أننا لا نتهم ابن حوقل بنسبة ما ليس من تأليفه إلى نفسه

ولا نسيء الظن به فـ " إن بعض الظن إثم " ولكننا نبرر ذلك بأن طريقة العلماء في العصور المتقدمة، كعصر الموء لف كانت تعتمد على الاقتباس الذي لا يُسند لصاحبه الحقيقي إلا في القليل النادر بل إن كثيرا ممن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة كانت تُورد مزوجة بأساليب الموء لفين، ولم يُشر إليها ويجعلها بين علامات التنصيص إلا المحققون - المحدثون - لتلك الكتب.

ونلاحظ في وصف المدينة أيضا عدم الإشارة إلى أهلها كالعادة في مثل هذه النصوص، كما سنجد في نصوص الموء لف التي سوف نتناولها وربما كان ذلك تمشيا مع نسق الحديث الذي لم يشر إلى أهلها، على الرغم من أن الجاحظ قد وصفهم، وكان موء لفنا من خلال اقتباسه ونقله عن الجاحظ، قد اطلع على ذلك الوصف إلا أنه أهمله .

وبعد هذا النص الذي بدأ فيه ابن حوقل وصفه للمدن والأقاليم، نعرض النصوص الأخرى التي تم اختيارها من ثنايا أوصافه الكثيرة التي لا يصل أكثرها إلى مستوى يوء هلهما لأن تكون فنية تستحق العرض .
ومن تلك النصوص المتناثرة في كتابه صورة الأرض، هذا النص الذي يصف فيه مدينة المهديّة :

" والمهديّة مدينة صغيرة، استحدثها المهدي القائم بالمغرب، وسماها بهذا الإسم، وهي في نحر البحر وتحول إليها من رقادة القيروان (١) في سنة ٣٠٨ هـ، وهي من القيروان في مرحلتين . . . كثيرة التجارة، حسنة

(١) رقادة القيروان : بلدة كانت بافريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام . معجم البلدان ص ٥٥ .

السور والعمارة ، ضيعة ولها سور من حجارة ، . . .
كثيرة القصور ، نظيفة المنازل والدور ، حسنة الحمامات
والخانات ، خصبة رفهة الفواكه والفلات . طيبة
الداخل ، نزهة الخارج ، بهية المنظر ، . . . ولوكها
كماة (١) ، وجيوشها حماة ، وتجارها طراة (٢) ، (٣)

أما هذا النص فإن ميزة جديدة تظهر عليه بوضوح ، وهي اتحاد
السجعة في كل مجموعة من الجمل فهو في المجموعة الأولى يلتزم التاء
المربوطة ، ولكنها هنا ليست مع تنوين كما مر في النص السابق بل مجرورة
بالإضافة ، لأن الجمل هنا إضافية . ثم يلتزم الراء في جملتين والتاء في
جملتين محاولا إضفاء أسلوب السجع على النص ولكنه يستخدمه بقلة فلا يكاد
يقترب منه حتى يعود فيغيره .

أما الأسلوب العام في النص فهو الأسلوب الإضافي ، وقد التزم
فيه الناثر بجمل مكونه من اسم يقع خبرا لمبتدأ هو اسم المدينة
الموصوفة ، ومضاف إليه وهو اسم الجانب المراد تمييزه عن غيره باضفاء
تلك الصفة عليه . كثيرة التجارة ، حسنة السور والعمارة . الخ فالأولى
مثلا جملة تعد المهدية فيها اسم مبتدأ وكثيرة خبر المبتدأ والتجارة
اسم مضاف إليه واسم التجارة هو الجانب الذي يريد الناثر إيضاح كثرته
وكذلك السور فهو الجانب الذي يود الناثر إثبات حسنه وهكذا باقي الجمل .

(١) كماة : الكمي : الشجاع المتكفي في سلاحه لأنه كمي نفسه أي

سترها بالدرع . . والجمع الكماة . الصحاح مادة كمي .

(٢) طراة : الطرا : يكثر به عدد الشيء يقال : هم أكثر من

الطرا والثرى . تاج العروس مادة طرا .

(٣) صورة الأرض ص ٧٣ .

وهذا الأسلوب سنراه كثيرا في النصوص القادمة بإذن الله،
وبخاصة عند المقدسي والإدريسي وابن جبيرة ويبدو أن المقدسي دون غيره
قد استخدمه كثيرا في وصفه للمدن والأقاليم.

ويلتزم ابن حوقل نفس الترتيب الذي التزم به من سبقه في وصف
أهل المدينة، وهو أن يأتي به في نهاية النص "فلوكها كماء، وجيوشها
حماة، وتجارها طراة" وهي أوصاف لأهل المهديّة وقد جاءت نهاية
النص.

ثم يصف مدينة سوسة :

" وأما سوسة فمدينة بين الجزيرة والمهديّة ، طيبة
رفهة ، خصبة ، على نهر البحر ، ولها سور حصين وماؤها
معين ، وبها مواجن (١) قليلة ، وأعمال صالحة نبيلة ،
وفي أهلها دهقنة (٢) ، والفأب عليهم السلام . . . ولها
أسواق حسنة ، وفنادق وحمامات طيبة . . . وكانت لها
ضياح جبهة ، ووجوه من الجباية غزيرة ، وغلات واسعة ،
ورباطات كثيرة " (٣).

وأول ما يلفت النظر في هذا النص هو وجود ثلاث صفات منفردة
غير مرتبطة بجملي وتقع في بداية النص "طيبة ، رفهة ، خصبة" ، وعلى
الرغم من أن مثل هذه الأوصاف المنفردة قد مرت بنا قبل هذا النص

(١) الوجن : الدق ، والمجنّة مدقة القصار ، والجمع مواجن . لسان العرب،
مادة : وجن .

(٢) الدهقن : القوي على التصرف مع حدة . . . والاسم دهقنة . لسان العرب،
مادة : دهقن .

(٣) صورة الأرض ص ٧٤ .

وخاصة عند ابن حوقل في وصف المهدي الذي ذكرناه آنفاً، فلكمة " منيعة " الواقعة بين الجملتين " حسنة الصور والعمارة ، ولها سوق من حجارة " وكلمة " خصبة " الواقعة بين الجملتين " حسنة الحمامات والخانات ، رفهية الفواكه والفلات " تعد من هذا النوع، غير أن الجديد في هذا النص هو تتابع أكثر من صفة بل وصل إلى ثلاث صفات، وهذا الأسلوب الذي استخدمه ابن حوقل، لنا معه وقفة أخرى عند الحديث عن تطور هذا الضرب من النثر الفني لندفع عند ذلك شبهة أثارها أحد المستشرقين تتعلق بهذا الأسلوب وغيره من أساليب وصف المدن والأقاليم في النثر الفني العربي . (١)

وفي بقية النص، يأتي الناثر بجملتين على سجعة واحدة، هي النون، ثم يأتي ببقية الجمل على سجعة أخرى هي التاء المربوطة . ومع أن الناثر هنا قد جاء بعدد كبير من الجمل التي انتهت كل جملة منها بتاء مربوطة ليجعل منها جملاً مسجوعة إلا أن النظرة الدقيقة للنص توضح عدم تساوي الجمل من حيث تراكيبها، فحيناً يأتي بجملة قصيرة، وحيناً آخر يأتي بجملة أطول منها، ثم يعود إلى ما كان عليه، وهذا يوهن أثر على التقسيم الموسيقي للنص فتقل قيمته الفنية وعلى العكس من ذلك فإن تساوي الجمل وتوحيد الفاصلة يكون له تأثير أكثر على النفس ويشعر القارئ معه بمتعة فنية عالية .

(١) وهي مقالة الاستاذ غزنيانوم أن الصفات المتتالية لم يستخدمها الناثر العربي الا في وصف الاشخاص فقط ولم ترد في وصف المدن .

ثم هوهنا يخالف أكثر الناثرين فيأتي بصفات أهل المدينة في منتصف النص " وفي أهلها دهقنة ، والغالب عليهم السلامه " وكأنه أراد إنها الوصف ثم عن له العودة إليه فاستمر دون تعديل في الأسلوب .

ثم وصف الإسكندرية :

" وهي مدينة على نحر بحر الروم ، رسومها بينة ، وآثار أهلها ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة ، وتعرف عن تمكن في البلاد وسمو ونصرة ، وتفصح عن عظمة وعبرة ، كبيرة الحجارة ، جليلة العمارة ، . . . وفيها النارة المشهورة المبنية بالحجارة ، المركبة المضيبة (١) بالرماض ، وليس بجميع الأرض لنارتها نظير يدانيها ، أو يقارنها في اشكالها وسمانيتها . وعجائبها ومعانيها ، تشتمل على آية بينة ، ويستدل بها على ملكة كانت قاهرة ، لملك عظيم . " (٢)

وابن حوقل كما نرى ، لم يلتزم أسلوبها في الوصف واحدا في جميع النصوص ، كما أنه قد يستخدم أكثر من أسلوب في ثنايا النص الواحد ، ثم هو يطلق لنفسه العنان ، فيأتي بتشكيلة من الجمل ذات تراكيب مختلفة فيبدأ بجملة قصيرة مكونة من مبتدأ وخبر ، ويتدرج فيجعل الجملة الثانية أطول من الأولى ، ثم الثالثة أطول والرابعة أكثر طولاً ثم يعود بنفس الأسلوب من التدرج فيأتي بجملة أقصر إلى أن يعود إلى جملة قصيرة كالتي بدأ بها ، إلا أنها في النهاية مكونة من مضاف ومضاف إليه .

(١) المضيبة : أصل الضب : اللصوق بالأرض . الصحاح مادة : ضيب .

(٢) صورة الأرض ص ١٤١-١٤٢ .

أما وصف المنارة؛ فنلاحظ أن الجمل كانت أطول من الجمـسـل المستخدمة في وصف المدينة، وإن كان قد حافظ على فاصلتها .
وهناك ملحوظة أخرى في هذا النص وهي أن وصف أهل مدينة الإسكندرية قد جاء قرب بداية النص بعد أن جاء به في وسط النص السابق .

وإذا كان أديبنا ابن حوقل لم يلتزم بأسلوب معين وطريقة واحدة عند وصفه لمدينة الإسكندرية، فربما يعود ذلك إلى ظروف خاصة قد قابلته في هذه المدينة الجميلة التي كنا نتظر أن يمنحها أجمل العبارات، وأحسن الصفات، لموقعها ومكانتها وتأثيرها على كثير من الناشرين فوصفوها بأجمل القطع الفنية .

وعلى الرغم من ذلك فإن ابن حوقل يعوضنا بما ممتعاً يلتزم فيه بتوحيد الفاصلة، والتقسيم الموسيقي للجمل، يشمرنا بقدرته وتمكنه، وهذا النص في وصف إقليم العراق، وهو الإقليم الذي قضى فيه فترة من حياته وبدأ منه رحلته :

” هذا الإقليم أعظم أقاليم الأرض منزلة، وأجلها صفة،
وأغزرها جباية، وأكثرها دخلاً، وأجملها أهلاً، وأكثرها
أموالاً، وأحسنها محاسن، وأفخرها صنائع، وأهلـه
فأوفرهم عقولاً، وأوسعهم حلوماً، وأفسحهم فطنة في
سالف الزمان والأأم الخالية، وبمثلـه تجرى أمور أمة
الآخرة، يقرب ذلك لهم أهل الطاعة والفضائل، ولا يمتري
فيه أهل الدراية والحصائل.”
(١) (٢)

(١) التحصيل : تمييزاً ما يحصل ، والاسم الحصيلة . لسان العرب مادة : حصل .

(٢) صورة الأرض ص ٢١٠ .

لحظنا هذا الأسلوب في وصف المدن عند الجاحظ عندما وصف البصرة، وعندما نقل عن أهل الكوفة ذمهم لها ، وسيربنا مرة أخرى لدى ناثر آخر هو أبو نعيم الأصفهاني، عند مدحه مدينة أصفهان وكذلك عند القزويني والحريري عند الحديث عنهما بإذن الله .

ويبدو أن هذا الأسلوب لم يرد بكثرة في نصوص الناثرين ولكنه جاء على لسان أهمهم، فهو عند الجاحظ كبداية اقتفى أثرها الآخرون. وان كان قد أتى في جمل معدودة شأنه شأن وصف المدن عند الجاحظ، إذ لم يسرف فيه ولكنه وضعه قواعد هذا الضرب من النثر سار على هديها من جاء بعده .

أما أبو نعيم فقد ورد هذا الأسلوب عنده في وصفه لأصفهان في نص واحد فقط وسوف تلمس هذه الندرة أيضا في نص القزويني والحريري . ومن ندرة وجود هذا اللون من الوصف تتضح قيمته الفنية، فالسبب جانب أسماء التفضيل التي ترد فيه والتي تميزه عن غيره، وتجمل الموصوف من خلال تلك الأسماء يحتل مكانة تفوق أمثاله، فإن تقسيم الجمل الداخلي والنفحة الموسيقية الجميلة في هذا التقسيم، ثم تساوى الجمل والجرس الموسيقي كل هذه المميزات ترفع من قيمة هذا الأسلوب الفنية وتمنحه مكانة خاصة .

وفي النص الذي بين أيدينا، تمكن شيخنا الفاضل ابن حوقل من إضافة مميزات أخرى، تتمثل في التحكم في فواصل الجمل نفسها، فهسي في الثلاث الجمل الأولى تنتهي بتاء مربوطة عليها تنوين ، وفي ثلاث الجمل التي تليها تنتهي بلام عليها تنوين أيضا، وفي الجملتين التاليتين يأتي بالتمييز الذي يقع نهاية الجملتين اسما ممنوعا من الصرف، فتظهر عليه الفتحة دون تنوين ، وهذا التقسيم في التراكيب يجعل القارئ يعيش

جوا ممّعا، فيه نوع من التدرج والقدرة على مواكبة الحالة التي يعيشها
الناثر في النص .

فهو يبدأ بنغمة سريعة تتضح من خلال ثلاث الجمل الأولى
" منزلة ، صفة ، جباية " ينتقل بعدها إلى نغمة أهدأ من سابقتها
وأطول نفسا منها " دخلا ، أهلا ، أحوالا " ثم يزداد الهدوء أكثر
فيتخلص من التنوين ويستخدم أسماء لا تنصرف هي أساسا جموع على
وزن فعاثل ولا يخفى ما توحى به مثل هذه الصيغ من الهدوء لوجود حرف
المد في وسط الكلمة " الفضاثل ، الحماثل " .

ثم يسير بنفس الطريقة التي التزمها كثير من الناثرين ، فيعبد
الإنهاء من وصف المدينة ، يعود فيصف أهلها مترسما نفس الخطوات التي
سار عليها في وصف المدينة المنورة ، تناسيا ما جاء عنه عند وصف سوسة
والإسكندرية من تقديم فضاثل أهل تلك البلدان .

وأخيرا يصف إقليم ما وراء النهر فيقول عنه :

" وما وراء النهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة ،
وأنزها وأكثرها خيرا ، وأهله يرجعون إلى رغبة في الخير
واستجابة لمن دعاهم إليه ، مع قبلة غاية عالية ، وسلامة
ناحية ، وسماحة بما ملكت أيديهم مع شدة شوكة ومنعة ،
وأس ونجدة ، وعدة وعدة ، وآلة وكراع (١) ، وسالمة
وسلاح ، وعلم وصلاح " (٢) .

(١) كراع : الكراع ، اسم يجمع الخيل نفسها . الصحاح مادة : كراع .

(٢) صورة الأرض ص ٣٨٤ .

وفي هذا النص يعود بنا ابن حوقل رحمه الله إلى الأسلوب الذي سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن النص الذي وصف به ناثرنا إقليم العراق، وهو الأسلوب الذي يستخدم فيه الناثر أسماء التفضيل ليدل على تفوق تلك المدينة أو المصر على أقرانه.

ونلاحظ في هذا النص تكرار اسم التفضيل في جملة واحدة " وأنزهها وأكثرها خيرا " على الرغم من قصر النص وعدم وجود تكرار في النص الذي سبقه عند وصف العراق مع طوله . ويظهر من السياق أن الناثر يريد استخدام طريقة جديدة في الوصف، فمع تكراره لأسماء التفضيل نجده يسرد صفات أهل المدينة سردا لا يرتبط بجمل كاملة، بل يكفي باستخدام حرف العطف للربط بينها " مع شدة شوكة ومنعة، وبأس ونجدة، وعسدة وعدة، وآلة وكراع، وسالة وسلاح، وعلم وصلاح " . ولا تخفى سرعته وعجلته في هذا السرد للصفات.

ومع أن ابن حوقل قد وضع وصف أهل هذا الإقليم في موقعه في نهاية النص، إلا أننا نلاحظ عدم استقصائه جميع صفات الإقليم فهو هنا يكتفى بعدد قليل من الصفات في بداية النص وينتقل إلى أهله وكأنه عجل، وهذا لا يتفق مع أسلوبه في الوصف الذي مر بنا إذ كان يستقصى صفات المدينة أو المصر، وإذا لم يأت بجميع الصفات فإنه على الأقل يسرد أكثرها .

وبالإضافة إلى ما ذكرناه فإن هناك ملحوظة أخرى، تظهر في هذا النص، وهي أن معنى اسم التفضيل لا يتفق تماما مع التمييز الذي يرد بعده، كما هو معروف في هذا اللون من الوصف، ففي الجملة الأولى على سبيل المثال: " من أخصب أقاليم الأرض منزلة " فأخصب لا تتفق مع منزلة

وكان الاٌجدر به أن يأتي باسم تفضيل آخر، كما فعل عند وصف إقليم العراق وجاء بنفس الجملة مستخدماً معها اسم تفضيل يتفق مع التمييز الوارد بعده فقال : " أعظم أقاليم الأرض منزلة " وكلمة أعظم هنا تتفق تمام الاتفاق مع منزلة .

وتتكرر نفس الملحوظة في الجملة الثانية " وأنزهها وأكثرها خيراً " فكلمة أنزهها لا تتفق من حيث المعنى مع كلمة " خيراً " مع أنه قد فصل بينهما هنا بكلمة " أكثرها " والتي يتسق معناها مع معنى " خير " وكان يمكنه الاكتفاء بها .

ومن خلال هذه الملحوظات تتضح سرعته وعجلته في هذا النص مما أدى إلى ظهور تلك الملحوظات التي أشرنا إليها .

الفصل الثاني

المفدسى وكنابه أحسن النفاسيم
في معرفة الأقاليم

الفصل الثاني

المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم

وهو "محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، المقدسي ويقال لــــه البشارى شمس الدين أبو عبد الله ، رحاله جغرافي ولد في القدس، وتعاطى التجارة فتجشم أسفارا هيأت له المعرفة بفوامض وأحوال البلاد ، ثم انقطع إلى تتبع ذلك ، فطاف أكثر بلاد الإسلام . و صنف كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)^(١) واختلف أصحاب التراجم في تاريخ وفاته فذكر صاحب هدية العارفين أن ذلك كان سنة ٤١٤ هـ ويرى الزركلي أن تاريخ وفاته كان حوالي سنة ٣٨٠ هـ أما صاحب معجم المؤلفين فقد ذكر أن تاريخ الوفاة كان سنة ٣٧٥ هـ - وعلى الرغم من أن حاجي خليفة قد أشار إلى كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم في كتابه (كشف الظنون) إلا أنه أغفل ذكر تاريخ الوفاة . وليس فيما اطلعت عليه ما يرجح إحدى تلك الروايات غير أن هناك أبياتا جاءت في نهاية الكتاب للمصنف نفسه جاء في آخر بيتين منها :

فَدُونِكَ حِكْمَةٌ كَالدَّرِ حَسَنًا أبا حسن وزير ابن الرفيع
مقدسة تبص بصيص شذر من الياقوت ألف للقريـع^(٢)

-
- (١) الأعلام للزركلي ، ج ٦ ، ص ٢٠٣ ، معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة ، ج ٨ ، ص ٢٣٨ .
- (٢) أحسن التقاسيم - المقدسي ، ط ٢ ، سنة ١٩٠٦ م ، ليدن ، ص ٤٩٨ من أبيات في وداع الكتاب .

وإذا أحصينا القيمة العددية لحروف كلمة " قريع " لوجدناها تساوى ٣٨٠ وبما أنها مسبوقة بكلمة ألف فقد يكون معنى ذلك أن تأليف الكتاب قد انتهى سنة ٣٨٠ هـ إضافة إلى المعنى الظاهر من الشطر وهو أن هذا الكتاب تم تأليفه لأبي الحسن (القريع) وتعنى السيد الفحل الهمام .

كما أن المؤلف ذكر في ثنايا الكتاب أنه لم يظهره إلا بعد أن بلغ الأربعمين وأن ذلك كان سنة ٣٧٥ هـ في فارس . ومعنى هذا أن المؤلف سنة ٣٧٥ هـ كان لا يزال حيا وأن ظهور الكتاب ربما كان دون استكمال فصوله أما الأبيات فإنها تدل على الإنتهاء من تأليفه كاملا لأنها تقع في نهايته وتؤرخ له كما هي العادة لدى كثير من المؤلفين السابقين .

كما يستفاد من ذلك أن المقدسي رحمه الله عند سنة ٣٨٠ هـ كان لا يزال حيا أيضا وأنه قد توفى بعد هذا التاريخ .

وكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) هو من أفضل الكتب التي تم تأليفها في هذا الباب، حتى القرن الرابع، وذلك لأننا لم نطلع على كتاب قبله وصل إلى تلك الدرجة من الدقة والمهارة والاستقصاء .

وقد بدأه بمقدمات وفصول، بين فيها سبب تأليف الكتاب وأنه يريد أن يحيى به ذكره، ويرضى بمنفعته ربه، وأشار إلى من ألف قبله فسي هذا الفن والنقص الذي رآه في مؤلفاتهم .

وقد اقتصره على وصف أقاليم مملكة الإسلام، وقسمها إلى أربعة عشر إقليماء منها ستة أقاليم في بلاد العرب وثمانية في بلاد العجم الإسلامية . ويرى الأستاند متر أن كتب المقدسي وابن حوقل تعد قمة ما وصل

إليه العرب في وصف البلدان في القرن الرابع الهجري حيث يقول :

" ثم جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري ، فكانت هي الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان ، وكلاهما قد سافر حتى دوح العمالك وحمله تيار الأسفار واستهوته حياة الارتحال والسياسة على طريقة المسلمين " . (١)

وقبل أن يصف ما شاهده في تلك المدن والأقاليم مفصلاً أشار إليه باختصار شديد تحت عنوان (ذكر خصائص الأقاليم) جاء فيه أبرز الصفات التي اشتهرت بها تلك الأقاليم ، وعرفت بها . وما ذكره في ذلك :

" أطرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب وأحسن للذهن ، وسها تكون النفس أطيب والخاطر أدق . . . وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماً وأجلة وبردا المشرق ، وأكثرها صوفاً وقزاً ودخلاً على قدره الديلم . . . " (٢)

وهكذا قام المقدسي بسرد خلاصة لصفات الأقاليم على هذا النسق .

وعلى الرغم من أن المقدسي قد بدأ ذكر البلدان بجزيرة العرب وتحدث عن مكة المكرمة ، ومدينة الطائف ، ومدينة جدة ، والمدينة المنورة إلا أنه لم يخص هذه المدن بوصف فني كما سنرى في غيرها من المدن والأقاليم

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - الأستاذ آدم متز ،

ط ٣ القاهرة سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م ، ج ٢ ، ص ٠٤

(٢) أحسن التقاسيم ص ٣٢ - ٣٣ .

غير أنه وصفها وصفا جغرافيا بين فيه محتوياتها ومناخها وماجاورها من أودية وحصون ومياه وغير ذلك من التفاصيل التي لا تدخل ضمن ما نحن بصدده من عرض للوصف الفني في هذا الكتاب .

وأول نص فني يقابلنا عند المقدسي هو وصف مدينة زبيد

يقول عنها :

” قصبة تهامة . . . بلد جليل ، حسن البنيان ، يسمونه بفسداد اليمن ، لهم أدنى ظرف ، وه تجار وكبار ، وعلماء وأدباء ، مفيد لمن دخله ، مبارك على من سكنه ، آبارهم حلوة ، وحماماتهم نظيفة . . . أعمر من مكة وأرفق ، أكثر بنيانهم الآجر ، ومنازلهم فسيحة طيبة” (١)

وهذا النص كما نرى يدل على بداية وصف المدن عند المقدسي فهو لم يلتزم فيه أسلوبا واحدا بل استخدم أكثر من أسلوب ، وهو نص قصير إذا ما قورن بالنصوص التي جاء تلدى المقدسي في وصف المدن والأقاليم في ثنايا كتابه أحسن التقاسيم بعد هذا النص .

وكما يظهر من قراءته ، فقد بدأه بجملة اسمية ثم بمضاف ومضاف إليه ، وفي الجملة التي تليها شبهه بمدينة السلام بفسداد وأشار إلى ما في هذه المدينة من ظرف في جملة واحدة ثم أشار إلى أهله ومكانتهم التجارية وإلى وجود علماء وأدباء في هذه المدينة ، وعاد مرة ثانية للحديث عن البلد بوصفه بالفائدة والبركة على من دخله وسكنه . وانتقل إلى وصف الآبار والحمامات بجملة اسمية أيضا ، ثم استخدم اسم تفضيل حين جعل هذا البلد أعمر من مكة وأرفق . ثم أشار إلى بنيانهم وأن منازلهم فسيحة طيبة .

(١) أحسن التقاسيم ص ٨٤ .

ويبدو أن هذا النص لا يُشعر القارئ بالمتعة التي يفيشها مع كثير من النصوص التي يلتزم فيها الكاتب أسلوباً أو أسلوبين، ويضغفي عليه جواً من العناية البلاغية غير متكلف فيه .

ولعلنا نجد في النص الثاني الذي وصف فيه مدينة عدن نوعاً من الالتزام الأسلوبية ، وإن كان الكاتب لم يصل فيه إلى الحد الذي سنلاحظه في النصوص القادمة بإذن الله .

غير أننا سوف نرى مدى التدرج الذي سار عليه ناثرنا الكبير ذلك التدرج الذي ربما يعود إلى الفترة الكبيرة التي قضاها في تأليف الكتاب خلال تلك الرحلة الطويلة المضنية .

والنص الذي وصف به مدينة عدن هو :

"عدن : بلد جليل عامر ، أهل ، حصين ، خفيف ،
دهليز الصين ، وفرضة اليمن ،^(١) وخزانة المغرب ، ومعدن
التجارات ، كثير القصور ، مبارك على من دخله ، مشر
لمن سكنه ، مساجد حسان ، ومعايش واسعة ، وأخلاق
طاهرة ، ونعم ظاهرة" .^(٢)

نلاحظ أن الناثر في بداية النص قد جاء بعدد من الصفات

المجردة عن الجمل (بلد جليل ، عامر ، أهل ، حصين ، خفيف) .

ويأتي بعد ذلك بجمل إضافية سبق أن رأيناها وسوف نقابلها

عند كثير من الناثرين (دهليز الصين ، وفرضة اليمن ، وخزانة المغرب .)

(١) حناير اليمن ،

(٢) أحسن التقاسيم ص ٨٥ .

وأخيرا يصف هذا البلد بالبركة وبخاصة على من دخله وأنه سبب الثراء والغنى لمن سكنه ، ويصف مساجده بالحسن ، ومعايشه بالسعة ، ويختتم النص بذكر أخلاق أهله الطاهرة ، وما هم فيه من نعم ظاهرة . وعلى الرغم من عدم توحيد السجعة في جميع اجزاء النص ، إلا أن التقسيمات الموسيقية المتساوية القصيرة قد أعطته نوعا من الجمال ، كما أن الناثر لم يستقص في هذا النص ، جميع صفات المدينة نظرا لقصره الشديد ، إلا أنه قد أجمل التفاصيل في تلك الصفات المفردة التي بدأ بها النص .

فقد وصف مكانته بأنه جليل القدر ، ثم اكتفى بكلمة عامر عن ذكر المباني والمساجد وغيرها ، ما يدخل في نطاق البناء ، وأشار بكلمة أهل إلى كثرة عدد السكان ، وكثرة عدد دهم يستدعى اشتغالهم بكثير من الحرف لإيجاد مصادر لأرزاقهم ، ثم وصفه بالحصانة . وهذا واضح من احاطة البحر به من بعض الجهات ثم وجود جبال تحيط به من الجهات الأخرى . وينطبق ذلك على ما جاء به من صفات تظهر أنها مختصرة ، وعند التأمل في ماضيها نجدها تدل على معان كثيرة .

ويبدأ وصف الأقاليم بذكر إقليم العراق :

” هذا إقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء ، لطيف الماء ، عجيب الهواء ، ومختار الخلفاء ، أخرج أباحنيفة فقيهه الفقهاء ، وسفيان سيد القراء ، ومنه كان أبو عبيدة والفراء ، وأبو عمرو صاحب المقرء ، وحمزة والكسائي ، وكل فقيهه ومقرئ ، وأديب وسري ، وحكيم وداود ، وزاهد ونجيب ، وطريف وليبيب ، به مولد إبراهيم الخليل ، واليه رحل

كُلِّ صحابي جليل، أليس به البصرة التي قولت بالدنيا،
وبفداد المدوحة في الوري، والكوفة الجلييلة وسامراء،
ونهره من الجنة بلامراء، وتمور البصرة فلا تنسى، ومفاخره
كثيرة لا تحصى (١).

بيد ومن أول وهلة أن المقدسي بدأ يعبر عن سعة علمه،
وكثرة اطلاعه، وخبرته في شئون البلدان، فالنص بالإضافة إلى صياغته
الفنية، قد تمكن الكاتب من تضمينه أكبر قدر من السميزات التي تخص هذا
الإقليم، دون غيره من الأقاليم، فبعد أن أضفى عليه صفات عامة "إقليم
الظرفاء، ومنبع العلماء، لطيف الماء، نجيب الهواء..."، يعود فيفصل
ما أجمل، فيشير إلى أولئك الظرفاء والعلماء الذين أنجبهم هذا الإقليم
كدليل وبرهان على صحة ما ذهب إليه.

ومع بيان من هم أولئك الظرفاء والعلماء الذين يقصدهم، هو
يصفهم بأوصاف ترفع من مكانتهم، وتعلو من شأنهم، وتدلنا على الجانب
العلمي الذي تفوقوا فيه "أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء، وسفيان سيد
القراء، ثم يوءد أنه بالإضافة إلى الفقهاء والقراء فإن هناك الأديباء
الفضلاء، والحكماء والدهاة، والزهاد والنجباء، والظرفاء والأبياء.

ويعود إلى أهمية هذا الإقليم فيشير إلى مولد إبراهيم الخليل
- عليه السلام - فيه، وإلى رحلة الصحابة إليه، ثم يتساءل: "ذاكرا المدن الكبيرة
الشهورة التي تقع فيه، كالبصرة، وبفداد، والكوفة وسامراء، ويوءد أن نهره
من الجنة بلاشك، ويفخر بتمور البصرة، ثم يختم وصفه لهذا الإقليم أن مفاخره
كثيرة ولشهرتها ووضوحها لم ينسها أحد.

(١) أحسن التقاسيم ص ١١٣.

والنص يعد وصفا لأهل العراق أكثر مما هو للإقليم نفسه، فإذا كانت أكثر النصوص تبدأ بوصف الإقليم ثم تأتي إلى أهله في نهايتها، فإننا نجد هنا أن الإشارة بدأت تتجه نحو أهل الإقليم منذ البداية، "إقليم الظرفاء، ومنبع العلماء" وإذا استثنينا جمعتي "لطيف الماء، عجيب الهواء"، فإن النص قد اقتصر الجزء الأول منه وهو الأظهر على ذكر أهل ذلك الإقليم، وأشار في نهايته إلى المدن التي اشتهرت فيه والصفة التي اشتهرت بها كل مدينة من تلك المدن، ثم ذكر نهر هذا الإقليم، والمفاخر الكثيرة التي لا تحصى، وجعل ذلك جزءا صغيرا في نهاية النص.

وكانت أكثر تراكيب هذا النص إضافية "إقليم الظرفاء"، منبع العلماء .. الخ " وحتى عند ذكر العلماء فقد استخدم نفس التراكيب "فقيه الفقهاء، سيد القراء .. الخ"

ثم جاء بمجموعة من الأسماء المعطوفة على بعضها "وكل فقيه ومقرئ، وأديب وسرى، وحكيم وداء، وزاهد ونجيب، وطريف ولبيب". وهو هنا لم يكتف من الفقهاء بأبي حنيفة، ومن القراء بسفيان، بل يستطرد فيذكر أن هذا الإقليم قد خرج منه كل فقيه، وكل مقرئ، وكل أديب، وكل سرى، وكل حكيم وداهية، وزاهد ونجيب، وطريف ولبيب. وبهذا جعل منه منبعا لجميع اصحاب المواهب والعلوم.

ونلاحظ بعد هذا استخداما جديدا من حيث تركيب الجملة سيتضح أكثر في النص القادم عند وصف بغداد وهذا الاستخدام يبدأ الناثر فيه الجملة بجار ومجرور "منه كان أبو عبيدة .." و"به مولد إبراهيم الخليل" و"إليه رحل كل صحابي" ولا يلتزم حرفا واحدا من حروف

الجر بل يأتي مع كل جملة بحرف جديد ، ويخرج من النص بتشكيلة من
الإستعمالات غير ملة . ثم يسير في نفس الإستخدام مع تساؤل :
" أليس به البصرة التي قولت بالدنيا ، وبغداد الصدوحسة
في الورى . . . "

والواقع أن هذا النص قد بذل فيه المقدسي جهدا كبيرا حتى
أخرجه بهذا المستوى ، الذى حافظ فيه على الجرس الموسيقى للجمل ، فكما
نلاحظ أن الهمزة قد استعملها في نهاية فواصل الجزء الأول من النص ،
والذى شمل حوالى تسع جمل ، ثم الياء مع جملتين ، واستخدم الباء كذلك
في جملتين ، وأخيرا الألف المقصورة مع بقية جمل النص . كما نلاحظ تساوى
الجمل في كل قسم من هذه الأقسام مما يوكد قدرة الناثر الكبيرة على
الإحكام والدقة في إخراج هذه النصوص ، وبعد الإنتهاء من وصف
المراق كإقليم يصف بغداد كمدينة في هذا الإقليم :

" بغداد في مصر الإسلام ، وبها مدينة السلام ، ولهم
الخصائص والظرافة ، والقرائح واللطافة ، هوا رقيق ،
وعلم دقيق ، كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل
حاذق منها ، وكل ظرف لها ، وكل قلب إليها ، وكل
حرب عليها ، وكل ذب عنها ، هي أشهر من أن توصف
وأحسن من أن تتعت وأعلى من أن تمدح " (١)

بعد أن بين الكاتب موقع بغداد ، انتقل إلى وصف أهلها ثم عاد
إليها مرة أخرى وهو بهذا يسير في نفس الطريق الذى سار فيه عند وصف

(١) أحسن التقاسيم ص ١١٩

العراق من ذكر أهل المصرفي بداية النص . وعند عودته لوصف مدينة بغداد نفسها يستخدم أسلوباً جديداً في الوصف، يبدأ بأداة توكيد وهي في هذا النص " كل " ويضيف هذه الأداة الى صفة من صفات المدينة ويلحقها بشبه جملة " جار ومجرور " :

" كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها . . "

والمقدسي في هذا النص قد جاء " بشبه الجملة " أئجار والمجرور في كل جملة من وصفه لمدينة بغداد - في نهاية الجملة " كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل ظرف لها ، وكل قلب إليها ، وكل حرب عليها ، وكل ذب عنها " .

وهكذا عكس ما جاء في وصف العراق ، إذ جاء هناك بالجار والمجرور في بداية الجملة " منه كان أبو عبيدة ، به مولد إبراهيم ، وإليه رحل كل صاحبي " .

ومع تقديم الجار والمجرور وتأخيره فقد عمل على أن يخص كل جملة بحرف من حروف الجر بحيث لا يتكرر حرفان في النص الواحد ، ثم حاول في وصف بغداد أن يأتي بأكثر حروف الجر المستعملة في النحو العربي فقد استخدم مع الجملة الأولى الباء ثم مع بقية الجمل على الترتيب ، في ، من ، اللام ، إلى ، على ، عن .

وهذا يجعلنا نقدر الجهد الكبير الذي بذله المقدسي فسي سبيل إخراج نصوصه بهذا المستوى الرفيع .

ثم يصف إقليم الشام :

" إقليم الشام جليل الشان ، ديار النهمين ، ومركز الصالحين ، ومعدن البدلاء ، ومطلب الفضلاء ، به القبلة الأولى ، وموضع

الحشر والمسرى ، والأرض المقدسة ، والرباطات الفاضلة
والثغور الجليلة ، والجبال الشريفة ، ومهاجر إبراهيم
وقبره ، وديار أيوب وبيته ، ومحراب داود وابنه ،
وعجائب سليمان ومدنه ، وتربة إسحاق وأمه ، ومولد
المسيح ومهدده ، وقرية طالوت ونهره ، ومقتل جالوت وحصنه ،
وجب أرميا وحبسه ، ومسجد أوريا وبيته ، وقبة محمد صلى الله
عليه وسلم وابنه ، وصخرة موسى ، وريوة عيسى ، ومحراب
زكريا ، ومعرك يحيى ، ومشاهد الأنبياء ، وقرى أيوب ،
ومنازل يعقوب ، والمسجد الأقصى ، وجبل زيتا ، ومدينة
عكا ، ومشهد صديقا ، وقبر موسى ، ومضجع إبراهيم ومقبرته ،
ومدينة عسقلان ، وعين سلوان ، وموضع لقمان ، ووادي
كنعان ، ومدائن لوط ، وموضع الجنان ، ومساجد عمر
ووقف عثمان ، والباب الذي ذكره الرجلان ، والمجلس الذي
حضره الخصمان . والسور الذي بين العذاب والغفران ،
والمكان القريب ومشهد بيسان ، وباب حطة ذو القدر
والشان ، وباب الصور وموضع اليقين ، وقبر مريم وراحييل ،
ومجمع البحرين ومفرق الدارين ، وباب السكينة ، وقبة
السلسلة ، ومنزل الكعبة ، مع شاهد لا تحصي ، وفضاء
لا تخفى ، وفواكه ورخاء ، وأشجار وأمياء ، وآخرة ودنيا .
وبه يرق القلب ، وينبسط للعبادة الأعضاء ،
ثم به دمشق جنة الدنيا ، وصفر البصرة الصفرى ، والرملة
البيهيّة وخبزها الحواري ، وإيليا الفاضلة بلا لاوى ، وحمص
المعروفة بالرخص وطيب الهواء . وجبل بصرى وكرومه
فلاتنسى . . . (١)

بالإضافة إلى طول هذا النص، فإن المقدسي قد جمع فيه مشاهد الأنبياء والصالحين، من مساجد وقبور، وأماكن مقدسة، فألف منها قطعة فنية، تمكن من تقسيمها إلى أجزاء، وحد السجعة، والجمل في كل جزء منها، بحيث ظهرت بهذا المستوى من التنسيق والتلاؤم الذي ميزها عن غيرها، وجعلها جديرة بالاختيار.

كما أن الناثر قد صاغ هذا النص بأسلوب جعل فيه الجمل مكونة من مضاف ومضاف إليه، استطرد فيها بذكر عدد كبير من مشاهد الأنبياء والصالحين على نفس السوتيره .

والواقع أن هذا النص، يدلنا على ما يمتاز به المقدسي، من علم جم، ودراية كاملة بكثير من العلوم، فهو كما يتصرف بالألفاظ واستعمالاتها، هو أيضا يتفنن بتوزيع تلك المشاهد المقدسة، وأسماء الأنبياء والصالحين، بحيث يضع كل اسم من تلك الأسماء في المقطع الذي يتناسب معه من حيث السجعة، وهو يهتم بها كثيرا، حتى إنه يأتي في بعض الجمل بكلمات ليس لها قيمة كبيرة من حيث المعنى، ولكن مراعاة سجعها قد أجبرته على وضعها في ذلك المكان ليستقيم له ما أراد .

وكما أنه بدأ بوصف العراق كإقليم وثنى ببغداد كعاصمة له هو هنا يسير في نفس الاتجاه، فيعد أن ذكر الشام كإقليم يثني بدمشق كعاصمة له فيقول عنها :

” هوبك قد خرقت الأَنْهَارُ ، وأحدقت به الأشجار ،
وكرت به الشار ، . . . لا ترى أحسن من حماماتها ،
ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها . . . وهي
طيبة جدا ، غير أن في هوائها يبوسة ، وأهلها

غَاغَةَ (١) ، وشارها تفهه ، ولحومها عاسية ، ومنازلها
ضيقة ، . . . وأخبارها رديئة ، والمعاش بها ضيقة . . .
والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم . . . (٢)

من خلال هذا النص يستظهر لنا ميزة جديدة من ميزات
أسلوب المقدسي في وصف المدن والأقاليم ، تلك الميزة هي أن النص
الواحد ينقسم إلى قسمين : قسم منه يمدح فيه المدينة والآخر يذمها
فيه .

كما أننا نلاحظ في تراكيب هذا النص جملاً فعليةً بدأها الناثر
بفعل ماضٍ " خرقت الأَنْهار ، أهدقت به الأشجار ، وكثرت به الثمار " ،
تليها جمل اشتملت على أسماء تفضيل " أحسن من حماماتها ، أعجب من
فواراتها ، أجزم من أهلها " هذا كله في المدح ، أما الذم فإن تراكيب
جمله تختلف عما جاء في جمل المدح في هذا النص غير أنها تشبه أساليب
مدح سبق لنا عرضها في نصوص أخرى ، وهي مكونة من مبتدأ وخبر
" أهلها غاغة ، شارها تفهه ، لحومها عاسية . . . "

وهذا التنوع بين المدح والذم في النص الواحد سنجدّه كثيراً
في نصوص المقدسي ، التي سنتناولها بإذن الله ، وهو ما يبين لنا بوضوح ،
موضوعية هذا الناثر التي جعلته يُظهر الحسَن ولا يُخفي القبيح . ويبدو
من تصفح النص أن جمل القسم الأول الخاص بالمدح قد تساوت فسي

(١) غَاغَة : الغوغاء : الجراد بعد الدَّك ، وبه سمي الغوغاء

والغاغة من الناس ، وهم الكثير المختلطون . الصحاح ، مادة :
غوى .

(٢) أحسن التقاسيم ص ١٥٧ .

تراكيبيها ، واتحدت سجعتها في كل جزء من أجزائها ، إذ أنه في بداية النص قد اختار الراء لتكون نهاية الفاصلة لتلك الجمل ، ثم الهاء والألف في الجمل التي تليها ، وأخيرا الهاء في الجمل الخاصة بالذم .

ثم يصف الرملة في فلسطين فيقول :

” قبة فلسطين ، بهية حسنة البناء ، خفيفة الماء ،
(١)
مرية واسعة الفواكه ، جامعة الأضداد ، بين رساتيق
جليلة ، ومدن سرية ، ومشاهد فاضلة ، وقرى نفيسة ،
والتجارة بها مفيدة ، والمعاش حسنة ، ليس في الإسلام
أبهى من جامعها ، ولا أحسن ولا أطيب من حواريتها ،
ولا أبرك من كورتها ، ولا ألد من فواكهها . موضوعة بين
رساتيق زكية ، ومدن محيطية ، ورباطات فاضلة ، ذات
فنادق رشيقة ، وحمامات أنيقة ، وأطعمة نظيفة ، وإدامات
كثيرة ، ومنازل فسيحة ، ومساجد حسنة ، وشوارع واسعة ،
وأموار جامعة ، قد خُطت في السهل ، وقرية من الجبل
والبحر ، وجمعت التين والنخل ، وأنبتت الزروع على
البعل (٢) ، وحوث الخيرات والفضل ، غير أنها في
الشتاء جزيرة من الوحل (٤) ، وفي الصيف ذريرة من الرمل ،
لا ماء يجري ولا خضر ، ولا طين جيد ولا ثلج ، كثيرة
البراغيث ، عميقة الآبار مالحة ، وماء المطر في جباب (٥)
مقللة ، فالنقى عطشان ، والغريب حيران (٦) .

-
- (١) مرية : المرى على فعيل ، الناقة الكثيرة اللبن . الصحاح ، مادة مرا .
(٢) حواريتها : الحوارى بالضم وتشديد الواو ، والراء مفتوحة : ما حور
من الطعام أى بيض ، وهذا دقيق حوارى . الصحاح ، مادة : حور .
(٣) البعل : ما شرب بصروقه من غير سقي ولا سماء . الصحاح مادة : بعل .
(٤) الوحل : الوحل بالتحريك : الطين الرقيق ، والوحد بالتسكين
لغة رديئة . الصحاح ، مادة : وحل .
(٥) جباب : الجيب : البئر التي لم تطو ، وجمعها جباب ، وجبيه ،
الصحاح ، مادة : جيب .
(٦) أحسن التقاسيم ص ١٦٤ .

تمتاز كثير من نصوص المقدسي بالطول والإستقصاء في وصف المدن والأقاليم، وربما يعود ذلك إلى خبرته الطويلة التي اكتسبها من رحلاته الكثيرة إلى جميع أجزاء البلاد الإسلامية في عصره .

ونحن الآن أمام نص من ذلك النوع الذي أشرنا إليه، فعلى الرغم من التزام المقدسي فيه التقسيم الموسيقي للجمل واستخدامه أكثر من أسلوب من حيث تراكيبها، فقد بدأه بجمل إضافية مضاف ومضاف إليه، " حسنة البناء، خفيفة الماء، واسعة الفواكه، جامعة الأصداد " ثم ينتقل إلى لون آخر من التراكيب وفيه أضاف الطرف إلى أحد محتويات المدينة ثم الحقة ^{لصفتها} وعطف ^{عليها} جميع الجمل التي أتت بعد ذلك مكونة من موصوف وصفة: " بين رساتيق جليلة، ومدن سرية، وشاهد فاضلة . . . " . ويشير بعد ذلك كله إلى موقعها من الجبل والبحر وما احتوت عليه من الفواكه والمزروعات التي تعتمد على الأمطار دون حاجة إلى مياه أخرى من أصحابها . وعلى الرغم من هذا الإهتمام بالشكل العام للنص، إلا أنه أيضا استقصى فيه أكثر الصفات التي تمتاز بها المدينة التي عرض لها .

والواقع أن هذه الصفة قد لازمت المقدسي في كثير من النصوص التي وصف بها المدن والأقاليم على السواء .

أما الظاهرة الثانية، فهي تقسيم كثير من النصوص عند المقدسي إلى قسمين، قسم يخصصه لمدح المدينة أو الإقليم، والآخر لذمه كما سبق أن أشرنا .

وفي هذا النص نلاحظ أنه قد ألحق المدح بدم على نفس السجعة من الجمل والفواصل، فهو ينهي المدح بجملتي: " وأنبئت الزروع على البعل، وحوث الخيرات والفضل " ويبدأ الذم بجملتي:

"غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل ، وفي الصيف ذريرة من الرمل " .
وإن كان قد نوع السجعة في النص ^{السري} في ذلك القسم الخاص بالمدح ، والآخِر
الخاص بالذم .

والمقدسي مع ذلك كله لا ينسى أن يضمن النص جملاً تشتمل على
أسماء تفضيل ، وهو الأسلوب الذي بدأه الجاحظ واستخدمه بعض الناثرين ،
وقد كان المقدسي أكثر الناثرين تلويحاً لآساليب النثر عند وصف المدن
والأقاليم ، وقد يرجع ذلك إلى كثرة النصوص التي امتلأ بها كتابه أحسن
التقسيم ، ثم القدرة على التصرف في هذا الفن وتنويعه .

ويصف بيت المقدس مسقط رأسه ، وسوف نرى إلى أي مدى
سيتعامل معها إذا كان قد منح غيرها تلك القطع النثرية الجميلة من
الوصف :

" ليس في مدائن الكور أكبر منها ، وقصات كثيرة أصغر
منها . . . لا شديدة البرد وليس بها حر ، وقل ما يقع
بها ثلج . . . بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ، ولا أتقن
من بنائها ، ولا أعف من أهلها ، ولا أطيب من العيش
بها ، ولا أنظف من أسواقها ، ولا أكبر من مسجدها ، ولا
أكثر من مشاهدها ، عنبها خطير ، . . . وفيها كل
حازق وطبيب ، وإليها قلب كل لبيب ، ولا تخلو كل
يوم من غريب " (١)

تعودنا من كاتبنا الكبير طول النصوص عند الوصف الفني للمدن
التي عرضنا لها ، وكان غالب الظن أن يخص مدينته ومسقط رأسه بأطول نص

وأعذب عبارة ، وأجمل وصف، غير أننا نلمس في النص الذي بين أيدينا عكس ذلك فنحن أمام نص قصير حصر كاتبه نفسه في حجم المدينة من حيث الكبر والصغر وطقسها حرارة وبرودة ، وبنائها وأخيرا بعض صفات أسواقها ومشاهدها ولم يتعامل معها كما هو المعروف عنه فيستقصي صفاتها ، ويلون أساليب وصفها ويستخدم التقسيمات الموسيقية للجمل التي عهدناها في نصوصه السابقة، على الرغم من أنه قد جمع بعض المحاسن من استخدام أسماء التفضيل وتوحيد السجعة في بعض الأجزاء إلا أننا لا نلمس أثر المقدسي الذي تعرفنا عليه من خلال ما سبق له من نصوص وبخاصة عندما يقدم لنا نصا عن مدينته مع عظم شأنها ، وعلو مكانتها ، وقد سيتها لدى أصحاب الديانات ، ولست أدري هل اكتفى بذلك الإستقصاء الذي أضفاه على الشام على أن بيت المقدس جزء منه ، أم أنه اكتفى بما وصفها به عز وجل ﴿ سيحانهُ الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ (١) وكفى بها شرفا أن يبارك الله حولها ، ويؤء كد ذلك في كتابه الذي سيظل يحمل لها فيه تلك الصفة حتى ييرث الأرض ومن عليها . أم جاء تقصيره في حقها من باب حياء الإنسان من وصف القريب تقديرا وإجلالا وإكبارا وابتعادا عن اتهامه بالمجاملنة والتعصب ، كل ذلك ممكن .

(١) سورة الاسراء ، آية ١ .

ويصف بعد ذلك إقليم مصر :

" هذا هو الإقليم الذي افتخر به فرعون على السورى ،
وقام على يد يوسف بأهل الدنيا ، فيه آثار الأنبياء ، والتيه
وطور سيناء ، ومشاهد يوسف ، وعجائب موسى ، واليه هاجرت
مريم بعميسى ، وقد كرر الله في القرآن ذكره ، وأظهر للخلق
فضله ، أحد جناحي الدنيا ، ومفاخره فلا تحصى ، مصره
قبة الإسلام ، ونهره أجل الأنهار ، وبخيراته تُعمر الحجاز ،
وأهله يبهج موسم الحجاج ، وبره يعم الشرق والغرب ،
وقد وضعه الله بين البحرين ، وأعلى ذكره في الخافقين ،
حسبك أن الشام على جلالها رستاقه ، والحجاز مع أهلها
عياله ، وقيل إنه هو الربوة ، ونهره يجرى عسلا في الجنة ،
قد عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ، ونسخ بغداد إلى يوم
الدين ، وصار مصره ، أكبر مفاخر المسلمين . " (١)

ويظل المقدسي في كل نص من النصوص التي يمدح بها المدن
والأقاليم يوءد طول بابه في العلم والمعرفة ، فهو يستعيد في النص
المواقف التاريخية ويذكر المشاهد الدينية ويستعرض المكانة الموقرة
التي وصل إليها هذا الإقليم عبر مراحل التاريخ .

فهو الذي دفع فرعون لادعاء الربوبية على الخلق ، وهو الذي غطى
بخيراته المناطق المسكونة حينما كان يوسف أميناً لخزائنه ، وهذا الإقليم
يحوى إلى ذلك آثار الأنبياء ، وفيه أرض التيه وجبل الطور .

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٣ .

ثم يوء كد مكانته بذكر الله له في القرآن الكريم واطهار فضله للخلق،
وبعد ذلك يفصل ما أجمله من صفاته فيذكر عاصمته ونهره وخيراته، وأهله
وموقعه بين البحرين، مشيراً في هذا إلى الآية الكريمة * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ * (١)

وأخيراً يشير إلى أهميته بالنسبة للأقاليم المجاورة له وفضله
عليها .

وقد حاول المقدسي تقسيم النص إلى جمل متساوية وحد السجعة
في أجزاء منها، وأهمل الأجزاء الأخرى، ومع ذلك فقد ظل النص يتمتع
بقيمة فنية بسبب تلك التقسيمات الموسيقية على الرغم من عدم التزام سجعة
واحدة، مما جعله يجمع بين الإزدواج والسجع والنص في مجمله عرض جميل
للوقائع التاريخية المتصلة بهذا الإقليم، نسقها وأخرجها بهذه الطريقة
الفنية فأحسن في ذلك أيما إحسان . وكعادته بعد أن يصف الإقليم يقوم
بوصف المدن الواقعة فيه، وبخاصة عاصمته، نقابل هنا نصاً آخر يصف فيه
الفسطاط :

" الفسطاط هو مصر في كل قول ، لأنه قد جمعت
الدواوين ، وحوى أمير المؤمنين ، وفصل بين المغرب
وديار العرب ، واتسعت بقعته ، وكثر ناسه ، وتنضرا إقليمه ،
واشتهر اسمه ، وجل قدره ، فهو مصر مصر ، وناسخ بفداد
ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام ،
خزانة المغرب ، ومطرح الشرق ، وعامر الموسم ، ليس في
الأثمار أهل منه ، كثير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر
والخصائص ، حسن الأسواق والمعاش ، إلى حماماته

(١) المنتهى ، ولقياسيره لباقة وسهاء ، ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعه ، ولا أحسن تجملا من أهله ، ولا أكثر مراكب من ساحله ، أهل من نيسابور (٢) ، وأجل من البصرة وأكبر من دمشق ، به أطعمة لطيفة ، وإدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء ، صحيح الهواء ، معدن العلماء ، طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية ، ومعروف كثير وصدقة ، نعمتهم بالقرآن حسنة ، ورغبتهم في الخير بيئة ، وحسن عبادتهم في الآفاق معروفة ، قد استراحوا من أذى الأمطار ، وأمنوا من غاغة الأشرار ، ينتقدون الخطيب والإمام ، ولا يقدمون إلا طيبا وإن بدلوا الأموال ، قاضيهم أبدا خطير ، والمحتسب كالأثير ، ولا ينفكون أبدا من نظر السلطان والوزير . لا ترى أحلى من مائه ، ولا أوطأ من أهله ، ولا أحسن من بزه ، ولا أبرك من نهره ، إلا أنه ضيق المنازل ، كثير البراغيث ، عفن كرب البيوت ، قليل الفواكه ، مياه كدرة ، وآبار وضرة (٣) ، ودور قدرة ، وبق منتن ، وجرب مزمن ، ولحوم عزيزة ، وكلاب كثيرة ، ويمين فظيمة ، ورسوم وحشة ، أبدأ على خوف من القحط ، وانقطاع النهر ، وإشراف على الجلاء ، وتربص بالبلاء . . . (٤)

-
- (١) القياسير : الأهل العظام .
(٢) نيسابور : هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة . . . من الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخا ومنها الى سرخس اربعون فرسخا . معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٣١ .
(٣) وضرة : الوضر : الدرن والدم . الصحاح . مادة وضر .
(٤) أحسن التقاسيم ص ١٩٧ - ٢٠٠ .

يبعد وواضحا وجليا ما كانت عليه مدينة الفسطاط " القاهرة " في القرن الرابع الهجرى وخاصة في الفترة التي كانت فيها عاصمة للخلافة الإسلامية بعد مدينة السلام، فقد توج الموء لف وصفه لها في هذه الفترة بوجود أمير الموء منين فيها، وينتقل إلى بقية الصفات في هذه الفترة من اتساع البقعة ، وكثرة الناس، وجمال الإقليم، واشتهاره، وجلال قدره وأنه حل محل بغداد، وصار أجل من مدينة السلام، ثم يوء كد مكانته بالنسبة للمشرق والمغرب، وكيف يكثر أهله في موسم الحج، وأنه كثير السكان، عجيب الخصائص، حسن الأسواق، ويشير إلى مجالس جامع الأزهر فيه، وإلى اهتمام أهله بحسن المظهر، وكثرة مراكبهم البحرية، ثم يقارن بينه وبين بعض المدن، فهو أكثر سكانا من نيسابور، وأعظم من البصرة، وأكبر من دمشق، ويصف أطمعته، وإداماته، وفواكهه، وخفة مائه، وصحة هوائه، وأنه معدن العلماء.

وأخيرا يصف أهله بالسلامة، والعافية، والمعروف والصدقه، وحسن أصواتهم، وحبهم للخير والعبادة، وإلى إكرام الله لهم بالنيل، بحيث لا يحتاجون إلى الأمطار التي تسبب لهم الأذى أحيانا، وأمنهم من الأشرار، وتقديمهم للطيب من أرزاقهم صدقة لله.

وعلى الرغم من استقصاء الصفات التي كانت عليها هذه المدينة فإن المقدسي قد تمكن من صياغة النص صياغة فنية، فجاءت جملة قصيرة متساوية، ووجد سجعها في كثير من الأحيان، واستخدم عدة أساليب في تركيب الجملة، في كثير من نصوصه، فبدأ بجملة فعلية وتراكيب إضافية ثم جملة اسمية، وكانت جميع هذه الجمل قصيرة، وتقسيماتها الموسيقية واضحة.

أما القسم الثاني من النص، وهو ما جاء على طريقة الذم، فقد سار

بنفس طريقة القسم الأول من حيث التراكيب ، غير أن مضمونه كان يعود إلى كثرة سكان هذه المدينة وازدحامهم فيها .

فضيق المنازل ، وكثرة البراغيث ، وقلة الفواكه ، واتساح الآبار وعدم تمكنهم من تنظيف البيوت ، وقلة اللحوم وغيرها من الصفات التي أتى بها في زعماءها كلها تعود إلى ازدحامها بالسكان كما أشار قبل ذلك وعنهم نتجت مثل تلك الصفات .

والحقيقة أن المقدسي ، على الرغم من إعجابه الشديد بمدينة الفسطاط كما لسننا من مدحه لها ، فإن ذلك لم يكن عائقا له عن تأكيد بعض المآخذ التي تسببت عنها كثرة سكان تلك المدينة ووضح بذلك طريقته العلمية التي لا تؤثر فيها الماطفة في أي حال .

وبعد ذلك يصف إقليم المغرب بما في ذلك بلاد الأندلس

وجزيرة صقلية :

” هذا إقليم بهي كبير سرى ، كثير المدن والقرى ، عجيب الخصاص والرخاء ، به ثغور جليلة ، وحصون كثيرة ، ورياض نزهة ، وبه جزائر عدة ، مثل الأندلس الفاضلة العجيبة ، وتاهرت الطيبة النزيهة ، وطنجة البلدة البعيدة ، وسجلماسة المختارة الفريدة ، واصقلية الجزيرة المفيدة ، أهلها في جهاب دائم ، ثم الغنى فيه سالم ، به كالبصرة مدن عدة ، ولهم أيضا في الخير رغبة ، وللسلطان عدل ونظر وحسبة ، متصل بالبحر خير جار ، وخير قوم لكل سائر ومار ، قد غاب في الزيتون مدنه ، وبالتين والكرامات أرضه ، يجرى خلالها الأنهار ، ويملا غيطا منها الأشجار : (١)

يعود بنا المقدسي إلى الأسلوب الذي يضيف فيه على الموصوف صفات مفردة لا تتصل بجمل، ولكنها تأتي مجردة متوالية "إقليم بهي ، كبير ، سرى ، ويصله بالأسلوب الإضافي الذي جاء في نصوص المقدسي كثيرا "كثير المدن والقرى ، عجيب الخصائص والرخاء " ويلحقها بالجمل الإسمية " شغور جليلة ، وحصون كثيرة ، ورياض نزهة . . ." وكل هذه الجمل قد جاءت قصيرة متساوية وحد سجعتها عند كل أسلوب على حده .

بعد ذلك لفت نظر القارىء إلى مكونات هذا الإقليم من المدن والجزائر ، مثل الأندلس وتاهرت وطنجة وغيرها من المدن التي وصف كل واحدة منها بصفة خاصة بها . وقرب نهاية النص ، وصف أهل هذا الإقليم بالجهاد المستمر لموقعهم في محاذاة الكفار ، ورغبتهم في الخير ، وصالح ولاية أمورهم ، وقرب بلادهم من البحر ، وكثرة أشجار التين والزيتون والمعنب التي تجرى خلالها الأنهار ، وتحيط بها الأشجار .

والواقع أن جو المتعة والجمال الذي يشعربه القارىء عند هذا النص قد نتج عن تلك التقسيمات الموسيقية الجميلة وحسن اختيار النثر للألفاظ وقدرته على الصياغة الفنية .

وبعد أن وصف الإقليم بصفة عامة يأتي فيصف مدينة تاهرت التي هي جزء منه :

" هي بلخ المغرب ، قد أحرق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، وغابت في البساتين ، ونبتت حولها الأعين ، وجل بها الإقليم ، وانتعش فيها الغريب ، واستطابها اللبيب ، يفضلونها على دمشق وأخطأوا ، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا ، هو بلد كبير كثير الخير ، رحب

رفق، طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل،
قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف" (١)

وكما هي طريقة المقدسي في تنويع الأساليب وتلوين الوصف وعدم التزام أسلوب معين في النص الواحد أو في النصوص الكثيرة. نجده في هذا النص قد جاء بالجملة الفعلية في أكثره "أحدق بها الأنهار، التفت بها الأشجار، غابت في البساتين...". وأتت هذه الجملة متساوية على الرغم من أنه لم يلتزم سجمة واحدة في جميعها ولكنه اكتفى بالتقسيم الموسيقي لها، وإن كان قد وحدها في كل جملتين إلا أنه لم يوحدتها في جميع النص.

وانتقل بعد ذلك إلى الصفات التي لا ترتبط بجملة معينة "بلد كبير كثير الخيرات، رحب، رفق، طيب، رشيق الأسواق" وأخيرا أنهى النص بالجملة الإضافية "غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف".

وعلى الرغم من أنه لم يفرد جزءا خاصا لأهل المدينة كعادة الناشرين في هذا اللون فإنه قد أشار إليهم إشارة عابرة "جيد أهله" وربما يعود ذلك لقصر النص نفسه.

أما الذم الذي ينهي به بعض النصوص فليس له أثر في هذا النص، ويبدو أن موقع المدينة واختراق الأنهار لها، والتفافها بالأشجار وتغطية البساتين لها، قد بهره ذلك كله فلم يذكر ما يعيبها به حتى لا يقلل من المكانة التي يبتد بها، وهي على درجة من الحسن والجمال.

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٢٨.

ومما يؤكّد ذلك أنه قد أتى في نهاية النص بتلك الصفات المفردة التي أغنت عن كثير من الوصف وتدل على مكانة هذه المدينة عند ناشرنا الكبير .

إقليم المشرق :

" هو أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلةً وعلماءً ، ومعدن الخير ومستقر العلم ، وركن الإسلام المحكم ، وحصنه الأعظم ، ملكة أجل الملوك ، وجنده خير الجنود ، قوم أولو بأس شديد ورأي شديد ، واسم كبير ، ومال مديد ، وخيل ورجل ، وفتح ونصر ، وقوم كما كتبت إلى عمر لبأسهم الحديد ، وأكلهم القديد ، وشرهم الجليد " ، ترى به رساتيق جليّة ، وقرى نفيسة ، وأشجاراً ملتفة ، وأنهاراً جارية ، ونعماً ظاهرة ، ونواحي واسعة ، وديناً مستقيماً ، وعدلاً مقيماً ، في دولسة أبداً منصوره مؤيدة ، ومملكة جعلها الله عليهم مؤيدة ، فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك ، ويملك في غيره من كان فيه ملوك ، هو سد الترك ، وترس الفز ، وهول الروم ، ومفخر المسلمين ، ومعدن الراسخين ، ومنعش الحرمين ، وصاحب الجانبين " (١) .

بهذا يصف المقدسي إقليم المشرق فيبدأ النص باسمي تفضيل يتبعهما بتراكيب إضافية شأنه في ذلك شأن ما سبق من النصوص ، التي رأينا المقدسي يلون أساليبها ، ولا يلتزم أسلوباً واحداً ، ومع ذلك جاء

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٢٦٠ .

بعدد من الجمل التي عطف بعضها على بعض، وختم النص بتراكيب إضافية كما بدأه، وقد سبق لنا التعرف على كثرة استخدام المقدسي لهذا الأسلوب في وصفه للمدن والأقاليم وهو الأسلوب الإضافي .

والمقدسي رحمه الله قد قدم وأخر في هذا النص فتارة يصف الإقليم نفسه، مرة يصف ملوكه وجنده، وطورا يعود فيكرر وصفا ما سبق له أن وصفه، غير أنه مع ذلك كله يلتزم الموازنة بين الجمل، وفي كثير منها يوحد السجعة، وقد نتج عن هذا التقسيم الموسيقي، والموازنة الجميلة، والمحافظة على السجعة التي منحها لكل قسم من أقسام النص، نتج عن ذلك كله جمال فني مقبول .

وإذا كان كاتبنا الكبير قد عودنا في عدد من النصوص أن يأتي بالذم عقب الوصف مباشرة، فإنه في كثير من المدن قد اكتفى بالمدح دون الذم، أما الأقاليم فتكاد تخلو تماما منه ما عدا ما جاء في نهاية وصف إقليم الرحاب كما سنرى .

سَمَرَقَنْد :

" بلد سري جليل عتيق ، ومصر بهي رشيق ، رخسى
كثير الرفيق ، وماء غزير بنهر عميق ، بناء قوى سني وثيق
ودرس كثير لاهل الفريق ، وعيش هنو إليها الطريق ،
وحمل الصاع من كل فج عميق ، علوم كثيرة وصدور نفيق ،
وخيل ورجل ومال ونيق .

ذو رساتيق جلييلة ، ومدن نفيسة ، وأشجار وأنهار ، وتنا^١ (١)
وتجار ، في الصيف جنة ، أهل جماعة وسفة ، ومعروف وصدقة
وحزم وهمة ، غير أن في أهلها وهوائها بردا ، جفاة
مع الفرباء ، بلية في الشتاء ، يشغبون على الأُمراء ، وفيهم
نفخ وعجب ومراء^٢ . (٢)

وفي هذا النص يستمر الناثر في تكرار الصفات المفردة ، والتي يرتبط
عدد منها بجملة واحدة : " بلد سري جليل عتيق " وقد سبقت الإشارة إلى
مثل هذا اللون . أما الظاهرة الثانية التي تتضح في هذا النص فهي تمسك
الناثر بالسجعة ومحافظته عليها في القسم الأول من النص وعلى الرغم
من تساوى الجمل إلى حد ما بالإضافة إلى السجعة فإنه قد أهمل جانبا
آخر وهو الإهتمام بالمعاني ، واختيار الألفاظ المناسبة التي تتناسب مع نص
فني غير أن إهتمامه الكبير بالسجعة قد أفقده الإهتمام ببقية الجوانب ،
فهو في سبيل تكوين جمل ذات نغمة واحدة تتحد في سجعتها ، يأتي
بألفاظ قد لا تتناسب مع الألفاظ الأخرى في نفس الجملة " رخی كثير
الرفيق " فكلمة " رخی " لا تتلاءم تمام التلاؤم مع " كثير الرفيق " وكذلك
جملة " وعيش هنيء إليها الطريق " لا تتفق أجزاءها من حيث المعنى ،
وأخيرا جملة " وحمل الساع من كل فج عميق " ليس بينها وبين جاراتها من
الجمل أي تناسق من حيث المعنى ، والعلاقة الوحيدة هي السجعة فقط
فكما تنتهي تلك بحرف قاف كذلك تنتهي الأخرى ، فاهتم هنا بتساوى بعض
الجمل ، وتوحيد سجعتها دون غيرها من جمال ألفاظ ولطافة معنى .

(١) تنا^١ : تنا^١ بالبلد تنو^١ : قطنته ، والثاني^١ من ذلك . وهم

تُنا^١ البلد . الإسم التنا^١ ، الصحاح مادة تَنَأ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٧٨ .

أما القسم الثاني من النص فقد جعل منه جزءاً لمدح بعض محتويات سمرقند ، والجزء الثاني ذم فيه أهلها ، وهواءها ، وفي نهاية الذم استخدم نفس الأسلوب الذي جاء فيه بالصفات مجردة لا ارتباطاً لها بالجمال ، وفيهم نفخ وعجب ومراء " والفرق بينهما استخدام حرف العطف وهو الواو في الذم مع أنه لم يستخدم هذا الحرف عند المدح ، والواقع أن الجزء الأول من المدح قد مال به إلى النظم لكنه جاء ظاهر التكلف ، ضعيف الصياغة والتركيب ، بسبب اهتمام الناشر بالسجعة أكثر من المعنى وهذا ما أفقده جماله الفني .

وينقل عن كتاب قرأه في خزانة عضد الدولة وصفاً لخراسان

جاء فيه :

" وقرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة : خراسان في غذاء الهواء وطيب الماء ، وصحة التربة ، وعذوبة الثمرة وإحكام الصنعة ، وتمام الخلقة ، وطول القامة ، وحسن الوجوه ، وفراة المراكب ، وجودة السلاح والتجارة ، والملم والغفة ، والفقه والدراية ، ترس في وجوه الترك ، أشد العدو بأساً ، وأغلظهم رقاباً ، وأصبرهم على البؤس أنفسا ، وأقلهم تنعماً وخفضاً ، وأهل خراسان أشد الناس تفقهاً وبالحق تسكاً " (١)

إن أول ما يلحظه القارئ لهذا النص هو طول نفس هذا الناشر وسعة صدره وذلك من خلال الجملة الإسمية التي بدأها بكلمة : " خراسان "

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٩٤ .

والتي تمثل المبتدأ في الجملة ثم استمراره في عطف التراكيب الإضافية على بعضها ، ولم يأت بالخبر إلا بعد أكثر من خمس وعشرين كلمة ، والمعروف أن أصحاب الرحلات الجغرافية كانوا يصفون البلدان من خلال مشاهداتهم الواقعية ، وملحوظاتهم الذاتية ، وأصحاب كتب التاريخ كما مر بنا هم الذين ينقلون عن غيرهم نصوصا في وصف البلدان التي يتعرضون لها أثناء كتابة تاريخها أو الترجمة لمشاهيرها . غير أننا في هذا النص نرى أن المقدسي قد استن سنة المؤرخين واقتفى أثرهم فاخترنا نصا كاملا وجده في خزانة عضد الدولة يصف فيه صاحبه خراسان .

ويظهر أن الأسلوب الذي كُتِبَ به هذا النص قد لقي قبولا لدى المقدسي ما جعله يقوم باختياره ، فالنص كما نراه مكون من تراكيب قصيرة (مضاف ومضاف إليه) اتحدت سجعتها ، وتساوت أطوالها فمثلت بذلك قطعة موسيقية جميلة نالت إعجاب المقدسي فاخترها ليضمها إلى جوار نصوصه الفنية الشبيهة بهذا النص في بعض الأحيان .

ومع أن الوصف من بدايته قد جمع بين البلد وسكانه من حيث وصفها معا فإن الناثر قد عاد في آخره ليصف أهل البلد في المكان الذي اعتاد أن يصفهم فيه الناثرون الآخرون ، وهو نهاية النص فأثنى على شدة تفقهمهم وتمسكهم بالحق فكان اختيار المقدسي لهذا الوصف اختيارا موفقا .

ويختار المقدسي نصا آخر في وصف بلخ يُنسب إلى أبي القاسم

العكي . فيقول :

" نبدأ فنصفها بما وصفها به أبو القاسم العكي لأنها
بلده قال : بلخ في الأخلاق الجميلة والشجاعة ، وشدة
الخلق والعقل وجودة الرأي ، ونبل الهمة ، وحسن المعاشرة
والحرص على قضاء الحقوق ، والتبازل عند الحاجة وحسن
وضع الكورة وتقديرها ، وتقارب أحوال أهلها ، ورخص
الأسعار بها ، وكثرة الخضر ، واختراق الأنهار المحفوفة
بالشجر ، في المحال والمنازل ، وقرب الجبال والأودية
ومرافقها ، نظير دمشق الشام . وفضل بغداد راجع
إلى خراسان ، لأنها لهم بنيت ، ثم انظر إلى بهاء بلسخ
وحسن موقعها وسعة طرقها ، وبهجة شوارعها ، وكثرة
أنهارها ، والتفاف شجرها ، وصفاء مائها ، وإشراق قصورها
وسور مدینتها ، ومسجد جامعها وإحكام صنعته ، وجلالة
موضعها ، ليس بأقاليم العجم مثلها حسنا ويسارا . " (١)

ومن أول نظرة إلى النص يتضح الشبه الكبير بينه وبين النص السابق
الذي اختاره المقدسي في وصف خراسان . وقد بدأه بجملة اسمية طويلة
جدا كالجملة التي رأيناها في وصف خراسان .

ويبدو أن هذا الشبه هو الذي دفع المقدسي لاختياره ، لأن
هذا الأسلوب يتفق مع أساليبه في وصف المدن والأقاليم ، وليس يعيىدا
أن يكون الوصفان لأبي القاسم العكي نفسه ، للشبه الكبير بينهما .

فالجمل الإضافية تكاد تسيطر على النص بكامله ، وتقسيما الجميل
واضحة الشبه ، غير أن النص الأول كان من حيث السجعة أكثر التزاما بينما

(١) أحسن التقاسيم ص ٣٠١ .

النص الذى بين أيدينا، اتحدت في الجزء الأخير منه ولم تتفق تماما في القسم الأول، غير أن الجمل كانت متساوية.

أما وصف أهل هذه المدينة فبدلاً من أن يأتي في نهاية النص كما هي العادة في بعض النصوص، فقد جاء هنا منذ البداية " بلخ في الأخلاق الجميلة، والشجاعة، وشدة الخلق والعقل... الخ " جميع هذه الصفات في الحقيقة هي صفات أهل المدينة وليست صفات المدينة نفسها.

والواقع أن النصين اللذين اختارهما المقدسي في وصف خراسان وبلخ، لم يتضمنا زماً في نهايتهما كما رأينا في النصوص، إلا أن دوره هنا كان مقصوراً على الاختيار دون غيره.

ويصود المقدسي ليصف المدن كما شاهدتها دون الرجوع إلى غيره

فيصف " مرو " :

" قصبه نفيسة طيبة طريفة بهيمة، رحة خفيفة، أطمعة لذيذة بها نظيفة، منازل مليحة أنيقة من طرفها للجانبين هي صنيعة، مشائخ أجلة عقولهم شريفة، الجامعان باناط لا خشب (سقيفة)، وكل ليلة بمجلس عصاب عفيفة، مذكر فقيه يقفوا بحنيفة، مدارس لكل دارس وظيفية، أسواقهم حسنة ألا ترى صفوفها بالجامع الأعلى من كل جانب لفيضة، وم دار المذكورة الرفيعة، بها إيوان صاحب الدولة الشريفة، ولا تسأل عن حمامات مرو ولا الهريسة، والخبز والعقل والبأس فإنها معروفة، وسل عن مياهم وكسبهم

والسروات فإنها ضعيفة ، وعندها هم وهرجهم فعندي
منها صحيفة ، أنباء صدق أنفُسها معربة ظريفة ، ولسنت
من يأكل بعله رخيصة ، لكنني طالب جنة وراغب في
دعوة كتيفة ، فرويلة سرية لولم تكن من أهلها
خفيفة ، قد خربت إلا منازل طفيفة ، ور بعض ثلثه
مهدم كأنها سليفة ، منازل قد شعنت وأسقطوا سقوفه . . .
وهي أشبه البلدان برملة فلسطين . (١)

مرت بنا صور من وصف المدن جاءت الصفات فيها مفردة مجردة
عن الجمل ، وخاصة عند المقدسي ، ونلاحظ في هذا النص زيادة عدد هذه
الصفات حتى وصل أكثر من ست صفات في نسق واحد ، وفي بدايات
النص كما سبق أن رأينا ذلك أكثر من مرة غير أن ذلك في النصوص السابقة
كان أقل عددا منه في هذا النص .

ويبدو أن غزارة العلم وسعة المعرفة وكثرة الإطلاع لدى المقدسي
قد جعلت تلك الصفات تتدافع فلا يتمكن من التريث حتى يأتي بها في جمل
كاملة فيضطر لرصمها بهذه الطريقة التي أنكر وجودها الاستاذ عرباوم في
مدح المدن عند العرب ، وسوف نعود إلى مناقشة هذا الموضوع في الباب
الثاني بإذن الله تعالى .

والجديد في هذا النص هو طول الجمل فيه . وعدم استخدام الفواصل
القصيرة التي تعود ناها عند المقدسي ، وعلى الرغم من طولها فإنه قد حافظ
فيها على السجعة ، محافظة كبيرة حتى أنها تلك المحافظة إلى استخدام
ألفاظ مبتذلة ليس لها قيمة فنية في النص ، إلا أنه حافظ بها على السجعة
التي يحاول المقدسي في عدة نصوص المحافظة عليها دون مراعاة لما يتعرض
له النص من ضعف فني .

إيران شهر :

" بلد جليل ، ومصر نبيل ، لا أعرف له في الإسلام من عدل
لما قد اجتمع فيه من الخلال ، واتفق فيه من الخصال ،
مثل سعة الرقعة ، ووسع البقعة ، وصحة الماء ، وقوة الهواء
وكثرة العلماء ، بلد الأجلة ، والراسخين من الأئمة ، فواكه
واسعة لذينة ، ولحوم جيدة رخيصة ، ومعايش حسنة
مفيدة ، أسواق فسيحة ، ودور فرجة ، وضياح نفيسة ، وساتين
نزهة ، . . . ومجالس أليقة ، ومدارس رشيقة ، وظرف
ولياقة ، . . . وصناعة وحذاقة ، وتجارة وعبارة ، وهمة ومروءة ،
ومعروف وصدقة ، وحفاظ ومودة . في الآفاق مذكرة ،
وفي الإسلام شهرة ، ثم هي خزانة المشرقين ، متجر
الخافقين ، بضائعه تحمل إلى الآفاق ، ولبزه نور وإشراق
يتجمل به أهل مصر والمراق ، يجيب إلى الثمرات ،
ويرحل إليه في العلم والتجارات ، . . . لا يخلو الفقيه من
أدب ، والعدل من حسب ، . . . مصر صغر الرجال وجوهه ،
وأنزل الأشراف ساداته وحير العلماء أئمة ، وزاد على
المدن محلاته ، وعلى الأمصار رقعتة ، فهات في الإسلام
مثله ، . . . وهو أوسع من الفسطاط ، وأهل من بغداد ،
وأكل من البصرة ، وأجل من القيروان ، وأنظف من أردبيل
وأعمر من همدان ، لا عفة ولا سبخة ، ولا ملولة (١) ولا
كربة .

(١) ملولة : مللت الشيء بالكسر ومللت منه أيضا ، ملولة وملالسة

إذا سئمت . الصحاح مادة : ملل .

إلا أن في هوائها يبوسة ، وفي أهلها جفوة ، وفي
لسانهم رخاوة ، وفي رؤسهم خفة ، لا رفقة ولا بهية ، ولا
مساجد وضية ، شوارع نجسة ، وخانات شعثة ، وحمامات
وضرة ، وحوانيت منكرة ، وجدارات وعرة ، قد عاندها البلاء ،
وخالطها الغلاء ، قليلة الإدامات والحطب ، ثقيلة المعاش
والموئن ، سواد يابس ، وجبل عابس ، ماؤه هم تحست
الأرض ، وفتنهم تعنى القلب ، وعصبياتهم تجرح الصدر ،
ليس لمحتسبهم هيبة ولا صرامة ، ولا لخطيبهم خفر ولا
لباقة ، ولا لجامعهم في الأيام تلك الجماعه ، ولا لإمامهم
حسبة ولا حلاوة ، ولا لمذكرهم صدق ولا حقيقة . " (١)

يعد هذا النص من أطول النصوص في وصف المدن عند المقدسي
وعلى الرغم من ذلك فلم يخرج فيه عن طريقته وأسئلوه في صياغة هـذا
النصوص .

فهو كما نرى بدأه بجمل اسمية " بلد جليل ، ومصر نبيل "
وجاء بعدد من التراكيب الإضافية " سعة الرقعة ، وواسع البقعة ، صحة
الماء ، قوة الهواء . . . " وعاد من جديد إلى الأسلوب الذي بدأ به
النص " فواكه واسعة لذيدة ، ولحوم جيدة رخيصة " .

ثم جاء بعد ذلك بصفات ليست مرتبطة بجمل ولكنها مجردة عطف
بعضها على بعض بحرف المطف الواو " وظرف ولباقة ، وصناعة وحداقة ،
. . . "

(١) أحسن التقاسيم ص ٣١٤ - ٣١٦ .

وبعد ذلك جاء بجمل فعلية قدم فيها الفعول به فكان لهذا التقديم مكانته الفنية " صفر الرجال وجوهه " وأخيرا أتى بعدد من أسماء التفضيل أكد فيها تقدم هذا البلد على كثير من البلدان ، ذلك كله في قسم المدح الذي جاء من بداية النص حتى قرب الآخر .

أما الذم فقد جاء به في نهاية النص وكان في جمل اسمية مكونة من مبتدأ وخبر وخبرها شبه جملة جار ومجرور إلا أنه قدم هذا الخبر " في هوائها يبوسة ، وفي أهلها جفوة " ثم أتى بجمل اسمية قصيرة : (شوارع نجسة ، وخانات شمثة) عطف ببعضها على بعض ، ثم عاد إلى الأسلوب الإضافي " قليلة الإدامات والحطب ، ثقيلة المعاييش والمؤمن " وعاد من جديد - كعادته في تلوين الأساليب إلى الجمل الاسمية القصيرة " سواد يابس ، وجبل عابس " وهكذا .

وقد حافظ المقدسي على كثير من مميزات أساليبه في هذا النص فالجمل قصيرة ، وكل مجموعة منها تلتزم سبعة واحدة كعساده ، فنتج عن ذلك تقسيم موسيقى جميل اكسب النص روعة وجلالا ، كما كان لتنوع أساليب استخدام الجمل قية فنية نظرا لطول النص ابتعادا به عن الإملال .

(١) نسا :

" بلد رحب نزيه طيب ، غزير المياه كثير الخيرات ، مشتبك الأشجار ، حسن الثمار ، جامع ظريف ، وخبز نظيف ، وسوق رصيف ، له خصائص وظرائف ، المذهب واحد ، والرخص دائم ، مع فقه وأدب ، وأصل وحسب ، وبأس ومنعة . . .

(٢) قد زادوا في القرآن ، ورجعوا في الأذان ، وخالفوا الإسلام .

(١) نسا : هي مدينة بخراسان . . . منها أبو عبد الرحمن النسائي ،

صاحب السنن ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٣٢٠ .

ولا يكاد يخرج هذا النص عما سبقه من نصوص في مدح
المدن والأقاليم، فهو يستخدم فيه نفس الأساليب التي
سبقته الإشارة إليها، فالصفات المجردة التي لا ترتبط بأى جملة
قد جاء بها في بدايته كالمادة، ثم جاء بتراكيب إضافية (مضاف ومضاف
إليه) " غزير المياه ، كثير الخيرات " ثم جعل أخرى اسمية " جامع ظريف
وخيز نظيف " وعلى الرغم من أنه قد مدح البلد وأهله في بداية
النص، إلا أنه ذم أهله في نهايته " قد زادوا في القرآن ، ورجعوا في
الأذان " وعد ذلك مخالفة منهم للإسلام.

إقليم الديلم :

" هذا إقليم القز والصوف ، به صناع حذاق ، وفواكه تحمل
إلى الآفاق ، ويزه معروف بصر والعراق ، كثير الأمطار
ستقيم الأسعار ، مصر ظريف ، ولهم عمل لطيف ، يجلون
الشريف ، ويرحمون الضعيف ، كبراء في الفقه ، وأجلسة
في الحديث ، رجال في القتال وكل عفيف ، رسوم حسان
وذيل نظيف ، بحره عميق ، به مدن تطيف ، به أسماك
سريه ، وضياع جليلة ، وفواكه لذيذة ، وأشياء متضادة ،
وأرزاق كثيرة ، به تين وزيتون ، وأترنج وخرنوب (١) ، كثير
العناب ، رساتيق رحاب ، ومدن طياب ، وخيش (٢) عجاب
واسم كبير ، وماء غزير ، ودخل كثير ، ويز خطر (٣) ."

-
- (١) الخرنوب : شجرتين في جبال الشام . لسان العرب ، مادة : خرنوب .
(٢) خيش : الخيش ثياب من أردأ الكتان . الصحاح ، مادة : خيش .
(٣) أحسن التقاسيم ص ٣٥٣ .

أما إقليم الديلم فإنه في نظر المقدسي إقليم صناعي فأول ما يصفه به أنه إقليم الحرير والصوف، وأن به أحذق الصناع، وأن فواكهه تحمل إلى غيره من الأفاق، ويعود فيذكر بزه بأنه مشهور في مصر والعراق، كما يصفه بكثرة الأمطار، واستقامة الأسعار، وأنه إقليم ظريف .

وينتقل إلى وصف أهله فيذكرهم باللطف، وإجلال الشرفاء، ورحمة الضعفاء، وتوسمهم في الفقه والحديث، وخبرتهم في القتال . ثم يعود مرة أخرى إلى الإقليم، فيصف رسومه ونظافته وعمق بحره . ثم وصف مدنه وأسماكه، وهبئاعه وفواكهه، ورساتيقه ومياهه وغيرها .

ويتضح من وصف هذا الإقليم وغيره من الأقاليم أن الناثر لا يستقصى جميع الصفات عند وصف الأقاليم، وقد يعود ذلك إلى سعتها وعدم تمكنه من معرفة كل صغيرة وكبيرة فيها، بينما نلاحظ أن المقدسي خاصة يستقصى كثيرا من الصفات عند وصفه لكثير من المدن وقد أخذنا ذلك جليا في وصف فسطاط مصر، ومرو، وغيرها من المدن .

أما في هذا النص فإنه قد استخدم أكثر من أسلوب كما رأينا، وقد أشرنا إلى هذه الأساليب عند ذكرنا للنصوص التي سبق ذكرها، ومنها التراكيب الإضافية (إقليم القر، والصوف، كثير الأمطار، مستقيم الأسعار) ثم جاء بعدد من الجمل الفعلية وعدد آخر من الجمل الإسمية القصيرة .

شَهْرَسْتَان :

* هي مصرُ الإقليم وقصبة جرجان ، كثيرة الفواكه والزيتون
والرمان ، ومشاكلة رملة فلسطين في البلدان ، لها بهاء
وآئين (١) أهل مروة وإتقان ، وفيهم وطاء ، وظرف
ولطف واحسان . حسنة الأسواق والمساجد والأتيان ،
جيدة البطح والحلواء والباذنجان ، وكأنا عجن الخبز
بالزيت والأدهان ، بها النارج والأترنج والعناب ،
والنخل لولا برد يفسد الإرتاب ، وسك عجيب شبيه
شيران ، فهي بلدة سرية عظيمة القدر والشان ، وأنهار
عليها جسور وطيقان ، وبها علم ودين وأشياخ وأموال
وقد زخرفوا الجامع وأزروا (٢) الحيطان ، وهو بنصفين
(٣)
كفسا وبغداد ، وعلى الرسم حذاء العنبر دكان ، وإزاء
دار الأمير إلى ثم ميدان ، وأذان بتطريب وألحان ،
والخطيب حنفي والإقامة اثنان ، ولها البحر ورستاق دهستان
وقد غابت في رياض وأشجار وأقصاب وخرماروز ، فلا
تنسى قافة العلم نسيان ، به تين وزرور ورومان ، بلا
منع ولا طرد ولا دفع أثمان ، وأجيال عامرة على نعمت
لبنان ، وخانات ظريفة ، ومسجد دينار . فهذا صحيح
كله ولكن فاسمع الآن ، هو مصر حرة شديد مع كرب وذبان ،

-
- (١) آء : شجر طلي وزن فاع . واحدتها آءة . الصحاح ،
مادة : آء .
(٢) أزروا : ومن المجاز ، التأزير : التقويه ، وقد أزر الحائط إذا قواه
بتحويط يلزقه به . تاج العروس مادة أزر .
(٣) كفسا : لعله يريد "نسا" المدينة التي مر ذكرها .

وبراغيث ضارية إليها صرفنا اسم كركان ، والتين حماة
والماء أكران ، ومن حلها من بلده فليعدد الأكفان ، فإن
بها منجلا يحصد الأبدان ، وتراهم على رأس الجمل
يوم النحر حزبان ، فمجروح ومضروب وحيران ، ولا يفارقهم
هرج وقتل وجيشان ، جيش من الديلم الآخر من ترك
سامان : (١)

وصف المقدسي مدينة شهرستان بأنها عاصمة جرجان ، وأنها كثيرة
الفواكه تشبه رطة فلسطين ، ووصف أهلها بالمروية والحدق والتواضع
والظرف والल्प والاحسان ، ثم عاد إلى ذكر مساجدها وفواكهها وخبزها
وسمكها وأنهارها وجسورها ، وكيف زخرف أهلها المسجد الجامع فيها
وعرض للمؤذن والخطيب . وأشار إلى رياض الأشجار المحيطة بها وكثرة
أشجار الفاكهة التي لا يطرد عنها أحد ولا تتاع ثمارها . ثم شبه جبالها
بجبال لبنان . وكان هذا هو القسم الأول من الوصف . أما القسم الثاني
فقد خصه لدم هذه المدينة ، وذلك أنها شديدة الحرارة والكرب ، وكثيرة
الذباب والبراغيث والأومئة والأمراض . وأن من حلها فعليه إعداد الأكفان
ثم وصف أهلها بالشغب وأنهم عرضة للجيوش المرسله إليهم بسبب ذلك .

وإذا أمعنا النظر في هذا النص فإننا سنجد أن المقدسي قد
شغل نفسه بتوحيد السجعة كعادته وعدم الخروج عنها في كل جملة
من جمته ، مما اضطره إلى استخدام ألفاظ غريبة وليس لها كبير معنى بسبب
استخدام ألفاظ في غير محلها ليسد بها فراغا من حيث السجعة .

(١) أحسن التقاسيم ص ٣٥٧ .

وكانت جمل النص طويلة نوعاً ما، إذا ما قورنت بجمل النصوص التي سبق لنا عرضها، وجمع في هذا النص كثيراً من الأساليب المستخدمة في وصف المدن، فتارة يأتي بتراكيب إضافية ومرة بجمل إسمية وآخر يشبه جمل، وهكذا لم يلتزم أسلوباً واحداً. وهو ما لحظناه عليه فيما سبق من نصوص .

إقليم الرحاب :

" لما جَلَّ هذا الإقليم وطاب ، وكثرت فيه الثمار والأغاب ، . . . ، ورخصت به الأسعار ، واشتبكت فيه الأشجار ، وجرت خلاله الأنهار ، وحوث جباله الأعسال ، وسهوله الأعمال . . . ولم نجد له اسماً ما يجمع كوره سميانه الرحاب . وهو إقليم للإسلام فيه جمال ، . . . وهو مع هذا ثغر جليل ، وإقليم نبيل ، . . . به المتاجر المفيدة ، والكور القديمة ، والأنهار الفزيرة ، والقرى النفيسة ، والخصائص العجيبة ، والثمار اللذيذة ، أهل جماعة وسنة ، وفصاحة وهيبة لهم المن والغوة (١) . . . والبحر والبحيرات ، . . . والدين والخيرات ، إلا أن كلا في مذهبه غال ، ومع ذلك هم ثقال ، وفي لسانهم تكلف ، وفيهم تصلف ، والطرق إليها صعبة ، وللنصارى بسها غلبة (٢) .

(١) الفوة : " بالفاء " عروق يصبغ بها . الصحاح ، مادة : فوا .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

كما نشاهد بدأ القديسي هذا النص بجمل فعلية وصلها بحرف العطف وهي متساوية الطول ، موحدة السجعة ، جميلة الألفاظ علل فيها سبب تسميته لهذا الإقليم بإقليم الرحاب .

ثم انتقل إلى وصفه بعد ذلك التمليل فاختر له جملاً قصيرة وحّد سجعته أيضاً كما سبقتها ، ووصف أهله بالتزامهم بالسنة والجماعة وأن فيهم الفصاحة ولهم الهيبة ، وعاد فذكر أن فيه بحراً وبحيرات وديناً وخيرات .

أما خاتمة النص فإنه قد خصصها لذم هذا الإقليم مع أننا لسنا من خلال النصوص السابقة أن الذم كان يخص المدن في كثير من الأحيان ، غير أننا هنا على الرغم من وجود ذم إلا أنه ليس طويلاً ، ولكنه أشار إلى اختلاف أهل هذا الإقليم في المذاهب ومخالاتهم في ذلك ، ثم إلى تكلف السننهم وصلاحهم وضمومة الطرق إلى هذا الإقليم وغلبة النصارى عليه .

إقليم الجبال :

" هذا إقليم حشيشه الزعفران ، وشراب أهله العسل والألبان ، وأشجاره الجوز والأتیان ، نزيه بهي خصيب وله شان ، به الرقي الجليلة وهمذان ، والكورة النفيسة إصبهسان ، وسيظهر لك فضله إذا وصفنا البلدان ، ... لا حرب به ولا براغيث ولا ذبان ، ولا أفاعي ولا عقارب ولا ديدان . في الصيف جنة وروضة وستان ، وفي الشتاء الحطب والفحم مجان وعلم كثير ، وعقل وحذق واتقان . غير أنه شديد البرد ترى خدودهم في الشتاء مشققة ، وأطرافهم أبداً مخضرة ، ووجوههم مصفرة ، وأنوفهم سائلة " .

(١)

على الرغم من قصر هذا النص فإنه يوحى بالمتعة والجمال ويدل على
مكانة هذا الإقليم لدى الناشر، ثم ما يتتبع به فعلا من جمال وحسن حال .
فالإقليم تغطى جباله بالزعفران بدلا عن الحشيش، ويكثر فيه
العسل واللبن كثرة المياه، وجميع أشجاره هي جوز أوتين وهو مع ذلك قد
نال من النزاهة والبهاء والخصب ما جعل له مكانة وشأنا كبيرين .
ويبدو أن المقدسي قد شغف به فلم يكتف بنعته بهـذـه
الصفات بل وعد بأن فضله سيظهر عندما يذكر مدنه كالرى وهمسـذان
وأصبهان .

ومع ذلك فهو وقبل أن يصل إلى ذكر فضائل تلك المدن، ينفى
عن هذا الإقليم الحر والبراغيث والذباب والأفاعي والعقارب
والديدان . ومن أهم فضائله أنه في الصيف جنة ، وروضة وستان . وفي
الشتاء يتوافر فيه ما يدافع به البرد مجان .

أما أهله فعلمهم كثير، وكذلك عقولهم وحثقهم واتقانهم
للصناعات . . . ومع هذه المكانة كلها لهذا الإقليم فإن البرد السدى
ذكره الناشر آخر النص قد غير من مناظر أهله فخدودهم في الشتاء
مشققة ، وأطرافهم دائما مخضرة ، ووجوههم مصفرة ، وأنوفهم سائلة كل
ذلك بسبب البرد .

ومن حيث التراكيب فقد التزم السجعة في جميع الجمل وإن كانت
جمل النص طويلة بعض الشيء . والجديد في هذا النص هو استخدام
المقدسي أدوات النفي ليدفع عن هذا الإقليم بعض الصفات
القبيحة، وكذلك وجود نم في نهايته بخلاف العادة المتبعة عند
وصف الأقاليم بصفة خاصة . غير أن طبيعة المقدسي كما
التنوع والتلوين .

(١) اليهودية :

"قصة أصفهان ، كبيرة عامرة أهلة ، كثيرة الخيرات ، وبلد
التجارات ، حلوة الآبار ، لذيدة الشار ، جيدة الهواء
خفيفة الماء ، عجيبة التربة ، حسنة البقعة ، بها تجار
كبار ، وصناع حذاق ، وبزيجمل إلى الآفاق ، أهل جماعة
وسنة ، وحذاق وفطنة ، جامعهم عامر بالجماعات على
الدوام ، ولا بها حر ولا براغيث ، ولا هوام" (٢)

وفي هذا النص يبدأ المقدسي بسرد صفات مفردة "كبيرة ،
عامرة ، أهلة" وليس لها ارتباط بجمل أو شبه جمل وقد سبق لنا
ايراد مثل هذه الصفات في نصوص تم عرضها وستأتي نصوص أخرى تحسوى
صفات مشابهة لها ، ثم يأتي بالأسلوب الإضافي الذي ينتشر في نصوص
المقدسي "كثيرة الخيرات ، بلد التجارات ، حلوة الآبار ، لذيدة الشار ."
وكذلك "أهل جماعة وسنة ، وحذاق وفطنة" ويختتم النص بجملتين طويلتين
وحد السجعة فيهما "جامعهم عامر بالجماعات على الدوام ، ولا بها حر
ولا براغيث ولا هوام" وقد نفى في هاتين الجملتين ما كان يأتي به في
نصوص أخرى على أنه ذم . وجاء بأداة النفي "لا" مع أن "ليس" كانت
أقرب . وقد جاء بهذه الأداة في هذين النصين . والواقع أن النص فيسه
لمسة فنية تجلت في جملة القصيرة التي وحد الناثر السجعة في كثير منها ،
وقد جاء وصف أهلها قرب النهاية "أهل جماعة وسنة ، وحذاق وفطنة" ولم
يأت بدم عقب المدح كما فعل في بعض النصوص ، بل كان قد نفاه قبل
نهاية النص كما أشرنا .

(١) اليهودية : نسبة إلى اليهود الذين سكنوها بعد أن أخرجهم

«بخت نصر» من بيت المقدس . وهي المدينة العظمى في أصفهان .

معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٥٣ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٨ .

(١) السرى :

" بلد جليل بهن نبيل ، كثير المفاخر والغواكه ، فسيح
الأسواق ، حسن الخانات ، طيب الحمامات ، كثير
الإدامات ، قليل الموء ذيات ، غزير المياه هفيل
التجارات ، علماء سراً ، وعوام دهاة ، ونسوان مديرات ،
بهن المحلات ، خفيف ظريف نظيف ، لهم جمال وعقل ،
و آيين وفضل ، وبه مجالس ومدارس ، وقرائح وصنائع
ومطارح ، ومكارم وخصائص ، لا يخلو المذكور من فقهه ،
ولا الرئيس من علم ، ولا المحتسب من صيت ، ولا الخطيب
من أدب ، فهو أحد مفاخر الإسلام ، وأمهات البلدان ،
به مشايخ وأجلة ، وقراء وأئمة ، وزهاد وغزاة وهمة ، كثير
الجليد والثلج ، . . . ولمذكريهم فن ، ولرساتيقيهم
(٢)
شأن ، . . . حسن الخانات ، كامل الآلات ، نفيس سرى ."

إذا قارنا بين هذا النص والذي سبقه في وصف مدينة اليهودية
نجد تطابقاً كاملاً وليس هناك فرق بينهما ، إلا في أشياء خفيفة لا تكاد
تظهر .

غير أن الصفات المفردة في هذا النص قد وردت في بدايته
" بلد جليل بهي نبيل " وتكرر ذلك مرة أخرى أثناء ، " خفيف ، ظريف ،
نظيف " ثم جاءت في نهايته " نفيس سرى " .

(١) الرى : مدينة مشهورة ، من أمهات البلاد وأعلام المدن ، كثيرة الغواكه
والخيرات ، . . . قصة بلاد الجبال ، بينها وبين نيسابور مائة وستون

فرسخاً ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

أما بقية النص فلا يكاد يخلو من نفس الصفات التي توافرت في سابقه على الرغم من طوله .

والتشابه بين نصوص المقدسي يكاد يكون سنة متبعة فلا تجد نما من نصوصه الفنية التي وصف بها المدن والأقاليم إلا وله وجه شبه بنص آخر في وصف مدينة أخرى ، وقد يرجع ذلك إلى الفترة الزمنية الطويلة التي قضاها في التجوال والوصف، حتى ظهر هذا الجهد الكبير في هذا الكتاب ، والمعروف أن وجود فارق زمني كبير قد يحجب عن الناشر ما كتبه في فترة سابقة فيقع في التكرار .

إقليم خوزستان : (١)

" هذا إقليم أرضه نحاس نباتها الذهب ، كثير الثمار والأرز والقصب ، وفيه الأنجاص والحبوب والرطب ، والاترنج الفائق والمان والعنب ، نزيه طيب أنهاره عجب ، بزه الديباج والخز ، والرقاق من القطن والقز ، معدن السكر والقند والحلواء الجيدة وعسل القطر ، به تستر التي اسمها في المشرقين ، والعسكر التي تميزه الدولتين ، والأهواز المشهورة في الخافقين . . . ومع هذا به معادن النفط والقار ، ومزارع الرياحين والأطيار " (٢)

(١) خوزستان : " هو اسم لجميع بلاد الخوز " والخوز في نفس الصفحة

قبل ذكر خوزستان " هم أهل خوزستان ونواحي الأهواز بين فارس والبصرة " . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٠٤ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٤٠٢ .

على الرغم من أن أكثر نصوص المقدسي قصيرة الجمل والفواصل، إلا أننا نجد في بعضها أطول نفساً وأوسع صدراً فيطيل الفواصل ويختار الألفاظ المناسبة ويثبت فيها قدرته على الإبداع.

وفي هذا النص الذي وصف فيه إقليم خوزستان بأن أرضه نحاس نباتها ذهب، ووصفه كذلك بكثرة الثمار والفواكه، والنزاهة والطيبة وكثرة الأثمار، وغير ذلك من المصنوعات والأغذية الموجودة فيه؛ نجد يطيل الفواصل ويوحد السجعة، ويجعل منه قطعة فنية مسجوعة جميلة أحسن اختيار كثير من ألفاظها، وساوى بين فواصلها، فأصبحت حولاً يدعو إلى الوقوف عنده، ويدل على قدرة الناثر الكبيرة على الإتقان.

(١) السوس:

” قصبة عامرة طيبة، ولهم في الخير رغبة، بها أسواق بهية، وأخبار حسنة، ومياه جارية، تدور في البلد الأرحية، ولها حمامات جيدة، وحلاوات رخيصة، وضياع نزيهة، ونعم كثيرة، وسواد حسن، وقصب عجب، وعلم وقرآن، وحديث وأدب، وسنة وجماعة، وجامع سوى على أساطين مدورة“.

نلاحظ أن هذا النص قصير جداً، غير أن نظرة دقيقة لجملته وفواصله، وقدره الناثر الفنية على توحيد سجعته ومساواة عدد ألفاظ أكثرها، ووضوح النغمة الموسيقية فيها، قد جعل منه عملاً جميلاً يستحق التقدير والإجلال.

(١) السوس: بلدة بخوزستان، فيها قبر دانيال النبي عليه السلام،...

والسوس تعريب، بنقط الشين ومعناه الحسن والنزه والطيب

واللطيف. معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨٠.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ٤٠٧.

فقد بدأ بذكر المدينة ثم أشار إلى أهلها " لهم في الخير رغبة"
ثم عاد مرة ثانية إلى ذكر محتويات المدينة من أسواق وأباز ومياه وحمامات
وحلاوات وأراضٍ ونعم وغيرها .

وأخيرا عاد من جديد لوصف أهلها بالعلم وحفظ القرآن والحديث
والأدب والتزامهم بمذهب السلف، أهل السنة والجماعة، وفي نهاية
النص أشار إلى حالة مسجدهم الجامع .

وإذا كان المقدسي قد خصص جزءا من بعض النصوص لسفوف
المدينة التي يصفها ويأتي ذلك عادة في نهاية النص فإنه هنا قد اكتفى
بالمدح ومن خلاله تتضح مكانة هذه البلدة لديه .

وتستتر : (١)

" ليس بالإقليم أطيّب ولا أحصن ولا أجل من هذه ،
يدور حولها النهر ، ويحدها البساتين والنخل ، معدن
كل حانق في عمل الديباج والقطن ، قد جمعت الأضداد
، وفاقته البلاد ، واشتهرت في العباد ، وهي التي قيل
إنها جنة ترعاها الخنازير ، ولا تسأل عن الفواكه
والخيرات ، ... ترى أسواقا سوية ، وخصائص كثيرة ،
(٢)
يرحل إليها من المشرق والمغرب "

(١) تستتر : بالضم والسكون وفتح التاء الأخرى وراء : أعظم مدينة

بخورستان ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٤٠٩ .

يعود المقدسي في هذا النص إلى استخدام أسماء التفضيل على الرغم من عدم الإكثار منها "أطيب ، أحسن ، أجل " ثم يصف هذه البلدة بكثرة الأنهار حولها وكذلك البساتين وأن أهلها لهم دراية كاطلة في عمل الديباج والقطن ثم أشار إلى كثرة الفواكه والخيرات وإلى حسن أسواقها ورحلة الناس إليها .

ومع أن النص قد خصص لمدح المدينة ولم يأت بدم إلا أن هناك إشارة إلى ذم أهلها عندما قال "إنها جنة ترعاها الخنازير" .

أما من حيث التراكييب فالنص على الرغم من تساوى فواصله وجمله وجمال ألفاظه ، فإن سجع تلك الفواصل لم يتمكن من توحيدها كما صنع في كثير من النصوص ، وليس ذلك عيبا بل قد يكون ميزة طيبة إذ أن الإلتزام بالسجع المتكلف هو الذى يقلل من أهمية تلك النصوص وقيمتها الفنية ، والمهم في الأمر أن تتساوى الفواصل ، حتى يشعر القارئ براحة نفسية نتيجة ذلك التوازن .

(١)
الأهواز :

"ضيق متنن ذميم ، لا دينن ولا لهم أصل كريم ،
ولا فقيه إمام ولا مذكر حكيم ، ولا وقت طيب ولا قلب سليم ،
الفريب به في حيرة سقيم ، ولا عيش هنيء فيه أيضا
للمقيم ، بق سراغيث ، وكرب عظيم ، في الليل دبس وفي
النهار حر السموم . . . عقارب وحيات وماء حميم ، وقوم سوء"

(١) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس لكل كورة منها اسم

ويجمعهم الأهواز . معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٨٥ .

في شرٍ مصرٍ وضيقٍ وشوئٍ م ، يُجيبُ إليه الفواكه من مكان
سحيقٍ ، ومن البعدِ يجلب إليه الدقيق . . . ليس
لقارئهم طيبة ، ولا لجامعهم حرمة ، ولا لبلدِهم رئيس
ولا لفقيرهم مجلس . (١)

إذا كان ناثراً الكبير قد جمع بين المدح والذم في بعض النصوص
المتعلقة بوصف المدن والأقاليم ، وأُفرد بعضها للمدح فقط ، فإنه في هذا
النص يقتصر على الذم فقط .

وبنفس الأسلوب الذي يتعامل به في المدح يأتي الذم فهو يبدأ
النص بعدد من الصفات السيئة المجردة عن الجمل " ضيق ، متن ، ذميم " .
ثم ينفي عن أهلها صفة الندين والأصل الكريم ، والفقه وعدم وجود إمام
ولا مذكر حكيم ، ويشير إلى حالة الغريب فيه لعدم وجود صفة الكرم في
أهل هذا البلد ، وأن المقيم ليس أحسن حالاً من ذلك الغريب المسافر .
ثم يفصل ما أجمله ، فيذكر كثرة البق والبراغيث والكرب العظيم ،
وحالة هذا البلد في الليل وحالته في النهار وكثرة الحيات والعقارب
وحالة مائه .

وأخيراً يشير إلى حالة أهله وعدم توفر الفواكه فيه وكذلك الدقيق
وحالة قارئهم وجامعهم وبلدِهم وفقيرهم .

أما من حيث التراكيب فالفواصل متساوية ، والسجعة موحدة ، والذم
مقدح ، وليس معه أي صفة طيبة يخص بها هذا البلد .

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٤١٠ .

(١)
إقليم السند :

" هذا إقليم الذهب والتجارات ، والعقاقير والآلات ،
والفانيذ والخيرات ، والأرز والموز والأعجوبات ، به رخص
وسعة ، ونخيل وثمرات ، وعدل وإنصاف وسياسات ، وبه
خصائص وفوائد ومضاعات ، ومنافع ومفاخر ومتاجر وصناعات ،
ومصر جليل ومعدن سرية وقصبات ، وسلامة وعافية وثم أمانات ،
قد جاور البحر ، وشقه النهر ، وحوى النخل وله سهل وزرع
على البعل . مصر ظريف ، ونهر شريف ، وأمره طريف ."
(٣)

أما هذا النص فقد أفرداه المقدسي لدح إقليم السند ولم يضمنه
أى زم إلا أنه قد أعطى لتوحيد السجعة ، والتزام نفمة واحدة ، إهتماما
كبيراً ، طغى على بقية المميزات الفنية ، إذ لم يهتم مع ذلك بحسن الألفاظ ،
واستقصاء صفات الإقليم وأهله ، كما يصنع في كثير من النصوص ، بل جعل
ذلك في المقام الثاني كما لسنا من النص .

والحقيقة أن المقدسي قد أتمنا كثيرا بما قرأنا له من نماذج فنية
فريدة تشهد له بغزارة العلم وسعة الإطلاع .

(١) السند بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره دال مهملة : بلاد ما بين

الهند وكرمان وسجستان . معجم البلدان ج ٣ ص ٢٦٧ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٤٧٤ .

الفصل الثالث

النصوص الفتنية في القرنين
الأخامس والسادس للهجرة

الفصل الثالث

النصوص الفنية في القرنين الخامس و السادس للهجرة

١ - الحريري ومقاماته :

وهو : " أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامى صاحب المقامات ، كان أحد أئمة عصره ، ورزق الحظوة التامة في عمل المقامات ، واشتملت على شيء كثير من كلام العرب : مسن لفاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها ، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل ، وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . " (١)

وكتابه المقامات الذى اشتهر به ، يحوى بين دفتيه خمسين مقامة ، كتبت بأجمل أسلوب وأرق عبارة ، جمع فيها عددا هائلا من ألفاظ العربية ومفرداتها الفصيحة ، وضمنها كثيرا من الصور البلاغية ، وأتى فيها بالفرائب والأمثال واللطائف والنوادر ، ما جعلها تحتل مكانة كبيرة في التراث العربي منذ نشأتها حتى الآن .

وقد أشار إلى ذلك في مقدمته عندما ذكر أنها " تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحنها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ووضعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، (٢) والرمائل المبتكرة ، والخطب المحببه ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الطهية . "

(١) وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٦٣-٦٥

(٢) مقدمة شرح المقامات ، الشريشي / ط / ج ١ ، ص ١٩٠ .

أما سبب وضعه لها فقد نقل ابن خلكان (١) " ما حكاه ولسده أبو القاسم عبدالله قال : كان أبي جالسا في مسجده ببني حرام ، فدخل شيخ ذو طيرين عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح الكلام ، حسن العبارة ، فسألته الجماعة : من أين الشيخ ؟ فقال : من سروج . فاستخبروه عن كنيته فقال : أبو زيد ، فعمل أبي المقامة المعروفة بالحرامية ، وهي الثامنة والأربعون ، وعزاها إلى أبي زيد المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها الوزير (شرف الدين أبا نصر أنوشروان ابن خالد بن محمد القاشاني) وزير الإمام المسترشد بالله فلما وقف عليها أعجبت ، وأشار على والدي أن يضم إليها غيرها فأتعها خمسين مقامة ، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله : « فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلف فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأ والضيع » .

ويؤيد ذلك ابن خلكان أنه وجد هذا في عدة تواريخ ثم يعود فيذكر أنه وجد نسخة من المقامات مكتوبة بخط الحريري وعلى ظهرها بخطه أيضا " أنه صنفها للوزير (جلال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن أبي العز علي بن صدقه) وزير المسترشد أيضا " ويرجح بقوله : " لا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف " (٢)

ويمكن ترجيح الرواية السابقة التي أوضح فيها ابن الحريري القصة كاملة ، بينما يُحتمل أن ما كتبه الحريري على نسخة للمقامات ووجدها ابن خلكان أن تكون نسخة أخرى أهداها الحريري للوزير الآخر وتقديرا لمكانته كتبها بخطه .

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٦٣-٦٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٣-٦٤ .

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذي بذله الحريري في إنشاء المقامات إلا أن مبدع هذا الفن ، هو بديع الزمان الهمذاني الذي كان له فضل سبق في هذا الميدان ، ولم يمحطه الحريري حقه بل اعترف لسه بالفضل موضحاً ذلك في مقدمة مقاماته من أنه " قد جرى ببعض أنديسة الأُدب . . . ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان رحمه الله تعالى " ومع ما أشار إليه الحريري من احتواء مقاماته على غرر البيان وملح الأُدب وغيرها كما قدمنا فإنه يوء كد اعترافه " بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يفترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته " (١)

وصف مدينة البصرة من المقامة الخمسين :

(٢) " يا أهل البصرة رعاكم الله ووقاكم ، وقوى تقاكم ، فما أضعو رياكم (٣) ، وأفضل مزاياكم ، بلدكم أوفى بالبلاد طهرة ، وأزكاها فطرة ، وأفسحها رقعة ، وأمرعها نجمة (٤) ، وأقومها قبلة ، وأوسعها دجلة ، وأكثرها نهراً ونخلة ، وأحسنها تفصيلاً وجملة ، دهليز (٦) البلد الحرام ،

(١) مقدمة المقامات ، شرح الشريشي ج ١ ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) الضوع : تزوع الريح الطيبة أي نفحتها . لسان العرب ، مادة : ضوع .

(٣) رياكم : راثتكم . شرح المقامات للشريشي . ج ٤ هامش ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٤) مرع الوادي بالضم وأمرع : أي أكلأ . الصحاح ، مادة : مرع .

(٥) النجمة بالضم : طلب الكلاء في موضعه . الصحاح ، مادة : نجع .

(٦) الدهليز : بالكسر ما بين الباب والدار فارسي معرب والجمع

الدهاليز . الصحاح ، مادة : دهليز .

وقبالة الباب والمقام وأحد جناحي الدنيا ، والمصر الموءس
على التقوى ، لم يتدنس ببيوت النيران ، ولا طيف فيه
بالأوثان ، ولا سجد على أديمه لغير الرحمن ، ذوالمشاهد
المشهود ، والمساجد المقصودة ، والمعالم المشهورة
والمقابر المزورة ، والآثار المحمودة ، والخطط المحدودة ،
به تلتقي الفلك والركاب ، والحيتان والضباب ، والحادي
والملاح ، والقانص والفلاح ، والناشب والراح ، والسارح
والسابع ، وله آية المد الفاض ، والجزر القاض .

وأما أنتم فمن لا يختلف في خصائصهم اثنان ،
ولا ينكرها نوشتان ، دهماؤكم أطوع رعية لسلطان
وأشكرهم لإحسان ، وزاهدكم أورع الخليفة ، وأحسنهم
طريقة على الحقيقة ، وعالمكم علامة كل زمان ، والحجة
البالغة في كل أوان .

ومنكم من استنبط علم النحو ووضع^(١) الذي
ابتدع ميزان الشعر^(٢) واخترعه ، وما من فخر إلا ولكم
فيه اليد الطولى ، والقذح^(٣) المعلق^(٤) ، ولا صيت
إلا وأنتم أحق به وأولى ، ثم إنكم أكثر أهل مصر مؤذنين ،

-
- (١) الذي استنبط علم النحو هو : أبو الأُسود الدؤلي . شرح المقامات
ج ٤ هامش ص ٢٥٥ .
- (٢) الذي ابتدع ميزان الشعر هو : الخليل . نفس المصدر هامش ص ٢٥٦ .
- (٣) القذح بالكسر : السهم قبل أن يراش ويركب نصله . وقذح الميسر
أيضا . الصحاح ، مادة : قذح .
- (٤) المعلق بفتح اللام ، السابع من سهام الميسر . الصحاح ، مادة : علا .

(٢) وأحسنهم في النسكِ قوانين (١) ، وبكم اقتدى في التعريف ،
وعرف التسخير في الشهر الشريف . ولكم إذا قرت المضاجع ،
وهجع الهاجع ، تذكرا يوقظ النائم ويؤنس القائم ، وما
ابتسم شفر فجر ، ولا بزغ نوره في برد ولا حر ، إلا
ولتأذنينكم بالأسحار ، دوى كدوى الريح في البحار ، وبهذا
صدع عنكم النقل ، وأخبر النبي عليه السلام من قبل ، وبين
أن دويكم بالأسحار ، كدوى النحل في القفار ، فشرفا
لكم بيشارة المصطفى ، وواها لمصركم وإن كان قد عفا ،
ولم يسبق منه إلا شفا . (٣)

تعد هذه المقامة من أجمل ما قيل في وصف المدن والأقاليم وقد
اعتمد الحريري فيها على أسلوب التفضيل ، فظل يستخدمه في جميع
أجزاء النص ، ولا يكاد يخرج عنه حتى يعود إليه ، وكما عرفنا فإن أسلوب
التفضيل يعد من أجمل الأساليب التي استخدمها الناثر العربي في
هذا اللون من الوصف الفني .

وعلى الرغم من أن الحريري قد جاء بأساليب أخرى في هذا النص ،
إلا أن أسلوب التفضيل قد نال حظا أوفر من غيره . فهو يبدأ النص بالدعاء
لأهل البصرة بما لا يتجاوز الجملتين ثم يأتي بعد ذلك بالجمل المشتمة
على أسماء التفضيل (فما أضع رياكم ، وأفضل مزاياكم) ويستمر في سرد

(١) القوانين : الأصول ، الواحد قانون وليس بعربي . الصحاح ،
مادة : قن .

(٢) التعريف : الأعلام . والتعريف التطيب من العرف . الصحاح ،
مادة : عرف .

(٣) شرح المقامات ج ٤ ص ٢٥٣ - ٢٥٧ .

هذه الجمل الى أن يصل عدد أسماء التفضيل فيها إلى عشرة أسماء (أوفى ، أزكاها ، أفسحها ، أمرعها ، أقومها ، أوسعها ، أكثرها ، أحسنها) وهذا كله في الجزء الأول من النص الذي وصف فيه هواء البصرة ، ومساحتها وخصب مراعيها وسعة نهرها وكثرة نخيلها ، وحسنها جملة وتفصيلا .

وفي الجزء الثاني يذكر مكانتها الدينية منذ تأسيسها فهي مدخل البلد الحرام ومواقعها مقابل لباب الكعبة ومقام ابراهيم عليه السلام ، أحمد جناحي الدنيا - يشير بذلك إلى الأثر الذي شبهت فيه الدنيا بطائر والبصرة ومصر جناحاها - ثم يشير إلى أنها أسست في الإسلام ، فلم تحل به ديانة أخرى غير عبادة الرحمن . و يبين كثرة التردد إلى مشاهدتها ومساجدها وشهرة معالمها ، وكثرة الزيارة لمقابرها وآثارها .

وأخيرا يذكر موقعها وأهميته ، إذ تقع على البحر فلتقي فيها فلكه ومراكب البر كما يلتقي صيده بصيد البر أيضا ، ويلتقي صيادو البحر والبر وأخيرا كيف تتضح فيه ظاهرة المد والجزر ، لموقعه هذا .

وعندما يأتي دور أهل البصرة فإن الحريري يخصهم بأكثر من نصف النص ، فهم الذين لا يختلف في خصائصهم اثنان ، ولا ينكر تلك الخصائص صاحب عداوة ، فجماعتهم أكثر طاعة للسلطان ، وأكثرهم شكرا للإحسان ، وزاهدهم أخوف من الله تعالى ، وأحسنهم قربا من الحقيقة ، وعالمهم كثير العلم في كل زمان ، والحجة البالغة في كل وقت . ثم يشير إلى أولئك الذين نبغوا في بعض العلوم وكانوا أعلاما فيها يشار إليهم بالبنان - أمثال من استنبط علم النحو ووضع ، الذي ابتدع ميزان الشعر واخترعه .

ولم يكتف بهذا كله حتى جعل لأهل البصرة اليد الطولى في كل فخر، والحق الأول في كل صيت، وتحدث عن مكانتهم الدينية واهتمامهم بالشعائر وأنهم أكثر أهل الأقطار مؤذنين، وأحسنهم في النسك قوانين، وأنهم قدوة لغيرهم / رؤوسهم بعد يوم عرفة، وبهم عرف الناس التسخير، في شهر رمضان المبارك ولهم التذكير الذي يوقظون به النائمين في أوقات السحر، ثم شبه أذانهم لصلاة الفجر بدوى النحل وأنهم لا يغفلون عنه في شدة برد أوجر، وأخيرا أشار إلى الحديث الشريف المنقول في تشبيه أذانهم في الأسحار بدوى النحل في القفارة، وهنأهم بهذا الشرف العظيم والفضل الكبير .

٢ - الشريف الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق :

وهو : " محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس . . . الشريف الإدريسي ، مؤلف كتاب (رجار) وهو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . . . نشأ محمد هذا في أصحاب (رجار الفرنجي) صاحب صقلية ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً مفرى بعلم جغرافياً ، صنف لرجار الكتاب المذكور " (١) واختلف الباحثون في تاريخ وفاة الإدريسي غير أن الدكتور أحمد سوسة رجح أن ذلك كان سنة ٥٦٠ هـ (٢)

وكتابه المذكور يعد من أكثر الكتب - التي تم تأليفها في الجغرافيا العربية - شمولاً لأنه تناول فيه بالإضافة إلى البلدان الإسلامية كثيراً من أجزاء المعمورة آنذاك . وقد دفع هذا الباحثين إلى الاهتمام به وترجمة بعض أجزائه إلى لغات أخرى ، وأكسبه هذا الاهتمام شهرة كبيرة فاقت غيره من الكتب المؤلفة في الجغرافيا العربية التي اقتصر مؤلفوها على ذكر البلدان الإسلامية دون الخروج عنها وبينوا ذلك صراحة في كتبهم كما رأينا عند المقدسي .

وفي ترتيب الإدريسي لكتابه قام بتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم كعادة المؤلفين السابقين له غير أنه أحدث تقسيماً جديداً جعل فيه كل

(١) الوافي بالوفيات - الصفي ، الطبعة الثانية ، عيسى

منقحة ، دار النشر فرانز شتايربشبادن ٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٤ .

(٢) الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية - د. أحمد سوسة .

ط/مكتب صبرى ، سنة ١٩٧٤ م ، الباب الثاني ص ٢٨٤ .

إقليم من الأقاليم السبعة ينقسم إلى عشرة أجزاء ، تحدث عن كل جزء منها في قسم خاص من الكتاب. (١)

والواقع أن هذا التقسيم الأخير قد جعل البلد الواحد يتفرق في أكثر من جزء ، وهذا يؤدى إلى صعوبة الحصول على فكرة كاملة عن كل بلد وذلك ما أخذه على الإدريسي الأستاذ كراتشوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي . (٢)

ومع الأهمية الكبرى ، والقيمة العظيمة لهذا الكتاب فإننا سنجد أن النصوص الفنية التي وصف بها المدن قصيرة جداً ، وقد يعود ذلك إلى السرعة التي واكبت تأليفه بسبب حرص الإدريسي على استكماله قبل وفاة الملك رجار . (٣)

وأول نص فني يقابلنا للإدريسي ، هو وصف مدينة صنعاء :

" مدينة صنعاء كثيرة الخيرات ، متصلة العمارات ، وليس في بلاد اليمن أقدم منها عهداً ، ولا أكبر قطراً ، ولا أكثر ناساً ، وهي في صدر الإقليم الأول ، معتدلة الهواء ، طيبة الثرى ، والزمان بها أبدا معتدل الحر والبرد . " (٤)

-
- (١) انظر المصدر السابق ، الباب الثاني ، ص ٣٩٩ .
(٢) تاريخ الأدب الجغرافي ، كراتشوفسكي ، ج ١ ص ٢٨٥ .
(٣) انظر المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٨٢ .
(٤) نزهة المشتاق ، الشريف الإدريسي ، طبع المعهد الإيطالي لتاريخ آداب الشرقين الأدنى والأقصى ص ٥٣ .

النصوص الفنية في وصف المدن والأقاليم للشريف الإدريسي كما نلاحظ من هذا النص قصيرة جدا ولا نكاد نحصل على نص يوازي تلك النصوص الطويلة التي قابلناها عند المقدسي وغيره من الناشرين . كما أن فواصل هذا النص قصيرة أيضا ولم يستقص الإدريسي فيه جميع صفات المدينة كما رأينا عند غيره .

كما اقتصر في وصفه هذا على المدينة فقط دون الإشارة إلى أهلها بشيء ، كما أن النص قد احتوى على المدح دون الذم .

أما من حيث التراكيب فلم يخرج عما سار عليه الناثرون من سبقه فالنص كما نرى بدأه بجمل إضافية " كثيرة الخيرات ، متصلة العمارات " وهذا ما نجده لدى غيره من وصفوا المدن والأقاليم ثم جاء بأسماء تفضيل " أقدم عهدا ، أكبر قطرا ، أكثر ناسا " وقد وجدنا هذا الإستعمال في النصوص التي أوردناها آنفا . . . ثم عاد إلى نفس الأسلوب الذي بدأ به النص " معتدل الهواء ، طيبة الثرى " .

وعلى الرغم من قصره إلا أن تقسيمه إلى فواصل متساوية وحده سجعته ، واختياره لبعض ألفاظ الوصف قد أضفى ذلك عليه لمسة جمال .

ثم يصف مدينة جده :

" وهي مدينة كبيرة عامرة ، تجاراتها كثيرة ، وأهلها مياسير ،
ذوو أموال واسعة ، وأحوال حسنة ، ومرايح ظاهرة . . .
وليس بعد مكة مدينة من مدائن الحجاز أكثر من أهلها
مالا ، ولا أحسن منهم حالا " (١)

وفي وصف الإدريسي لمدينة جده أيضا، يستخدم نفس الأساليب المتبعة لدى غيره من الكتاب، فيبدأ النص بصفات مفردة "كبيرة، عامرة" ثم بجمل إسمية "تجاراتها كثيرة، أهلها مياسير"، وأخيرا استخدم اسمى تفضيل (أكثر من أهلها مالا، أحسن منهم حالا).

وهو في هذا النص قد ذكر أهل المدينة كعادة الناثرين في نهايته "وليس بمد مكة مدينة من مدائن الحجاز، أكثر من أهلها مالا، ولا أحسن منهم حالا".

والنص كما لاحظنا قصير جدا وهي الطريقة التي اتبعها الإدريسي في وصف كثير من المدن والأقاليم.

ويصف مدينة مكة أيضا بنص أقصر من وصف صنعاء وجدة :

"ومدينة مكة قديمة أزلية البناء مشهورة الثناء، معصورة، مقصودة، من جميع الأرض الإسلامية". (١)

والواقع أن الإدريسي حاكى كثيرا من الناثرين عند وصف مكة المكرمة حيث اقتصر على إشارات طفيفة جدا، وقد يعود ذلك إلى انشغال أولئك الناثرين ومنهم الإدريسي بما في هذه المدينة المباركة من مشاعر مقدسة ومناسك يقومون بأدائها عند زيارتهم لها، فتبهرهم تلك المشاعر وتأخذ ألبابهم تلك المناسك، فلا يذكرون ما اشتطت عليه المدينة فيصفونه بأسلوب فني كما يفعلون عند مشاهدة المدن الأخرى.

(١) نزهة المشتاق ص ١٣٩.

وكذلك يصف مدينة الطائف :

" والطائف منازل ثقيف وهي مدينة صغيرة متحضرة ،
مياها عذبة ، وهواؤها معتدل ، وفواكهها كثيرة ،
وضياعها متصلة " (١)

ويستمر الإدريسي في إشاراتهِ المختصرة لهذه المدن ، وإن كان
قد التزم بتقسيم النص إلى جمل متساوية إسمية ، ذكر فيها عذوبة مياه هذه
المدينة ، واعتدال هوائها ، وكثرة فواكهها ، واتصال مزارعها ، بعضها ببعض ،
وهو بهذا الوصف قد جعل من مدينة الطائف ، حديثة جميلة واسعة
متعة ، رغم قصر النص الشديد .

ويصف مدينة سبيلته : (٢)

" كانت من أحسن البلاد منظرا ، وأكبرها قطرا ، وأكثرها
مياها ، وأعدلها هوا ، وأطيبها ثرى ، وكانت بها
بساتين وجنات " (٣)

في هذا النص على قصره ، تمكن الإدريسي من استخدام أسلوب واحد
فيه وهو أسلوب التفضيل ، فجميع جملهُ لا تخلو من اسم تفضيل ، كما استطاع
أن يجعل منها جملا متساوية ، ووجد نغمتها الموسيقية ، فأعطى النص جمالا

(١) نزهة المشتاق ص ١٤٤ .

(٢) سبيلته : مدينة من مدن افريقية وبينها وبين القيروان سبعون

ميلا ، معجم البلدان ، ج٣ ص ١٨٧ .

(٣) نزهة المشتاق ص ٢٨٣ .

فنيا على الرغم من قصره الشديد، وعدم استقصائه جميع صفات هذه المدينة ،
ولأن النص بهذه الدرجة من القصر ، فلم يُشر فيه لأهلها بمدح أو ذم .

ويصف بمد ذلك مدينة القيروان :

” ومدينة القيروان أم أمار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم
مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها أموالا ،
وأوسعها أحوالا ، وأتقنها بناء ، وأنفسها همما ،
وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها
ربحا ، وأجسهرهم عصيانا ، وأطفاهم أغمارا (١) ،
والغالب على فضلائهم التمسك بالخير ، والوفاء بالعهد ،
والتخلي عن الشبهات ، واجتناب المحارم ، والتفنن في
محاسن العلوم .. ” (٢)

وفي هذا النص يقتصر الشريف الإدريسي أيضا على أسلوبين ،
بدأ بالأسلوب الإضافي : ” أم أمار ، وقاعدة أقطار ” ثم أسلوب
التفضيل ” أعظم مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، ... ” ولم يكتر من
تلوين أساليبه كما لحظنا عند المقدسي ويختتم النص بوصف أهل هذه
المدينة كعادة كثير من الناثرين : ” والغالب على فضلائهم التمسك
بالخير ، والوفاء بالعهد ... ” وقد جاءت جميع جمل النص قصيرة
متساوية وحُد السجعة في كل جزء من أجزائه ، فكان لذلك التقسيم والإهتمام
باختيار الألفاظ قيمة فنية رفعت من مكانة النص .

(١) أغمارا : رجل غمر : لم يجرب الأمور ، بين الفمارة من قوم أغمار .

الصاح ، مادة : غمر .

(٢) نزهة المشتاق ، ص ٢٨٤ .

ويصف مدينة الإسكندرية :

" وهي مدينة على البحر المطح ، وبها آثار عجيبة ، ورسوم
قائمة ، تشهد لبانيها بالملك والقدرة ، وتعرب عن تمكن
ومصر ، وهي حصينة الأسوار ، نامية الأشجار ، جليلة المقدار ،
كثيرة العمارة ، رائجة التجارة ، شامخة البناء ، رائعة
المبنى ، شوارعها فساح ، وعقائد بنيانها صحاح ، وفرش
دورها بالرخام والمرمر ، وحنايا أبنيتها بالعمد الشمر ،
وأسواقها كثيرة الإتساع ، ومزارعها واسعة الإنتفاع ، . . .
وهي في ذاتها كثيرة الضياء ، متقنة الأشياء ، وفيها
العنارة التي ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا ، ولا أوثق
منها عقدا " (١)

ويصف مدينة الإسكندرية فيذكر موقعها وما فيها من آثار عظيمة
تبين عظمة بانيها الأول ، فيأتي بعدد من التراكيب الإضافية (مضاف ومضاف
إليه) .

" حصينة الأسوار ، نامية الأشجار . . . " ثم يأتي بعد ذلك
بجمل اسمية " شوارعها فساح ، وعقائد بنيانها صحاح " .
والذى نلاحظه في هذا النص ، عدم ذكره لأهل المدينة مع أنه
أطول من النص السابق ، كما أنه قد اقتصره على المدح ولم يأت بشيء من ذم
المدينة أو أهلها .

(١) نزهة المشتاق ، ص ٣١٩ .

وواضح من قراءة التزام الشريف الإدريسي فيه بالأسلوب الإضافي
والجمل الإسمية مع استخدام حروف الجر أحيانا، وهذا ما لاحظناه لدى من
سبقه من ناشرين " بها آثار عجيبة ، فيها الضارة التي ليس على قرار
الأرض مثلها ."

والفواصل كما نرى متقاربة الطول، وقد حاول المؤلف رحمه الله
توحيد سجع كثير من " أجزاء النص واستخدم ألفاظاً واضحة المعنى غير
متدلة .

وقد ينوع الأسلوب في بعض الجمل فيأتي بالخبر مضافاً بدلاً من
اسم مفرد : " أسواقها كثيرة الاتساع ، مزارعها واسعة الانتفاع ، " ويعد
هذا تابعا للأسلوب الذي جاء قبله وهو مكون من مبتدأ وخبر مفردين .

وينتقل إلى وصف مدينة الفسطاط :

" وهي الآن مدينة كبيرة ، على غاية من الصرامة والخصب .
والطيب والحسن ، فسيحة الطرقات ، متقنة البناءات ،
قائمة الأسواق ، نافقة التجارات ، متصلة العمارات ، نامية
الزراعات ، لأهلها هم سامية ، ونفوس تقية عالية ، وأموال
بسوطة نامية ، وأتعة رائعة ، لا تشتغل نفوسهم
بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم ، لكثرة أمنهم ، ورفاهة
عيشهم . وانبساط العدل والحماية فيهم . . .

ومصر بالجملة عامرة بالناس ، نافقة بضروب المطاعم
والمشارب ، وحسن البلايس ، وفي أهلها رفاة وظرف شامل
وحلاوة ، ولها في جميع جوانبها بساتين وجنات ، وشجر نخل
وقصب سكر . (١)

يبدأ وواضحا من خلال النص الذي بين أيدينا، تمسك الشريف الإدريسي بأساليبه المفضلة والتي عممها على كثير من نصوصه فبعد أن بدأ النص بذكر ما عليه الفسطاط من السعة، وحسن العمارة، وخصب الأرض وطيبها، استخدم الأسلوب الإضافي في وصف محتوياتها :

" فسيحة الطرقات، متقنة البناءات... " ثم جاء بعد ذلك بمجموعة من الجمل الاسمية المعطوفة على بعضها " لأهلها هم سامية، ونفوس تقية عالية... "

وقد حاول توحيد السجعة في بعض الأجزاء، إلا أنه في الأجزاء الأخرى اكتفى بتقسيم الفواصل تقسيما متقاربا، وأحسن اختيار كثير من ألفاظ النص، كما أنه أشار إلى أهلها في منتصف النص " لأهلها هم سامية، ونفوس تقية عالية... " واقتصر على مدحها ولم يذمها بشيء. ويعد هذا النص من حيث الإستقصاء أفضل مما مر بنا من نصوص كانت شديدة القصر والاختصار، بينما نلاحظ هنا ذكر النادر لكثير من صفات هذه المدينة.

ويذكر مدينة مالقة (١) :

" مدينة حسنة عامرة أهلة، كثيرة الديار، متسعة الأقطار، بهية كاملة سنية، أسواقها عامرة، ومتاجرها دائرة، ونعمها كثيرة " (٢).

(١) مالقة : بفتح اللام والقاف مدينة بالأندلس عامرة من أعمال مريه

سورها على شاطيء البحر بين الجزيرة الخضراء والمريه . معجم

البلدان ، جه ص ٤٣ .

(٢) نزهة المشتاق ص ٥٦٥ .

وفي هذا النص استخدم الإدريسي عددًا من الصفات المفردة :
" حسنة ، عامرة ، آهلة ، ثم " بهية ، كاملة ، سنية " . ومجموعة من
التركيب الإضافية " كثيرة الديار ، متسعة الأقطار " ثم عددًا من الجمل
الإسمية " أسواقها عامرة ، ومتاجرها دائرة ، ونعمها كثيرة " .

وهذه الاستخدامات الثلاثة سوف نقابلها كثيرا في نصوص الإدريسي
وسبق لنا أن رأيناها في نصوص للمقدسي أيضا .

والنص على الرغم من قصره الشديد إلا أن تقسيماته المتساوية وتوحيد
سجعة فواصله ، وحسن ألفاظه وعباراته ، قد أعطته لمسة فنية متمعة .

ويفصف مدينة طليطلة : (١)

" وهي مدينة كبيرة ، وقلعتها أكبر القلاع حصنا ،
مدينتها أشرف البلاد حسنا ، وهوبلد واسع الساحسة ،
شريف المنافع ، وبه أسواق جميلة الترتيب ، وديار حسنة
التركيب ، ولها على نهر تاجه أرجاء كثيرة ، ولها
عمل واسع المجال ، وإقليم شريف الحال ، ومزارعها زاكية
وجهاتها حسنة مرضية ، أزلية العمارة ، قديمة الآثار . " (٢)

وفي هذا النص ثلث استخدام الإدريسي في استخدام أسلوبين
من أساليب الوصف الفني للمدن والأقاليم ، الأول أسلوب التفضيل " أكبر

(١) طليطلة : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء

على نهر تاجه . معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) نزهة المشتاق ، ص ٥٥١ .

القلع حصنا ، أشرف البلاد حسنا .”

والثاني؛ استخدم فيه جملاً إسمية خبرها اسم مرفوع مفرد، وهو مضاف والإستعمالان لا يختلفان كثيراً فتركيب الجملة فيهما واحد والفرق هو أن الخبر في الأولى اسم تفضيل وفي الثانية ليس كذلك .

والنص على الرغم من تقسيم فواصله تقسيماً متساوياً ، فإنه لم يلتزم فيه سجعاً واحدة ، لذلك فإن جمال النص قد نتج عن تلك التقسيمات الموسيقية الواضحة . كما أن الناثر قد اختار له ألفاظاً حسنة .

وكذلك مدينة طليطلة : (١)

” وهي مدينة عظيمة القطر ، كثيرة البشر ، حصينة الذات ،
لها أسوار حسنة ، ولها قبة فيها حصانة وسعة ، وهي
أزلية من بناء العمالقة ، وقليلاً ما روى مثلها إتقاناً
وشماخة بنيان ، وهي عالية الذرى ، حسنة البقعة ، زاهية
الرقعة ، وللمدينة طليطلة بساتين محدقة بها ،
وأنهاراً مخترة ، ودواليب (٢) دائرة ، وجنات يانعة ،
وفواكه عديمة السال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ،
ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، وقلع منيعنة
تكتنفها .” (٣)

- (١) طليطلة : مدينة كبيرة بالاندلس وقد ذكر قوم أنها مدينة قيانوس
صاحب اهل الكهف . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
- (٢) الدواب : واحد الدواليب . فارسي معرب ، وفي هامش الصفحة
هو على شكل الناعورة يستقى به الماء . الصحاح ، مادة : دلب .
- (٣) نزهة المشتاق ص ٥٥٢ .

وفي هذا النص نلاحظ أيضاً التقسيمات الموسيقية المتساوية القصيرة،
والمكونة في أغلبها من مضاف ومضاف إليه، وأحياناً مبتدأ وخبر مفردين، وقد
تمكن الناثر من أن يضيف إلى ذلك حسن الألفاظ ووضوح دالاتها مما جعل
النص يظهر أكثر جمالاً وأتقن صياغة.

وعلى الرغم من أنه لم يتناول فيه أهل المدينة، ولم يُشر إليهم
كعادة الناثرين، وكذلك لم يستقص جميع صفات المدينة، فإنه قد تحدث عن
سعتها وإحاطة الأسوار بها، وقدم بنيانها وإتقانه، وعن علو جبالها، وحسن
موقعها، وإحداق الأنهار والبساتين بها، وكثرة الجنات المحيطة بها،
والفواكه التي لا يوجد لها نظير.

ويصف مدينة قرطبة :

" ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس، وأمّ مدنها، ودار
الخلافة الإسلامية، وفضائل أهل قرطبة أشهر من أن تُذكر،
ومناقبها أظهر من أن تُستر، وإليهم الإنتهاء في السناء
والبهاء، بل هم أعلام البلاد، وأعيان العباد، ذكروا
بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي في
الملايس والمراكب، وعلو الهبة في المجالس والمراتب،
وجميل التخصيص في المطاعم والمشارب، مع جميل الخلائق،
وحמיד الطرائق، ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء،
وسادات الفضلاء، وتجارها مياسير، لهم أموال كثيرة،
وأحوال واسعة، ولهم مراكب سنوية، وهم عليه" (١)

وفي وصف مدينة قرطبة ، يحاول الإدريسي أن يضع لها مكانة خاصة ، ليست بين مدن الأندلس فحسب ، بل على مستوى الخلافة الإسلامية ، وأسرع إلى ذكر فضائل أهل هذه المدينة ، فعلى الرغم من أن بعض الناشرين قد جعل ذكر أهل المدينة التي يقوم بوصفها في نهاية النص ، إلا أن هناك من لم يتقيد بهذا النهج فيقدم في نص ، ويؤخر في آخره ، وهنا نلاحظ تقدم وصف أهل قرطبة في نص الإدريسي ، بل إن وصفهم قد طغى على النص كاملاً ، ولم يفرد لوصف المدينة إلا ثلاث جمل في البداية وفي وصفه لهم التزم الإدريسي نفس الأسلوب الذي يصف به المدن مع طول بعض الفواصل وعدم توحيد السجعة في جميعها . أما التقسيمات الموسيقية فهي واضحة بالإضافة إلى توحيد السجعة في بعض الفواصل .

وكما هو واضح في النص ، وعلى الرغم من مكانة هذه المدينة فإن ظاهرة الإستقصاء التي قابلناها في نصوص المقدسي تكاد تكون معدومة هنا تماماً فالوصف عام وليس فيه تتبع كل ما يميز المدينة عن غيرها في كل شيء .^٤

ويهتم بوصف جزيرة صقلية اهتماماً كبيراً فيقول عنها :

” إن صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن ، وقد يمدحها المتجولون من سائر الأقطار ، والمترددون بين المدن والأمصار ، وكلهم أجمعوا على تفضيلها ، وشرف مقدارها ، وأعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعت من مفترق المحاسن ، وضمت من خيرات سائر المواطن ، ودول ملوكها

أشرف الدول ، ووصلتهم على من ناوأهم أشد الصول ، فملوكها
أعظم الملوك قدراً ، وأكبرهم خطراً ، وأرفعهم همة ، وأشخصهم
قدراً ورتبة . . . فأما جزيرة صقلية المتقدم
ذكرها فأقذارها خطيرة ، وأعمالها كبيرة ، ولادها كثيرة ،
ومحاسنها جمة ، ومناقبها ضخمة ، فإن نحن حاولنا
إحصاء فضائلها عدداً ، وذكرنا أحوالها بلداً بلداً ، عز في
ذلك المطلب ، وضايق فيه المسلك ، . . . والمياه بجميع
جهات مدينة صقلية مخترة ، وعيونها جارية متدفقة ،
وفواكها كثيرة ، ومبانيها ومنتزهاتها حسنة ، تعجز
الواصفين وتبهر عقول العارفين ، وهي بالجملة فتنة
للناظرين . (١)

ومع أن الإدريسي قد أكد أن جزيرة صقلية هي فريدة الزمان
في الفضل والمحاسن ، وأنها وحيدة البلدان في طيبها وساكنها ، إلا أنه
يخشى إتهامه بالمجاملة في ذلك فيستشهد بما جاء عن تجول بهما ،
وتردد بين جميع المدن والأمصارع من إجماعهم على تفضيلها ، وشرف مقاديرها ،
ومدى إعجابهم بحسنها ، وفضائلها وخيراتها .

ويذكر ملوكها فيعلم من شأنهم ، ويرفع من مكانتهم ، ويبالغ في
وصفهم ، وبعد ذلك يعود ليستكمل فضائل الجزيرة فيوضح أهميتها ، وكثرة
نواحيها ، ومحاسنها ومناقبها ، ويبين عجزه عن إحصاء فضائلها وأحوالها .
ومع ذلك فهو يصف مياهها وعيونها وفواكها ومبانيها ، ومنتزهاتها ويخرج
من كل ذلك إلى أنها فتنة للناظرين .

وإذا أمعنا النظر في النص وجدنا الإدريسي قد بذل جهداً لا يستهان به في اختيار الألفاظ وتنسيق العبارات، وتقسيم الفواصل، وتوحيد السجعة في أجزاء النص .

وعلى الرغم من عدم استقصاء جميع الصفات إلا أنه قد أشار إليها بصفة إجمالية ، تبين قدرته وسعة أفقه . وخاصة في هذا النص الذي يمد من أطول النصوص عند الإدريسي .

(١)

ويصف مدينة بلرم عاصمة جزيرة صقلية :

" وهي المدينة السنية العظمى ، والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعظم الأعلى ، على بلاد الدنيا ، وإليها فسي الفاخر النهاية القصوى ، ذات المحاسن الشرائف ، ودار الملك في الزمن الموء تنف والسالف " (٢)

وعلى الرغم من قصر هذا النص إلا أنه يدل على المكانة التي تحتلها هذه المدينة في نفس الإدريسي ، فهي المدينة السنية العظمى ، والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعظم . . . وهذه صفات كلها تبلغ بالموصوف درجة كبيرة ، فمن خلال الألفاظ " العظمى ، الكبرى ، القصوى " نتبين ماذا يريد الإدريسي لهذه المدينة من علو ورفعة .

(١) بلرم : هي أعظم مدينة في جزيرة صقلية . . على شاطئ البحر .

معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٣ .

(٢) نزهة المشتاق ص ٥٩٩ .

وليس ذلك غريباً فهي العاصمة التي عاش فيها أهنأ حياة
إلى جوار الملك رجار (١) الذي ألف له كتابه المشهور نزهة المشتاق
وإزاء ذلك لا بد أن يخصها بأجمل عبارات المدح والثناء اعترافاً
بالجميل ورداً للمعروف .

بشيرة :

" وبشيرة قلعة منيعة الحصن ، رفيعة القدر سنية الذكر
أحسن البلاد يادية وحاضرة ، وأشبه شي بالعدن الكبيرة
العامرة ، حسنة البنيان ، مشيدة الأركان ، ديارها
رائعة عجيبة ، وأسواقها مرتبة رحيبة ، وبها ساجد
للجماعات ، وحمام وخانات ، ويدور بها واد مسن
أعظم الأودية ، محدقة به الجنات من جميع الجهات (٢) .

والإدريسي إذا كان قد خص جزيرة صقلية وعاصمتها بأسلوب
مميز ، لم يكثر منه في بقية النصوص ، فإنه يعود في وصفه لهذه المدينة السى
استخدام أسلوب مألوف تكثر فيه الجمل التي تحتوى على المضاف والمضاف
إليه " منيعة الحصن ، رفيعة القدر ، سنية الذكر . . الخ " وكذلك الجمل
الإسمية " ديارها رائعة عجيبة ، أسواقها مرتبة رحيبة " مع زيادة صفة
أخرى (عجيبة ، رحيبة) .

(١) رجار ملك الفرنج صاحب صقلية . هلك بالخوانيق سنة ٥٤٨ هـ . . .

كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . الوافي بالوفيات ج ١٤ ،

ص ١٠٥ .

(٢) نزهة المشتاق ص ٦٠٠ .

أما الجمل فإن بعضها قصيرة والبعض الآخر تميل إلى الطول " رفيعة
القدر ، أحسن البلاد بادية وحاضرة " ولم يلتزم الناثر هنا بسجعة واحدة
في جميع فواصل النص بل استخدم أكثر من سجعة . ومع ذلك فالنص يبدو
جميلاً بتقسيماته الموسيقية الممتعة .

مدينة ما زَر (١) :

" وما زَرُ مدينةٌ فاضلةٌ ، شامخةٌ كاملةٌ ، لا شبه لها ولا مثال ،
في شرف المحل والحال ، إليها للانتهاج في جمال الهيئة
والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التي لم تجتمع في
غيرها من المواطن ، وهي ذات أسوار حصينة شاهقة ،
وديار حسنة فائقة ، بها أزقة واسعة وشوارع ، وأسواق
عامرة بالتجارات والصنائع ، وحمامات فاضلات ، وخانات
واسعات ، ومساتين وجنات طيبات المزروعات ، يسافر
إليها من جميع الآفاق . ويتجهز منها بوافرات الأسواق " .
(٢)

وفي هذا النص بدأ الإدريسي بالصفات المفردة التي لا ترتبط
بجمل (شامخة ، كاملة) ثم قام بتقسيم الفواصل الكبيرة تقسيماً داخلياً
بحيث خفف من طولها " لا شبه لها ولا مثال ، في شرف المحل والحال "
فالسجعة في كلمتي " مثال ، الحال " موحدة مع أن الكلام مستمر من حيث

(١) ما زَر بتقديم الزاى : مدينة بصقلية . معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠ .

(٢) نزهة المشتاق ص ٦٠١ .

المعنى الكلي حتى كلمة "الحال" وكذلك في "إليها الإنتهاء" ، في جمال الهيئة والبناء " فكلمة الانتها" تمثل سجمة داخلية ، وكذلك في " وما اجتمع فيها من المحاسن ، التي لم تجتمع في غيرها من المواطن " . ثم يأتي بعد ذلك بفواصل أقل طولاً وليس فيها تقسيمات داخلية " ذات أسوار حصينة شاهقة " ، " وديار حسنة فائقة . . " ، ونلاحظ في الجمل الأخيرة توحيد السجمة أحيانا .

والنص ليس فيه وصف خاص بأهل المدينة كما أنه لم يستقص جميع

أوصاف المدينة نفسها وهذه طبيعة أكثر النصوص لدى الإدريسي .

٣ - الوهراني ومقاماته :

وهو : " أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب
ركن الدين ، وقيل جمال الدين ، أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم من بلاده
إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين ، رحمه الله . . . فلما
دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل ، وعماد الدين الإصبهاني الكاتب ،
وتلك الحلبه ، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفق سلعته مع
وجودهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ، وعمل المقامات والرسائل
المشهوره به والمنسوبة إليه . . . وفيها دلالة على خفة روحه ورقسه
حاشيته وكمال ظرفه . . . ثم إنه انتقل في البلاد وأقام بدمشق زمانا . . .
وتوفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة بداريا رحمه الله تعالى . " (١)

وكتاب مقامات الوهراني ومقاماته ورسائله مجلد واحد مطبوع
جمع فيه مُحققاه (٢) النصوص الأدبية التي وجدت للوهراني في المقامات
والمقامات والرسائل ، وقد أشار مراجع التحقيق إلى الصعوبات التي واجهها
المحققان عند تحقيقهما لتلك النصوص . (٣)

(١) وفيات الأعيان ج٤ ص ٣٨٥ .

(٢) إبراهيم شعلان ، محمد نفش ، وراجع الدكتور عبد العزيز
الأهواني .

(٣) جاء ذلك في التصدير الذي كتبه مراجع التحقيق د . عبد
العزیز الأهواني ص ٥٥ من الكتاب .

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من المقامات والرسائل
إلا أننا لم نجد بغيرنا إلا في مقامة واحدة، وصف خلالها مدينة بغداد
بعبارة فنية، يمكن اختيارها ضمن النصوص الفنية في وصف المدن
والأقاليم، مع العلم أنها تعثل قطعة قصيرة، لا تزيد على بضعة أسطر.

وصف مدينة بغداد للوهرائي :

" لما تعذرت مآربي ، واضطربت مغاربي ، ألقيت حبلي
على غاربي ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي ومن أخلاف
الأدب رضاعتي ، فما مررت بأمر إلا حللت ساحتسه
واستمطرت راحته ، ولا بوزير إلا قرعت بابه وطلبت ثوابه ،
ولا بقاض إلا أخذت سيبه ^(١) وأفرغت جيبه ، فتقلبت
بي الأعمار ، وتقاذفت بي الأعمار ، حتى قربت مسن
العراق ، وقد سئمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام ،
لا قضي حجة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضر ،
ومكابدة العيش المرء فلما قرَّبها قراري ، وانجلي فيها
سِراري ، طفت بها طواف المفتقد ، وتأمطتها تأمل المنتقد ،
فرأيت بحرا لا يعبر زاخره ، ولا يبصر آخره ، وجنة أبدع
غارسها ، وفاز باللذة حارسها ، لا يضل عنها المتقون
ولا يرتقي إلى صفتها المرتقون كمثل الجنة التي وعد
المتقون ^(٢) # ^(٣)

(١) السيب : العطاء . الصحاح ، مادة : سيب .

(٢) آية ١٥ من سورة محمد .

(٣) مقامات الوهرائي ومقاماته ورسائله - دار الكاتب العربي - مصر سنة

وبنفس الطريقة التي صيغت بها مقامات الحريري، تأتي مقامة الوهراني،
غير أن درجة الاستقصاء والشمول التي وجدناها عند الحريري، لم نجدها عند
الوهراني، فالنص كما نرى مقتضب، وصفات مدينة السلام فيه لا تكاد تزيد
على ست جمل، كان مسك ختامها الآية الكريمة * مثل الجنة التي وعد
المتقون *

وعلى الرغم من قصر النص إلا أنه قد اشتمل على بعض الصور الفنية،
" فرأيت بحرا لا يعبر زاخره، وجنة أبدع غارسها " وتقسيمات الفواصل
واضحة وُحد سبعة كل جملتين معا واختار الفاظا سلسلة واضحة الدلالة
واقتبس الآية الكريمة في نهاية النص فكانت على نفس الفاصلة ودليلا على
تأثير وصف القرآن الكريم للجنة على الناشرين الذين صفوا المدن فسي
القرون التالية للقرن الأول الهجري .

٤ - ابن جبیر ورحلته :

وهو : " العلامة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر بن محمد ابن جبیر الكناني ، البلسي ، ثم الشاطبي ، الكاتب البليغ ولد سنة أربعين (١) وسمع من أبيه الإمام الرئيس أبي جعفر ، وأبي عبدالله الأصيلي ، وأبي الحسين علي بن أبي العيش المقرئ ، صاحب أبي داود ، وحمل عنه القراءات ولله إجازة أبي الوليد بن الدباغ ، ومحمد بن عبدالله التميمي . نزل غرناطة مدة ، ثم حج وروى بالثغر وبالقدس .

قال الأثير : عُني بالآداب فبلغ فيها الفاية وبرع في النظم والنثر ، ودون شعره ، ونال دنيا عريضة ، وتقدم ثم زهد .

له ثلاث رحلات إلى المشرق . مات بالإسكندرية في شعبان سنة ٦١٤ هـ (٢) وكتابه المسمى رحلة ابن جبیر قد أُطلق عليه عند كتابته اسم : " تذكرة بالإخبار ، عن اتفاقات الأسفار " وضمنه أخبار رحلته التي قام بها سنة ٥٧٨ هـ إلى الحجاز وقد بدأها في شهر شوال من العسام المذكور ووصل إلى مكة المكرمة في شهر ربيع الآخر ، كما جاء في وصفه لهذه الرحلة ، وقد مكث فيها إلى شهر ذي الحجة حيث أدى مناسك الحج وبعد ذلك توجه إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ثم منها إلى العراق ، زار فيها مدينة الكوفة ، وبغداد والموصل ، ثم اتجه إلى

(١) لعنه يقصد سنة ٥٤ هـ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ص ٤٥ - ٤٦ . وله في الواقع أكثر من هذه الرحلات .

الشام ومنها إلى جزيرة صقلية ومنها إلى منزله بفرناتة وكان ذلك سنة إحدى وثمانين ، بعد أن استغرقت رحلته حوالي ثلاث سنوات ، وصف خلالها كثيراً من المدن ، والبقاع ، والمشاهد التي مر بها منذ خروجه من فرناتة حتى عودته إليها . (١)

وابن جبير في وصفه لهذه الرحلة ، ينقل القارئ إلى تلك المشاهد ، وكأنه عاش معه الرحلة نفسها ، بأسلوب شيق جذاب ، يكثر خلاله من ذكر الله عز وجل ، والتضرع إليه عند كل موقف .

وأول نص فني في رحلة ابن جبير ما وصف به نجد :

" . . . وما أرى أن في المعمور أرضاً أفسح بسيطاً ، ولا أوسع أنفاً ، ولا أطيب نسيماً ، ولا أصح هواءً ، ولا أمد استواءً . ولا أصفى جواً ، ولا أنقى تربةً ، ولا أنصش للنفوس والأبدان ، ولا أحسن اعتدالاً في كل الأزمان من أرض نجد ، ووصف محاسنها يطول ، والقول فيها يتسع . " (٢)

يبدأ ابن جبير بهذا النص الذي وصف به نجد عند مروره

بها وهو في طريقه من مكة إلى العراق .

(١) أنظر : رحلة ابن جبير ، ط . دار مصر للطباعة ، بدون تاريخ ،

تحقيق د . حسين نصار ، ص ١ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٩٠ .

وعلى الرغم من قصر هذا النص إلا أنه يمثل قطعة نثرية فنية تدل على مدى اهتمام ابن جبير بهذا اللون من النثر، وقدرته الفنية العالية على إنشائه.

ورحلته المشهورة، مليئةً بأمثال هذا النص، في وصف المدن التي شاهدها وأوصافه هذه كما نلاحظها لا تهتم كثيرا بالنواحي المختلفة كالناحية التاريخية والاجتماعية وغيرها ولكنها تنصب على الناحية الجغرافية مع اهتمام كبير بالجوانب الفنية، فحسن اختيار الألفاظ والقدرة على صياغتها بطريقة فنية، وقصر الفواصل، ووضوح التقسيمات الموسيقية، كل هذه المميزات تبرز من خلال النص الذي بين أيدينا.

وابن جبير في هذه البداية الطيبة لم يكن صاحب أسلوب نثرى مبتكر، ولكنه حذا حذو الناثرين ممن سبقه فاستفاد من أصحاب البدايات الأولى وعلى رأسهم الجاحظ.

ونظرة دقيقة إلى هذا النص تبين لنا مدى التأثير الواضح باستخدام الجاحظ لأسماء التفضيل في وصف المدن. فالجاحظ عندما وصف أحد المواضع في البصرة في نص سبق لنا عند الحديث عن الجاحظ قال فيه: " يذكر الناس أنهم لم يروا قط هواءً أعدل ولا نسيما أرق، ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع " ونحن لا نكاد نرى فرقا كبيرا بين ما وصف به الجاحظ هذا الموضع، وبين ما وصف به ابن جبير نجد في النص الذي بين أيدينا، وبخاصة من حيث التراكيب وقد أفرد ابن جبير هذا النص لوصف نجد ولم يتعرض لأهلها لأنه وصفها كجهة كبيرة ولم يخص مدينة منها بعينها.

ويصف مدينة السلام بغداد :

" هذه المدينة العتيقة ، وإن لم تنزل حضرة الخليفة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها ، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النواصب إليها ، كالظلل الدارس ، والأشهر الطامس ، أو تثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعي من المستوفز (١) العقلية والنظر ، إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبنتين ، فهي تردّها ولا تظماً ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ ، والحسن الحريمي بيسن هوائها ومائها ينشأ ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة ، ففتن الهوى إلا أن يعصم الله منها مخوفة .

وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياءً ، ويذهب بنفسه عجا وكبرياءً ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإسياء ، ويستصغرون عن سواهم الأحاديث والأنباء ، قد تصور

(١) المستوفز : الوفر والوفر : العجلة ، والجمع أوفاز . الصحاح ،

مادة : وفر .

(٢) لبنتين : اللبة : المنحر والجمع اللبات . الصحاح ، مادة : لب .

كل منهم في معتقده وخلده، أن الوجود كله يفسر
بالإضافة لبلده، فهم لا يستكروم في معمور البسيطة
شوى غير شواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو
عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا وطرا، ولا
يغيرون في ذات الله منكرا، يظنون أن أسنى الفخار فسي
سحب الأزار، ولا يعلمون أن فضله يحقتضى الحديث المأثور
في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم
من يحسن لله قرضا.

فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يدي
مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها
بالورع المفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها
إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون
في ذلك بعيب، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب.
فالقريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد
من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة
انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه الخلقة القبيحة
على شرط اصطلاح بينهم واتفاق، فسوء معاشره أبنائها
يغلب على طبع هوائها ومائها، ويعلل حسن المسموع
من أحاديثها وأنبائها، أستغفر الله إلا فقهاء هم
المحدثين، ووعاظهم المذكرين، لا جرم أن لهم في
طريقة الوعظ والتذكير، ومداومة التنبيه والتصبير،
والثابرة على الإنذار المخوف والتحذير، مقامات تستنزل
لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم،

(١)
ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع المقارعة
الصماء أن تحلّ بديارهم ، لكنهم معهم يضربون
في حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد ، فلا يكاد
يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموفق
فيهم لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها ، لهم في ذلك
طريقة مباركة ملتزمة . (٢)

يعد هذا النص أطول نص في وصف ابن جبير للمدن والأقاليم بل
أطول نص في وصف مدينة بغداد ، عند جميع الناشرين . ومع ذلك فإن
ابن جبير قد بين فيه على الرغم من طوله - الحالة السيئة التي وصلت
إليها هذه المدينة الهامة التي بهرت كثيرا من الشعراء والكتاب فخصوها
بأجمل عبارات التمجيد والثناء عبر تاريخها الطويل وسبق لنا عرض كثير
من أوصاف الناشرين لها في بحثنا هذا . غير أن ابن جبير يحدثنا
عنها في الفترة التي شاهدها فيها والتي لم يسبق منها إلا اسمها على
الرغم من استمرار الدعوة للخلافة العباسية فيها . فهي كما يراها كالظلم
الدارس ، والأثر الطامس ، وأتمثال الخيال الشاخص ، وأن الحسن قد فارقها
إلا ما كان من النظر إلى دجلتها فلا زال كما كان عليه . وبعد أن بين
أسفه وحسرتة بسبب ما صارت إليه هذه المدينة التاريخية العريقة ، يذم
أهلها ، ويستطرد في ذلك إلى حد يبلغ فيه ذمهم أكثر مما وصف به
المدينة نفسها ، كما هو واضح من النص ويستثنى من أهلها فقهاء هم

(١) المقارعة الصماء : القارعة الشديدة من شدائد الدهر ، وهي
الداهية . الصحاح مادة قرع ، والصماء : الداهية . الصحاح ،
مادة صم .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

المحدثين، ووعاظهم المذكورين، فهو يشيد بما يقومون به من تذكير وتنبيه وتحذير، كان سببا في نزول الرحمة عليهم، وتخفيف ذنوبهم ومع ذلك فإنهم لم يستفيدوا من هذا التذكير الفائدة التي يجب .

والنص كما نلاحظ، قد احتوى على كثير من التشبيهات البلاغية الجميلة، بالإضافة إلى تقسيمات الفواصل، وتوحيد السجعة في كثير منها، واختيار الألفاظ الحسنة الواضحة، والصياغة الفنية المتمعة، ما جعله يحتل مكانة مرموقة بين النصوص التي عرضها لابن جبير بل ولغيره من الناثرين .

ويصف مدينة تكريت :

" هي مدينة كبيرة، واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، حافلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقا وقسطا في الموازين من أهل بفسداد " (١)

ويمود إلى النصوص القصيرة التي يكتفى فيها بذكر أهم ما تتميز به المدينة، مقسما النص إلى فواصل قصيرة، يبرز من خلالها جمال فني . وعلى الرغم من قصر هذا النص الشديد إلا أن ابن جبير قد أشار في نهايته - كعادة الناثرين - إلى أهل هذه المدينة بحسن أخلاقهم، والتزامهم الصدق في الموازين، على عكس أهل بفسداد الذين ذمهم كثيرا في النص الذي سبق عرضه . وخاصة في معاملتهم للغرباء ونقصهم في الموازين .

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١٩ .

ثم يصف مدينة الموصل :

" هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة ، قد طالت
صحبتهما للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث
الفتن ، قد كانت أبراجها تلتقي انتظاما القرب مسافة
بعضها من بعض ، . . . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة
قد رص بناؤها رصا ، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد
البروج . " (١)

سبق أن أشرنا إلى أن كثيرا من النصوص قد بدأت بصفات مفردة
مجردة وابن جبير في هذا النص يبدأ بنفس الأسلوب " هذه المدينة
عتيقة ، ضخمة ، حصينة ، فخمة " ثم أتبع ذلك بوصف المدينة بجملة
تامة كالعادة .

ويعد هذا النص من النصوص التي لم يستقص فيها الناثر جميع
صفات المدينة بما في ذلك أهلها ومحتوياتها وغير ذلك ما يذكره الناثرون
عند كثير من المدن .

ويصف مدينة نصيبين :

" شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها
هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ،
يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد أجرى الله

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ .

فيه مذائب من الماء تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال ، بساتين ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافته ، وتفي ظلها الوارفة عليه ، . . . فخارجها رياضي الشماثل ، أندلسي الخماثل ، يرفغضارة ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية (١) باد عليه ، فلا مطمح للبصر إليه ، لا تجد العين فيه فسحة مجال ، ولا فسحة جمال . (٢)

على الرغم من تأكيد ابن جبير على قدم هذه المدينة إلا أنه يستثنى ظاهرها من تسميه ، فيبين أنه لا يزال شباباء ، ويفصل ذلك فيذكر امتداد الحدائق الفناء أمامها وخلفها ، وجريان المياه في نواحي تلك الحدائق ، ويضيف أن الحدائق التي تلتف فيها الأشجار ، وتمتلي بها الثمار ، وتجرى بين يديها الأنهار ، ليست أمامها وخلفها فحسب بل إنها تحف بها من اليمين والشمال .

وهذا ما جعل ظاهرها يتفوق حسنا وجمالا على ما بداخلها لضيقه وقدمه وعدم جمال منظره .

(١) شعث البادية : الشعث مصدر الأشعث وهو المغبر الرأس .

الصاح ، مادة : شعث .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٢٥ .

والنص مع ما اشتمل عليه من صور بلاغية تتجلى في الإستعارات والتشبيهات الجميلة، فإن جماله يكمن أيضاً في تقسيمات القواصل وتوحيد السجعة في بعض أجزاءه، وحسن اختيار كثير من الألفاظ السلسمة، والعبارات العذبة، مما جعله يمثل قطعة فنية متمعة.

ويمف مدينة رأس العين :

" هذا الاسم لها من أصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات ، وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيوناً ، وأجرها ماءً معيناً ، فتقسمت مذائب (١) ، وانسابت جداول ، تنبسط في مروج خضر ، فكأنها سبائك اللجين ، ومدودة في بساط الزبرجد ، تحفّ بها أشجار ومساتين . قد انتظمت حافتيها ، إلى آخر انتهائها ، من عمارة بطحاءها " .

وفي هذا النص القصير حاول ابن جبير أن يربط بين اسم هذه المدينة ومسامها ، وعدّ تسميتها به صفة ملازمة لها حيث حقق الله لها ما وصفت به ، فججر أرضها عيوناً ، وأجرى المياه فيها حتى شقت لها جداول ، انسابت من خلالها بين تلك الخضرة فشكلت بذلك منظر أشبهه بسبائك اللجين الممتدة في بساط من الزبرجد .

(١) الذئب : مسيل ماء في الحضيض ، والحضيض القرار من الأرض

غير منقطع الجبل . الصحاح ، مادتي : ذئب ، وحضض .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

وإن كان ناشرنا الكبير قد حصر النص في هذه العلاقة بين
الإسم والمسمى، إلا أنه قد أجاد في ذلك بما ضمنه من لطف في الألفاظ
وجمال في العبارات ودقة في التشبيهات حتى تمكن من إخراج ذلك في
أجمل صورة وأعذب أسلوب .

وللجهد الذي بذله في سبيل هذا الإخراج فقد تناسى الجوانب
الأخرى في المدينة مكتفياً بتطابق الإسم مع المسمى وتأكيده بسرد الأدلة
عليه .

وعند ذكره لمدينة حران يقول عنها :

" بلد لا حسن لديه ، ولا ظل يتوسط برديه ، قد
أشتق من اسمه هواؤه ، فلا يألف البرد ماؤه ، ولا تزال
تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه ، ولا تجد فيه مقيلاً ،
ولا تتنفس منه إلا نفساً ثقيلاً ، قد نيف بالحرء ، ووضع
في وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعمرت أعطافه
من ملابس النضارة .

أستغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفاً وفضلاً ، أنه
البلدة العتيقة المنسوبة لابن إبراهيم ، صلى الله عليه
وسلم . . . بركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة
(١)
مقراً للصالحين المتزهدين ، وشابة للسائحين العبتلين ."

وبنفس الطريقة التي جمع فيها بين اسم مدينة رأس العيسن، وصفاتها الجميلة، جمع في هذا النص بين اسم مدينة حران، وصفاتها السيئة، فهي لا حسن لها، ولا ظل يتوسطها، ومن اسمها قد اشتق هواؤه، ها، أي أنه مثنى "حر"، ثم يستطرد في بيان آثار حرارة جوها، وأنه لا يجد الإنسان فيها مثيلاً، وأن النفس فيها ثقيل، ويعيد ذلك إلى أنها منبوذة في العراق، موضوعة في وسط الصحراء. وهي صفات كلها حسية، نتج عنها فقد المدينة لرونسق الحضارة، وتعريفها من ملا بس النضارة، وهي صفات معنوية. ويستدرك ابن جبير ويؤيد كد أنه على الرغم من حالة الهواء في هذه المدينة إلا أنه يكفيها شرفاً وفضلاً، نسبة أبينا إبراهيم عليه السلام إليها، واستقرار المالحين والمتزهدين فيها، وهذه المكانة الدينية أيضاً تعد صفة معنوية أضفاها عليها ابن جبير.

ونلاحظ أن ابن جبير قد قسم النص إلى فواصل، وحدّ سجمة كل فاصلتين على حده، ولذلك بدا هذا الذم من حيث التركيب جميلاً منسقاً.

ويصف مدينة منبج :

"بلدة فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق متد الفاية والانتها، جوها صقيل، ومجتلاها جميل، ونسيمها أرج النسر عليل، نهارها يندى ظلّه، وليلها كما قيل فيه : سحر كره، تحف بفرجها وشرقها باسنتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والماء يطرد فيها، ويتخلل نواحيها، وخصص الله داخلها بآبار معينه، شهد يسيرة العذوبة، سلسيلية المذاق، تكون في كل دار منها البئر والبثران. وأرضها أرض كريمة، تستنبط مياهها كلها.

وأسواقها وسككها فسيحة متسعة . . . وأهلها أهل فضل
وخير. سنن شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل
المذاهب المنحرفة ، والمعائد الفاسدة ، . . . فمعاملاتهم
صحيحة ، وأحوالهم مستقيمة : (١)

بدأ ابن جبير وصف هذه المدينة بالأسلوب الإضافي (فسيحة
الأرجاء ، صحيحة الهواء) وهو الأسلوب الذي مر بنا كثيرا في النصوص
السابقة عند من سبق العرض لهم من الناشرين . ثم جاء بجمل اسمية تطول
أحيانا وتقصر أخرى . وحد سجمة بعضها وترك البعض الآخر .
وقد ذكر خلال النص أوصاف المدينة وخاصة ما يتعلق منها بالهواء
والتفاف البساتين حولها ، وجريان المياه فيها ، ثم تطرق إلى أسواقها وسككها
وفي نهاية النص تحدث عن فضل أهلها ، وعقيدتهم وهذا السياق هو الذي
سار عليه أكثر الناشرين كما رأينا .

ثم يصف مدينة بزاعة :

" بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى ، تصفر عن المدن
وتكبر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفريسة ،
والتاجر الحضريه ، وفي أعلاها قلعة كبيرة حصينة . . .
ولهذه البلدة عين معينة ، يخرق ماؤها بسيط بطحاء
ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك برونقها الأنيق
حسن الحضارة : (٢)

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

وفي هذا النص بدأ ابن جبير أيضا، بذكر تربة هذه البلدة، وحجمها وسوقها وقلعتها، ثم ذكر العين التي يخترق ماؤها بساتينها، وما ينتج عن ذلك من جمال منظر، وحسن رونق . وعلى الرغم من قصر النص إلا أن الناثر قد قسم فواصله، ووحد سجمة بعضها، وتخير الألفاظ الجميلة المناسبة التي أعطت الوصف لسة من الجمال .

ويصف مدينة حلب :

"بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من التقديس أشير، فكم هاجت من كِفاح، وسلت عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتاع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأهدع كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تنزل، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواص والعوام، هذه منازلها وديارها، فأين سكانها قديما وعمارها؟ وتلك دار ملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ أجل، فني جميعهم، ولم يأن بعد فناؤها، أيا عجا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها، ويهلكون ولا يقضى هلاكها، تخطب بعمدهم فلا يتعذر ملاكها، وترام فيتيسر بأهون شيء إراكها. هذه حلب، كم أدخلت من ملوكها في خبر كان، ونسخت

ظرف الزمان بالمكان ، أنث اسمها فتحلت بزينة الفوان ،
ودانت بالفدرفين خان ، وتجلت عروسا بعد سيف
دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سيهرم
شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ،
وتتطرق جنيات الحوادث إليها ، حتى يرث الله الأرض ومن
عليها ، لا إله سواه ، سبحانه جلّت قدرته . (١)

رأينا في النصوص السابقة كيف وصف ابن جبير تلك المدن ، فاكتفى
بذكر هوائها وحدائقها وحجمها ، وتطرق في بعض النصوص إلى أهلها ،
غير أننا في هذا النص نجد ، ينتقل إلى الناحية التاريخية فيذكر صاضي مدينة
حلب ، في سلمها وحربها وكيف جذبت إليها الملوك ، وكيف هاجت عليهم ،
ووصف قلعتها وموقعها الفريد الذي جعلها صعبة النال .

ثم يعود فيتساءل في حسرة واستغراب : إذا كان هذه منازلها
فأين سكانها ومن قام ببنائها ؟ وأين أمراءها الحمدانيون وشعراؤها
الشهرون ؟ ثم يجيب نفسه بنفسه ، بأن الجميع قد فنى ولم يبق إلا موعده
فنائها .

ويستطرد في ذكر هذه الحقيقة ، ويتعجب من بقاء البلدان مع
ذهاب من يملكها ، وكيف يهلكون وتظل تلك البلدان قائمة لأن القضاء
لم يحكم بهلاكها ، ثم يتمجب من انصياح تلك البلدان بسهولة ويسر لمن
يريد أخذها ، بعد أن كانت صعبة النال ، في عهد ملاكها السابقين .

وأخيرا يستدل بمدينة حلب على هذه الظاهرة فيذكر ما كانت عليه وكيف انتهت ملوكها ومضى الدهر عليها وهي شامخة رغم ذلك كله . غير أنه يتأوه ويذكر سنة الله في هذا الكون وأنه لا بد من فناء كل شيء فينذرها بالهرم وانعدام الخطاب وأن الخراب سوف يسرع اليها لا محالة وسوف تحيط بها أحداث الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها إذ لا اله سواه ولا يبقى الا وجهه .

والواقع أن النص بالإضافة إلى ما فيه من تقسيم فني للفواصل ، وتوحيد السجعة في كثير من الأجزاء ، وحسن اختيار الألفاظ ، وتنسيق العبارات فإن الناثر قد ضمنه كثيرا من الاستعارات البلاغية ، والمواقف التاريخية ، وذكر فيه بالقدرة الإلهية العظيمة في تسيير أمور هذا الكون فكان نصا ممتعا يدل على قدرة مؤلفه ، وطول باعه في مختلف فروع العلم والمعرفة .

ويصف مدينة حماه :

" مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصلبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ، ولا راقية البناء ، أقطارها مضمومة ، وديارها مركومة ، لا يهش البصر إليها عند الإطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها ، فتجد حسنها كما نفا فيها ، حتى إذا جست خلالها ، ونقرت (٢) ظلالها ، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا ، تتسع في تدفقه أساليبه ، وتتناظر

(١) جست : الجوس مصدر قولك : جاسوا خلال الديار . أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الاخبار أي يطلبها . الصحاح ، مادة جوس .

(٢) نقرت : انتقر الشيء وتنقره ونقره ونقر عنه كل ذلك : بحث عنه . لسان العرب ، مادة : نقر .

بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرثيه ، بساتين تتهدل
أغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه ، ينسرب
في ظلالها ، وينساب على سمت (١) اعتدالها . (٢)

أما مدينة حماه فعلى الرغم من وصف ابن جبير لها بالشهيرة
والقدم فإنه يذمها بالضيق ، وعدم جمال البناء وأن الناظر إليها لا أول وهلة
لا يرتاح إليها ، غير أنه يستثنى من ذلك نهرها الكبير الذي تحيط بسسه
البساتين من كل جانب ، وتتدلى أغصان أشجارها عليه فتتحول عند ذلك
النظرة إليها من قبح إلى حسن .

والمواقع أن التقسيم الدقيق للفواصل ، واختيار الألفاظ الجميلة ، كل
ذلك قد جعل من النص قطعة فنية ، تدل على قدرة ابن جبير الأدبية
الكبيرة ، وتفاعله مع المشاهد الجذابة ، والمناظر الحسنة ، على الرغم من أنه لم
يستقص جميع صفاتها ، سواء في حالة الذم لها ، أو المدح لنهرها ، كما أنه لم
يذكر أهلها بشيء .

ثم يصف مدينة حمص :

" هي فسيحة المساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لمعين
مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بساط من الأرض
عريض مداه ، لا يخترقه النسيم بمسراه ، يكاد البصر يقف
دون مفتهاه ، أفيح أغبر ، لا ماء ولا شجر ، ولا ظل ولا ثمر ،

(١) السمت : الطريق . وسمت يسمت بالضم أى قصد . الصحاح ، مادة :

سمت .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٤٣ .

فهي تشتكى ظمأها ، وتستقي على البعد ماءها . . .

وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو
لمجاورتهم إياه . . . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها
الرطب ، ونسيمها الميمون ، تخفيفه وتجسيمه ، فكان الهسواء
النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه .

ويقبل هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية
غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها . . .

وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقية ،
مرصوص بناؤها بالحجارة الضم السود ، وأبوابها أبواب
حديد ، سامية الإشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الإطلال
والأناقة ، تكتنفها الأبراج الشيدة الحصينة .

وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خلقية
الأرجاء ، ملققة البناء ، لا إشراق لآفاقها ، ولا رونق
لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها .^(١)

وعلى الرغم من عدم التزام ابن جبير السياق المعهود في وصف
المدن الذي أخذ به كثير من الناشرين ، من ذكر وصف المدينة في بدايسة
النص ، وذكر أهلها ونسبها إن كان هناك ذم في نهاية النص إلا أن النص
قد بدا جميلا نتيجة تقسيماته الموسيقية الجذابة ، وتوحيد سجعته أجزاءه
المختلفة واختيار الألفاظ المناسبة لكل جزء .

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ .

وقد بدأه بأسلوب إضافي " فسيحة الساحة ، مستطيلة الساحة " ثم جاء بجمل أخرى في وصف المدينة ، ضمنها عددا من الاستعارات وعاد إلى استخدام الأسلوب الإضافي أثناء النص " سامية الإشراف ، هائلة المنظر " غير أنه كان يخرج على هذا الأسلوب في بعض الأجزاء كما لاحظنا .

ثم يصف مدينة دمشق :

" جنة الشرق ، ومطلع حسنه الموء نق الشرق ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التسي اجتليها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه - صلى الله عليهم - إلى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل ، وماء سلسيل ، تتساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيما العليل ، تتبرج لناظرها بمجتل صقيل ، وتناديهم : هلموا إلى معرس للحسن ومقيل ، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظما ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : " اركض برجلك هذا مفتسل بارد وشراب " قد أهدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لاحظته بجهاتها الأربع نضرت اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحانديها .

... جامعها من أشهر جوامع الإسلام حسنا ، واتقان بناء
وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة
في ذلك تغنى عن استفراق الوصف فيه . " (١)

أما دمشق فقد منحها ابن جبير قطعة فنية رائعة تعد من أجمل
النصوص الفنية في وصف المدن والأقاليم . حيث قام بتقسيم النص إلى
فواصل تدرج فيها من القصر إلى الطول وحسن اختيار الألفاظ فأجاد في
ذلك أيما إجادة ، ثم ضمن النص كثيرا من الصور البلاغية ، والاقتباسات
القرآنية واستخدم في بدايته الأسلوب الإضافي المعروف (جنة المشرق ،
مطلع حسنه ...) ثم جاء ببعض الجمل المشتتة على عدد من الاستعارات
والتشبيهات الجميلة واختتم النص بوصف جامعها بنفس الأسلوب أما أهلها
فلم يشر إليهم بشيء .

ويصف مدينة عكة :

... هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحط الجواري
المنشآت في البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة ، والشبهه
في عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ،
ولتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق ، سككها
وشوارعها تفض بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام ،
تستمر كغرا وطفيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة
قدرة ، ملوأة كلها رجسا وعذرة . " (٢)

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

وفي وصف ابن جبير لمدينه عكّه، بين مكانتها من مدن الإفرنج وموانئها، وشبهها بالقسطنطينية لعظمتها، ثم ذكر تجمع التجار من المسلمين والنصارى فيها، وازدهام سككها وشوارعها بالناس، وكأنه يوء كد أنها مدينة تجارية، ذات أهمية كبيرة، غير أنه يعود فيوضح مدى تأثيرها بالنصارى والنصرانية، وامتلائها بالصلبان والخنازير، وأنها قدرة ملوأة رجسا وعذرة .

وابن جبير هنا قد خلط بين المدح والذم، ولكنه لم يستقص جميع الصفات في الحالتين، كما أنه لم يذكر أهلها بشيء، وعلى الرغم من أن النص ليس طويلاً، إلا أنه قد قسه تقسيماً جميلاً، ففواصله متقاربة مع ميلها إلى الطول، وقافيتها موحدة عند كل فاصلتين، والفاظه مناسبة في المدح والذم، وأكثر التراكيب فيه إضافية - "قاعدة مدن الإفرنج، محط الجوارى، مجتمع السفن . . ." ثم جاء بعدد من الجمل الاسمية وأخيراً أتى بعدد من الجمل الفعلية كما هو ملحوظ في النص .

ويصف مدينة مسينة من جزيرة صقلية :

" هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواز البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بمبعدة الصلبان، تفص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعاً بساكنيها، ملوأة تننا ورجسا، موحشة لا توجد لغريب أنسا، أسواقها نافقة حافلة، وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كغيلة، لا تنزال بها ليك ونهارك في أمان، وان كنت غريب الوجه واليد واللسان . " (١)

وينفس الطريقة التي وصف بها ابن جبير مدينة عكة التي سبقت الإشارة إليها، يصف مدينة مسينة، والدينتان متشابهتان في ظروفهما، من حيث سيطرة النصارى عليهما، وأثر تلك السيطرة ويتضح من وصفه للمدينتين، أن المدن التي كانت تحت سيطرة الإفرنج في ذلك الوقت كانت تزدهر بالتجارة، ويكثر فيها الزحام، ويهتم أبناؤها بأموال الحياة الدنيوية، أكثر من اهتمامهم بالعلم والأخلاق، والجوانب الروحية الأخرى التي كانت تلقى اهتماما كبيرا في المدن الإسلامية التي مر بنا وصفها.

وإذا كانت هذه المدينة قد شابهت مدينة عكة في وصفها من حيث محتوياتها، فإن أسلوب النص أيضا يسير على نفس الوتيرة فالتراكيب الإضافية، والجمال الإسمية التي ليس فيها إضافة، والتقسيمات الموسيقية، وتوحيد السجعة في كل عدد من الجمل، واستخدام الألفاظ المناسبة في حالتها الدح والذم واضحة. ويتفق النمان في عدم وجود أي ذكر فيهما لأهل المدينتين، وعدم استقصائها جميع الصفات عند الدح والذم.

ثم يصف عاصمة صقلية :

" هي بهذه الجزائر أم الحضارة ، والجامعة بين الحسنين
غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ،
ومراد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ، مشرقة موقنة ،
تتطلع بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبساط كلها
بستان ، فسيحة السك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن
منظرها البار ، عجيبة الشأن ، قرطبية البنيان " . (١)

بعد أن ذم ابن جبير مدينة مسينة في جزيرة صقلية، يعود فيثنى على عاصمة هذه الجزيرة، ثناءً عاطراً، فهي أم الحضارة، والجامعة بين الفضاة والنضارة، ثم يوء كد أن جمالها ليس في ظاهرها فحسب ولكنها جميلة المخبر والمنظر، ثم يبين أناقته رغم قدمها وكيف ظهرت للرأي بمنظرها الفتان وكيف برزت تتخايل بين ساحات تحولت بفعل الخضرة وكثرة أشجارها، إلى بساط خضراء جميلة، تمثل حديقة واحدة، وأخيراً بين سعة سككها، وشوارعها، واجتذابها الأيصار بحسن منظرها الفتان، ويختتم وصفه لها بأنها عجيبة الشأن، وأن مانيها ليس لها شبيه إلا في قرطبة الأندلس.

والحقيقة أن القارىء لهذا النص يشعر حياً بمتعة فنية كبيرة على الرغم من قصره وعدم استقصائه لجميع محتويات المدينة لأن حسن اختيار الألفاظ وتقارب حروفها (حضارة، غضارة، نضارة، منظر، أخضر) ثم (عتيقة، انيقة، مشرقة، مورقة) و (فتان، بستان، شان، بنيان) وتقسيم الجمل تقسيماً موسيقياً مناسباً، فليست بالقصيرة ولا الطويلة ثم توحيد السجعة في كل جزء من النص على حده، وتوالي عدد من الصفات المجردة واستخدام الإستعارات البلاغية.

كل تلك المميزات قد جعلت النص يحتمل مكانة لا بأس بها بما

يضيفه على القارىء من جمال وروعة واضحين.

الفصل الرابع

النصوص الفنية في القرن
السابع الهجري

الفصل الرابع

النصوص الفنية في القرن السابع

١ - ياقوت الحموي وكتابه معجم البلدان :

وهو " أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الجنس والمولد الحموي المولى ، البغدادي الدار ، الطقب شهاب الدين ، أسر من بلاده صغيراً ، وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف بمسكرا بن أبي نصر إبراهيم الحموي ، وجعله في الكتاب لينتفع به في ضبط تجارته ، وكان موله عسكرياً يحسن الخط ، ولا يعلم شيئاً سوى التجارة ، وكان ساكناً ببغداد ، وتزوج بهنأ وأولد عدة أولاد ، ولما كبر ياقوت المذكور قرأ شيئاً من النحو واللغة ، وشغله موله بالأسفار في ساجره ، فكان يتردد إلى كيش وعمان ، وتلك النواحي ويعود إلى الشام . . .

ومن تصانيفه كتاب (معجم البلدان) وكتاب (معجم الشعراء) وكتاب (معجم الأدياء) وكتاب (المشترك وضعا المختلف صقعا) وهو من الكتب النافعة ، وكتاب (المبدأ والمآل) في التاريخ ، وكتاب (الدول) . . . وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف .

وكانت ولادة ياقوت المذكور في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسة مائة ببغداد الروم . . . وتوفي يوم الأحد العشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ، في الخان بظاهر مدينة حلب . . . رحمه الله تعالى (١) .

وكتابه معجم البلدان يعد من أهم الكتب في معرفة البلدان التزم فيه مؤلفه الترتيب الهجائي تيسيراً للقارئ ، والباحث .

(١) وفيات الأعيان - ج ٦ ص ١٢٧ - ١٢٩ .

وامتاز هذا المعجم بأسلوب سهل العبارة ، واضح الفكرة ، ليس فيه فرق كبير بين وصف العادي للمدن ووصفه الفني ، وقد بدأه بحقمة فيها براعة الاستهلال ، كمادة كثير من المؤلفين في ذلك العصر " الحمد لله الذى جعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وبث من ذلك نشوزا ووهادا وصحارى وبلادا ، ثم فجر خلال ذلك أنهارا ، وأسأل أودية وحرارا " . ثم أبان فيها موضوع الكتاب " فهذا كتاب في أسماء البلدان ، والجبال ، والأودية والقيعان ، والقرى والمحال والأوطان . . . " (١) وأوضح فيها أن الدافع لتأليفه هو قوله عز وجل ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . (٢)

كما أوضح في هذه المقدمة حاجة جميع الناس إلى هذا الكتاب ، وحمل فيها على من يقومون باختصار الكتب وكيف يبذرون ما جمع فيها ويستتتون ما لُصِّفَ ، ويفرقون ما التأم من محاسنها .
و " أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوى فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين ، أبتتر الرجلين ، أعى العينين . أصلم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلا ، أو كالذى سلب الكفى سلاحه فتركه اعزل راجلا " : (٣)

وقبل أن يصل إلى الغرض الذى من أجله ألف هذا المعجم قدمه بخمسة أبواب :

-
- (١) معجم البلدان ، ياقوت الحموى ، ط / دار صادر بيروت ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، ج ١ ص ٠٧ .
(٢) الأنعام آية : ١١ .
(٣) معجم البلدان ج ١ ص ١٤ .

- ”الباب الأول : في ذكر صورة الأرض وحكاية ما قاله المتقدمون في هيئتها وروينا عن المتأخرين في صورتها .
- الباب الثاني : في وصف اختلافهم في الاصطلاح على معنى الإقليم وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة في كل ناحية .
- الباب الثالث : في ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها فيه يحتاج إلى معرفتها كالبريد ، والفرسخ ، والميل ، والكورة وغير ذلك .
- الباب الرابع : في بيان حكم الأرضين والبلاد المفتوحة في الإسلام وحكم قسمة الفيء والخراج فيما فتح صلحا أو عنوة .
- الباب الخامس : في جعل من أخبار البلدان التي لا يختص ذكرها بموضع دون موضع ، لتكامل فوائد هذا الكتاب ويستغنى به عن غيره في هذا الباب ” (١)
- وبعد هذا كله بدأ في صلب الموضوع .

(١) معجم البلدان ، ج ١ ص ١٥٥ .

وقد اتخذت يا قوت الحموى طريقة المؤرخين، فسار على منوالهماء، وهي ذكر أقوال الآخرين عند حديثه عن أي مدينة أو مصر وبخاصة ما كان من هذه الأقوال يمثل وصفاً فنياً لتلك البلدان، فمن ذلك ما نقله عن بعض الفضلاء ولم يصرح باسمه، قال يا قوت :

" وفي مدح بفسداد قال بعض الفضلاء : بفسداد جنسة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، ومجمع الرافدين ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف ، وسها أرباب الغايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع ؛ وكان أبو اسحاق الزجاج (١) يقول : بفسداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية .

وكان الفرغ البهفا (٢) يقول : هي مدينة السلام بل مدينة الإسلام ، فإن الدولة النبوية ، والخلافة الإسلامية بها عشتا وفرختا وضربت بعروقهما ، وبسقتا بفروعهما ، وإن هواءها أغذى من كل هواء ، وماءها أعذب من كل ماء ، وإن نسيمها أرق من كل نسيم . وهي من الإقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة ، ولم تزل بفسداد موطن الأكاسرة في سالف الأزمان ، ومنزل الخلفاء في دولة الإسلام . . .

ولما رجع الصاحب عن بفسداد سأله ابن العميد عنها فقال : بفسداد في البلاد كالأستاذ في العباد ، فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل . (٣)

-
- (١) هو "ابراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج النحوى . . . كان من أهل الدين والفضل . . . وله مصنفاً حسان في الأدب ، توفى سنة ٣١١ هـ ، الوافي بالوفيات ج ٥ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .
- (٢) هو "أبو الفرغ عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الشاعر المعروف بالبهفا توفى سنة ٣٣٨ هـ " وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٢ .
- (٣) معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٦١ .

وهذا المدح الذى اختاره الحموى لوصف بغداد، قد التزم فيه صاحبه بالأسلوب الذى استخدمه كثير من الناشرين فى هذا النوع من النشر، فهو كما نرى يتكون من تراكيب إضافية (بغداد جنة الأرض ، ومدینة السلام ، وقبة الإسلام . . .) وهى مقسمة تقسيما موسيقيا ، وان كانت السجعة غير موحدة فإن التقسيم قد أعطى النص قيمة فنية واضحة .

وقد أشار فى نهايته كعادة الناشرين ، إلى أهل المدينة (وبها أرباب الغايات فى كل فن ، وآحاد الدهر فى كل نوع) . ونقل الحموى ما جاء عن الزجاج ، ومع أنها جملة واحدة ، إلا أننا نلاحظ تركيبها الإضافي ، الذى يتفق مع الأسلوب فى النص السابق (حاضرة الدنيا) .

أما ما نقله عن الفرغ اليهفيا ، فعلى الرغم من أنه قد بدأه بنفس الأسلوب (مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام) إلا أنه فى الجملتين التاليتين ، يشبه الدولة النبوية والخلافة الإسلامية بالطيور التى قد عششت وافرخت فى هذه المدينة ، وبالأشجار التى ضربت بعروقها وبسقت بفروعها ، ثم يعود فىستخدم أسلوبا مألوقا ، بنا منذ بداية وصف المدن عند الجاحظ ، وهو الأسلوب الذى يشتمل على أسماء تفضيل (إن هواءها أعذب من كل هواء ، وماءها أعذب من كل ماء ، وإن نسيمها أرق من كل نسيم) وهو أسلوب واضح الروعة والجمال ، فقد استخدم فيه بالإضافة إلى أسماء التفضيل ألفاظا سلسلة سهلة جذابة .

وأخيرا أشار إلى موقعها الهام من حيث الاعتدال ، ثم مكانتها التاريخية بحيث كانت موطن الأكاكرة قديما ، ومنزل الخلفاء فى الدولة الإسلامية . وأورد ياقوت ما جاء على لسان صاحب بن عباد عندما رجع عن بغداد وسأله عنها ابن العميد حيث شبهها بالنسبة للبلاد كالاستاذ فى العباد وعلق ياقوت على هذه العبارة بأنه قد جعلها مثلا فى الغاية والفضل .

وإذا كان ياقوت قد اختار لنا نصوصا من كلام غيره في وصف بغداد، فإننا سنقابل نصوصا له في وصف المدن الأخرى بإذن الله وفي مقدمتها مدينة دمشق والتي وصفها في النص التالي :

وصف دمشق :

"... البلدة المشهورة قُصبة الشام ، وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه ، ووجود مآرب ...

وأما جامعها فقد وصفه بعض أهل دمشق فقال :

هو جامع المحاسن ، كامل الفرائب ، معدود إحدى العجائب ، قد زور بعض فرشه بالرخام ، وألف على أحسن تركيب ونظام ، وفوق ذلك ، فص أقداره متفقه ، وصنعتة مؤ تلفة ، بساطه يكاد يقطر زهبا ، ويشتعل لهبا ، وهو منزّه عن صور الحيوان ، إلى صنوف النبات وفنون الأغصان ، لكنها لا تجنى إلا بالأبصار ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار ، بل باقية على طول الزمان ، مدركة بالعيان في كل أوان ، لا يمسه عطف مع فقدان القطر ، ولا يعترها زبول مع تصارينف الدهر" (١)

وفي وصف ياقوت لدمشق نجده أيضا يستخدم نفس الأسلوب

الإضافي الذي مر بنا (قُصبة الشام ، جنة الأرض ، حسن عمارة ، نضارة بقعة ..)

وهو كذلك عندما نقل عن بعض أهل دمشق في وصف جامعها (جامع المحاسن ، كامل الفرائب) إلا أنه في وصف الجامع يضيف إلى هذا الأسلوب أسلوباً آخر أتى فيه بعدد من الجمل الفعلية وأحسن في اختيار عباراته ، وتراكيبه ، وأخرجه في صورة جميلة ، فبساطه يكاد يقطر ذهباً ، ويشتعل لها من شدة لمعانه ، والأشجار والأغصان المرسومة عليه تكاد تجنى ثمارها بالأبصار ، ثم إن تلك الثمار لا يدخل عليها الفساد ، ولا يسبها المطش ، ولا يمتريها الذبول ، وهو بهذا الوصف قد جعل من الأشياء المصورة في هذا الجامع ، تفوق الأشياء الحقيقية التي صورت عنها لقبول الأخرى للتغيير وبقاء تلك على حالتها باستمرار .

والنص كما نلاحظ سواء ما كان منه في وصف دمشق وما جاء في وصف الجامع ، تظهر عليه لمسة فنية لتقسيماته المتدرجة من القصر إلى الطول ، وتوحيد سجة جملته كل عدد منها على حدة ، وعدم وجود الألفاظ الغريبة ، والمبارات الشاذة ، التي يتكلفها بعض الناثرين .

والنص قد اقتصر على وصف مدينة دمشق وجامعها فقط ولم يتعرض لأهلها بشيء كما أنه لم يستقص كل جوانب المدينة . ومع ذلك فإن وصف المسجد الذي ظهرت فيه براعة الكاتب واضحة جلية هو لأحد الناثرين من أهل دمشق كما نص على ذلك ياقوت نفسه .

ثم نقل كتاب عبد الله بن المعتز إلى صديق له يدح فيه سر من رأى
ويصف خرابها ويذم بغداد وأهلها :

" كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد
جدرانها ، فشهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها
يقصر ، فكان عمرانها يطوى ، وكان خرابها ينشر ، وقد وكلت
إلى الهجر نواحيها ، واستحث باقيها إلى فانيها ، وقد
تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن
منها سحو الأثر ، والعقيم بها على طرف سفر ، نهـاره
إرجاف^(١) ، وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ، ولا
مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى
ذم الدنيا .

بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار
الملك ، تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أودية السيوف ،
وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد
السيول ، على خيل تاكل الأرض بحوافرها ، وتمد بالنقع^(٢)
حوافرها ، قد نشرت في وجوهها غرراً كأنها صحائف البرق ،
وأسكها تحجيل كاسورة اللجين ، ونوطت عذرا كالشنوف^(٣) ،
في جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم ينهض أو أخسره ،

(١) الإرجاف : واحد أرجف الأخبار ، وقد أرجفوا في الشيء أي

خاضوا فيه ، الصحاح ، مادة : رجف .

(٢) النقع : الفبار والجمع نقاع . الصحاح مادة : نقع .

(٣) الشنوف : الشنف القرط الأعلى والجمع شنوف . الصحاح ، مادة :

شنف .

وقد صبَّ عليه وقار الصبر، وهبت له روائح النصر، يصرفه
ملكٌ يملأُ العينَ جمالاً، والقلوبَ جلالاً، لا تخلف
مخيلته (١)، ولا تنقضُ مريته (٢)، ولا يخطئُ بسهم
الرأيِ غرضَ الصوابِ، ولا يقطعُ بطايا اللهُوسفر (٣)
الشبابِ، قابضاً بيدِ السياسةِ على أقطارِ ملكٍ لا ينتشر
حبُّله، ولا تشظى عصاه، ولا تطفئُ جمرته، في سنِّ
شبابٍ لم يجنِ مأثماً، وشيبٍ لم يراهق هراً، قد
فرشَ مهادَ عدله، وخفضَ جناحَ رحمته، راجعاً بالعواقبِ
الظنونِ، لا يطيشُ عن قلبِ فاضلِ الحزمِ بعد المزمِ،
ساعياً على الحقِّ يعملُ به، عارفاً باللهِ يقصدُ إليه، مقراً
للحلمِ ويبذله، قادراً على العقابِ ويعدلُ فيه، إذ الناسُ
في دهرِ غافلٍ، قد اطمانتْ بهم سيرةُ لينةِ الحواشي،
خشنةِ المرامِ، تطيرُ بها أجنحةُ السرورِ، ويهبُ فيها نسيمُ
الحيورِ، فالأطرافُ على مسرةٍ والنظرُ إلى مبرةٍ، قبل أن
تخبَّ مطايا الغمرِ، وتسفرَ وجوهَ الحذرِ، وما زال الدهرُ
مليئاً بالنوابِ، طارقاً بالمجائبِ، يوءُ من يومه، ويقدرُ
غدره. على أنها وإن جفيت معشوقة السكَنِ، وحببية
الثوى، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جواهر،
ونسيمها معطر، وترابها مسكٌ أذفر، ويومها غداة، وليلها
سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء، وتاجرها مالك،

(١) مخيلته : خلت الشئ خيلاً وخيلاً، ومخيلة وخيولة . أى ظننته .

الصاح ، مادة : خيل .

(٢) مريته : المريرة : العزيمة ، الصاح ، مادة : مرر .

(٣) السفر بالكسر : الكتاب والجمع أسفار ، الصاح ، مادة : سفر .

(١)
وفقيرها فاتك ، لا كيفد اركم الوسخة السماء ، الوعدة
الهواء ، جوها نار ، وأرضها خبار (٢) ، وماؤها حميم
وترايبها سرجين (٣) ، وحيطانها نزوز (٤) ، وتشرينها
تموز ، فكم في شمسها من محترق ، وفي ظلها من عرق ،
ضيقة الديار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ، قليلة
الضيغان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ،
ومالهم مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ولا يحل خناقه ، خشوشهم
سائل ، وطرقهم مزابل ، وحيطانهم أخصاص (٥) ، وبيوتهم
أقاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول ، والدهر يسير
بالمقيم ، ويمزج البوء من بالنعيم ، وبعد اللجاجة (٦)
انتهاء ، والهيم إلى فرجة ، ولكل سائلة قرار ، وبالله أستعين
وهو محمود على كل حال (٧)

-
- (١) الوعدة : بالتحريك شدة حر الليل ، الصحاح مادة : وم .
(٢) الخبار : الأرض الرخوة ذات الحجر . الصحاح ، مادة :
خبير .
(٣) السرجين : ما تدمل به الأرض . لسان العرب ، مادة : سرجين .
(٤) نزوز : النزما يتحلب في الأرض من الماء ، الصحاح ، مادة :
نزوز .
(٥) أخصاص : الخص : البيت من القصب ، الصحاح ، مادة : خصص .
(٦) اللجاجة : لسج في الأمر : تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه .
لسان العرب مادة : لسج .
(٧) معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

وينقل لنا الحموي رسالة ابن المعتز في وصف سامراء، وضم بفداد وجبها إلى صديق له، وتعد هذه الرسالة من أهم النصوص الفنية في وصف المدن، وقد نقل فيها ابن المعتز أساء وحسرتة لما وصلت إليه مدينة سامراء من خراب وسوء حال، لتفرق أهلها عنها وهجرهم لها، بعد أن كانت جنسة الأرض وقرار الملك.

ثم ذكر حال جيشها وما كان عليه من الكثرة والعدد، وأجاد في وصف الخيل كما هو واضح من النص، ثم حال الملك ومكانته وقدرته على تصريف شئون هذا الجيش، وعدله في تسيير شئون رعيته .

وعاد مرة أخرى إلى وصف المدينة موضحاً أنها على الرغم مما حل بها فستظل معشوقة السكنى، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطر... إلى آخر تلك الصفات التي خلعتها عليها، والتي تبيّن اللوعة والأسى، والمرارة الحقة، غير المصطنعة، التي وصل إليها الناشر فعبر عنها هذا التعبير النابع من قلب عاش المأساة وعانى منها، ومنحته القدرة على تصويرها وإخراجها في هذا قالب النثرى الموهب، الذي قارن فيه ابن المعتز بين ما كانت عليه سامراء وما صارت إليه وبين بفداد. والواقع أن ما كانت عليه المدينة من عزوما وصلت إليه من خراب، وقدرة الناشر الأدبية الكبيرة، وسعة أفقه وإحساسه المرهف كل ذلك قد مكنه من صياغة هذا النص بهذا المستوى الرفيع .

كما أن التقسيمات الموسيقية الفنية وتوحيد السجعة في كل جزء من أجزائه وكثرة الصور البلاغية، المتمثلة في التشبيهات، والاستعارات وكثرة الجمل الإسمية القصيرة، وبخاصة عند وصف المدينة نفسها، وحسن اختيار الألفاظ، وجمال العبارات، كل تلك المميزات قد جعلت النص يحتل مكانة عالية بين النصوص .

ثم يصف ياقوت الحموي إقليم العراق :

"... والعراقُ أعدلُ أرضِ اللهِ هواءٌ، وأصحُّها مزاجاً
وماءً، فلذلك كان أهلُ العراقِ هم أهلُ العقولِ الصحيحةِ،
والآراءِ الراجحةِ... والشمائلِ الظريفةِ، والبراعةِ في
كلِّ صناعةٍ، مع اعتدالِ الأَعْضاءِ، واستواءِ الأَخلاطِ، وسَمرةِ
الألوانِ". (١)

وفي وصف العراق استخدم ياقوت أسلوب التفضيل (أعدل أرض
الله هواءً ، وأصحها مزاجاً وماءً) ، ثم استدل على صحة عقولهم ورجحان
آرائهم وظرفهم ، وبراعتهم في الصناعات ، واعتدال أعضائهم ، واستواء
أخلاطهم .

والنص مع قصره ، فإنه بتقسيماته الغنية وتوحيد سبعة جمل كل
جزء من أجزائه ، وعذوية الفاظه ووضوح معانيها قد بدت فيه لسة فنية
توضح جماله .

(١) معجم البلدان ج٤ ص ٩٥ .

٢ - القزويني وكتابه آثار البلاد وأخبار العباد :

وهو : " زكريا بن محمد بن محمود القاضي عماد الدين أبو يحيى الأندلسي ، الأنصاري القزويني ، قاضي واسط توفي سنة ٦٨٢ هـ من تصانيفه آثار البلاد وأخبار العباد في التاريخ ، عجائب البلدان ، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " . (١)

وذكره صاحب معجم المؤلفين وزاد بأنه " مؤرخ جغرافي من القضاة ولد بقزوين ورحل إلى الشام والعراق " . (٢)

وكتابه آثار البلاد وأخبار العباد مطبوع في مجلد واحد بسداه بمقدمة ضمنها ثناء عظيماً على الله عز وجل " العزلك ، والجلال لكبريائك ، والعظمة لثنائك ، والدوام لبقائك " .

ثم تحدث فيها عن محتوى كتابه " إنني جمعت في هذا الكتاب ما وقع لي وعرفته ، وسمعت به وشاهدته ، من لطائف صنع الله تعالى ، وعجائب حكمته المودعة في بلاده وعباده " .

وأوضح فيها تأثير العوامل المختلفة ، كالشمس والمطر وهبوب الرياح ، في تقسيم الأرض إلى أجزاء ، لكل جزء منها خاصية لا توجد في الآخر : " فمنها ما صار حجراً صلداً ، ومنها ما صار طينا حراً ، ومنها ما صار طينة سبخة " . (٣) وأبان بعد ذلك ما يتولد من هذه الأجزاء نتيجة تلك الخاصيات .

-
- (١) هدية العارفين من كشف الظنون ، إسماعيل باشا البغدادي ، ط / دار الفكر سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ج ٤ ص ٣٧٣ .
- (٢) معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ، ط / بيروت ج ٤ ص ٨٣ .
- (٣) مقدمة آثار البلاد وأخبار العباد - زكريا القزويني ، ط بيروت سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ص ١ .

وخرج من هذه المقدمة العامة إلى مقدمات جعل الأولى منها في الحاجة الداعية إلى إحداث المدن والقرى، والثانية في خواص البلاد، والثالثة في أقاليم الأرض وقسمها إلى سبعة أقاليم فصل أجزاء كل إقليم منها. وفي أول نص فني له :

يصف مدينة صنعاء :

"قصة بلاد اليمن ، أحسن مدنها بناءً ، وأصحها هواءً ،
وأعذبها ماءً ، وأطيبها تربة ، وأقلها أمراضاً ، ذكر
أن الماء إذا رُش في بيوتها تفوح منه رائحة العنبر ، وهي
قليلة الآفات والعلل ، قليلة الذباب والهوام ، إذا اعتل
إنسان في غيرها ونقل إليها يبرأ ، وإذا اعتلت الإبل
وأرغيت في مروجها تصح . " (١)

رأينا فيما مر بنا من نصوص أن الأسلوب الذي يشتمل على أسماء تفضيل، والآخر الذي يشمل جملاً اسمية تحتوي على مضاف ومضاف إليه ، كان أكثر الأساليب انتشاراً في وصف المدن ، ويؤيد ذلك القزويني فيبدأ في استخدامها في أول نص يصف فيه مدينة صنعاء ، حيث بدأ النص بجمل فيها أسماء تفضيل " أحسن مدنها بناءً ، وأصحها هواءً ، وأعذبها ماءً . . . ثم يأتي بعد ذلك بالأسلوب الإضافي (قليلة الآفات والعلل ، قليلة الذباب والهوام) ويدلل على صدق ما وصف به مدينة صنعاء من صحة الهواء وقلة الأمراض بأن الإنسان إذا اعتل في غيرها ونقل إليها يبرأ والإبل إذا اعتلت وأرغيت في مروجها تصح .

والإضافة إلى استخدام الأسلوبين المشهورين في هذا النص فإن لتقسيماته الموسيقية وقصر جملة وحسن الفاظه ، قيمة فنية زادت من مكانته .

ويصف مدينة دمشق :

" قصبة بلاد الشام ، وجنة الأرض لما فيها من النظارة
وحسن العمارة ، ونزاهة الرقعة ، وسعة البقعة وكثرة
المياه والأشجار ، ورخص الفواكه والثمار " (١)

وهو هنا لم يزد على أن ردد الصفات التي أضفاها عليها ياقوت الحموي ،
في النص الذي أورده عند الحديث عن معجمه الذي وصف فيه دمشق وجاء
فيه :

" قصبة الشام ، وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ،
ونزاهة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه "

ومن الاطلاع على النصين يتضح لنا مدى استفادة القزويني من
وصف الحموي ، إذ لم يضاف إليه إلا تقديم بعض الجمل وتأخير أخرى .

والنص كما نلاحظ على الرغم من قصره ، فإن جماله يكمن في تقسيماته
الموسيقية ، وتوحيد بعض سجعاته ، وفواصله ، واستخدام الجمل الاسمية المشتمة
على المضاف والمضاف إليه (جنة الأرض ، نزاهة الرقعة ، كثيرة المياه) ، وفي
أن الفاظه مناسبة وليس فيها لفظا مستهجننا .

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٨٩ .

ثم يصف الشام :

” والشامُ هي الأرضُ المقدسةُ التي جعلها اللهُ منزلاً
للأنبياءِ ، ومهبطَ الوحيِ ، . . . هواؤها طيبٌ ،
وماؤها عذبٌ ، وأهلها أحسنُ الناسِ خلقاً وخلقاً وزياً
ورياً .” (١)

يبدو من خلال هذا النص والنصوص الأخرى للقزويني أنها
قصيرة جداً، ولا تعطى الموصوف من المدن والأقاليم حقه من الوصف غير
أن هذا هو أسلوبه وطريقته ومع ذلك، فإنها لا تخلو من روعة وجمال .

فالنص الذي بين أيدينا على الرغم من قصره الشديد، والإيجاز
اللمحوظ، فإن الناشر قد أشار فيه إلى أهم ما يميز هذا الإقليم وهو المنزل
للأنبياء، ومهبط الوحي، ثم وصف هواؤه، وماءه، وأهله .

وقد استخدم جملًا إسمية قصيرة اختار لها الفاظ جميلة جعلت
من النص يحمل للقارى نوعاً من المتعة .

(٢)

شيراز :

” مدينةٌ صحيحةُ الهواءِ ، عذبةُ الماءِ ، كثيرةُ الخيراتِ ،
وافرةُ الغلاتِ ، قصبةُ بلادِ فارسِ .” (٣)

(١) آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٠٥ .

(٢) شيراز : بلد عظيم مشهور معروف مذكور وهو قصبة بلاد فارس،

معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٣) آثار البلاد واخبار العباد ص ٢١٠ .

وفي هذا النص يستخدم القزويني أسلوب الجمل الإضافية (صحيحة الهواء ، عذبة الماء ، كثيرة الخيرات) وهو أسلوب ^{سخر}الناثرون كثيراً إلا أن القزويني يزيد على ذلك ، فيكرر استخدام نفس العبارات في أماكن أخرى ، وقد يدخل عليها بعض التعديلات مثل " هواؤه ها صحيح طيب ، وماؤه ها عذب حلو " (١) عند وصفه لمدينة العريش بدلا من (صحيحة الهواء ، عذبة الماء) في النص الذى بين أيدينا . وهي نصوص قصيرة جدا كما قد منا .

ويصف الغوطة :

" الكورة التي قصبتهام مشق ، وهي كثيرة المياه ، نضرة الأشجار ، متجاوية الأطيوار ، موءقة الأزهار ، ملتفة الأغصان ، خضرة الجنان " (٢)

وفي وصف الغوطة أيضا يستخدم الجمل الاسمية التي فيها إضافة " كثيرة المياه ، نضرة الأشجار " ويلتزم به في جميع الجمل ، وقد قسم النص إلى جمل من هذا النوع متساوية مقسمة تقسيما موسيقيا جميلا ، تحدث فيه عن كثرة مياه الغوطة ، وحسن أشجارها ، وتفريد أطيوارها ، وتناسق أزهارها ، والتفاف أغصانها ، واخضرار جناتها .

والنص كما ترى قصير جدا ، ولم يستوف فيه الناشر صفات الغوطة كلها ، بل أسمح إليها بالصفات المذكورة ، شأنها شأن بقية المدن التي وصفها القزويني .

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢ .

ثم وصف مدينة أصفهان :

" مدينة عظيمة من أعلى المدن وشاهيرها ، جامعة
لأشتات الأوصاف الحميدة ، من طيب التربة ، وصحة الهواء ،
وعذوبة الماء ، وصفاء الجو ، وصحة الأبدان ، وحسن صورة
أهلها ، وحثهم في العلوم والصناعات ، . . . وهي
مدينة ترابها كحل ، وحشيشها زعفران ، وونيم^(١)
ذبابها عسل " (٢)

ومع أنه في هذا النص قد بدأ بجمل اسمية ليس فيها مضاف ،
إلا أنه عاد فاستخدم الأسلوب الإضافي في بقية النص (من طيب التربة ،
وصحة الهواء ، وعذوبة الماء ، . . .) ثم أتى بعد ذلك بأوصاف جاء بعضها
عند وصف أصفهان^(٣) في النصوص التي سيأتي ذكرها إن شاء الله ومن
ذلك (حشيشها زعفران) .

وعلى الرغم من أن القزويني قد أكثر من هذا الأسلوب في وصفه
للدن إلا أن التقسيمات الموسيقية القصيرة ، قد أعطت النص جمالا فنيا
ملحوظا .

(١) ونيم الذباب : سلحه . الصحاح ، مادة : ونم .

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٩٦ .

(٣) ذكر أخبار أصفهان - أبو نعيم الأصفهاني ج ١ ص ٣٧ .

ووصف بغداد فقال :

"أمُّ الدنيا وسيدةُ البلاد ، وجنةُ الأرض ، ومدينةُ السلام
وقبةُ الإسلام ، ومجمعُ الرافدين ، ومعدنُ الظرائف ، ومنشأُ
أربابِ الغايات ، هواؤها أطف من كلِّ هواءٍ ، وماؤها
أعذب من كلِّ ماءٍ ، وتربتها أطيب من كلِّ تربةٍ ، ونسيمها
أرق من كلِّ نسيمٍ." (١)

وفي وصف بغداد نجد القزويني يستخدم مع الأسلوب الإضافي
(أم الدنيا ، سيدة البلاد ، جنة الأرض . . .) أسلوب التفضيل (هواؤها
الطف من كلِّ هواءٍ ، وماؤها أعذب من كلِّ ماءٍ . . .) وهما الأسلوبان اللذان
استخدمهما الناثرون كثيرا في وصف المدن والأقاليم .

ومع أن النص قصير إذا قورن بأوصاف مدينة السلام عند ناثرين
آخرين ، إلا أن القزويني قد أجاد فيه إجادة واضحة ، فالألفاظ منتقاة
قد أحسن اختيارها ، والجمل متوسطة فليست بالقصيرة المخلة أو الطويلة
المملة .

وقد وصف فيه بغداد بأنها أم الدنيا وسيدة البلاد وجنة الأرض ،
ويعد سرد أسماؤها ومكانتها وصف هواءها ، وماؤها ، وتربتها ونسيمها ، وكان
وصفه هذا في غاية من الروعة والجمال ، على الرغم من أن بعض الأوصاف قد
رأيناها عند وصف ياقوت الحموي لبغداد وجاءت هنا بنفس الترتيب
"جنة الأرض ، مدينة السلام ، قبة الإسلام ، مجمع الرافدين " وقد أشرنا سابقا
إلى نقل القزويني عن ياقوت عند الحديث عن مدينة دمشق .

الأندلس :

ونسب القزويني إلى أحمد بن عمر العذري (١) صاحب المسالك

والممالك الأندلسية :

"إنها شامية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها
واستوائها ، هندية في أفوابيها وذكائها ، أهوازية
في عظم اجتنائها ، صينية في جواهرها ، عدنية في
سواحلها" (٢)

وفي وصف الأندلس نقل القزويني هذا النص عن العذري وفيه

مقارنة جميلة بينها وبين كثير من البلدان ، فقد أخذت من الشام طيبها
وهواءها ، ومن اليمن اعتدالها ، واستوائها ، ومن الهند عطرها وذكاءها
ومن الأهواز كثرة جباياتها ، ومن الصين جواهرها ، ومن عدن جمال سواحلها
فالمميزات التي منحها الله عز وجل لتلك المدن والأقاليم قد جمعها في
الأندلس .

ومع أن أسلوب الوصف بشكره العام جاء جذابا وجميلا إلا أن تقسيمات

الجمال وتوحيد سجعها واختيار الفاظها قد أعطى النص نوعا من السلاسة
والمتعة الفنية .

(١) هو "أحمد بن عمر بن أنس العذري أبو العباس . . . فاضل أندلسي . . .
له كتاب (المسالك والممالك) و (دلائل النبوة) توفي سنة ٤٧٨ هـ"
الأعلام ج١ ص ١٧٩ .

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٠٤ .

ويصف خوارزم :

"ناحية مشهورة ، ذات مدن وقرى كثيرة ، وسيمة الرقعة ،
فسحة البقعة ، جامعة لأشتات الخيرات وأنواع السرّات ،
قال جار الله الزمخشري : (بخوارزم فضائل لا توجد
في غيرها من سائر الأقطار ، وخصال محمودة لا تتفق
في غيرها من الأقطار ، قد اكتنفها أهل الشرك ، وأطافت
بها قبائل الترك ، ففزوا أهلها معهم دائم ، والقتال
فيما بينهم قائم ، وقد أخلصوا في ذلك نياتهم ، وأحضوا^(١)
فيهم طوياتهم ، وقد تكفل الله بنصرهم في عامة الأوقات ،
ونحهم الغلبة في جميع الوقعات ، وقد خصها
بجيحون^(٢) ، واد عسر المبر ، بعيد المسالك ، غزير
الماء ، كثير المهالك ، وأهلها أصحاب قلوب جريسة
ونفوس أبية ، ولهم السداد والديانة ، والوفاء والأمانة
ودينهم محبة الأختيار ، ومقت الأشرار ، والإحسان إلى
الغرباء ، والتعطف على الضعفاء .

وما اختصت به خوارزم أنواع الرقيق الروقة ،
والخيل الهماليج الفرهة ، وضروب الضواري من البزاة
والصقور ، وأجناس الوبر واللوان الثياب . وشارها أطيّب
الثمار وأشهاها ، والذها وأحلاها ، وأنماها وأمراها ،
وهواؤها أصح هواً ، وماؤها أعذب ماءً^(٣) .

(١) أمحضوا : محضته الود وأمحضته وكل شيء أخلصته فقد أمحضته .

الصاح - مادة : محض .

(٢) جيحون : هو اسم واد في خراسان على وسط مدينة يقال لها

جيهان فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون . معجم البلدان ، ج ٢

ص ١٩٦ .

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٢٥ .

يعد هذا النص أطول نص فني ورد في كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني، إلا أنه مع ذلك قد نُسب إليه إلى جار الله الزمخشري، ولم تسلّم له إلا الجمل الواقعة في بدايته، ويتضح من إلقاء نظرة عليها التزامها الأسلوب الإضافي الذي ورد في نصوص القزويني كثيراً، أما ما نسب إليه إلى جار الله الزمخشري، فإن أسلوبه مغاير لأسلوب القزويني، كما هو واضح من النص حيث ذكر الزمخشري أن لهذه المدينة صفات لا توجد في غيرها ثم فصل ذلك فتحدث عن موقعها المتاخم لأهل الشرك، وقبائل الترك واستمرار أهلها في الغزو والقتال، ونصر الله لهم لما علم من إخلاصهم في عامة الأوقات، ثم وصف جيحون ومد سالكه، ونزر مياحه، وكثرة مهالكه، ثم وصف أهل هذه المدينة بالجرأة، والأبياء، وسداد الرأي، والديانة والوفاء، والأمانة، والإحسان إلى الغرباء، والمطف على الفقراء، وجاء وصف أهل المدينة في منتصف النص بخلاف ما يقوم به بعض الناشرين من تأخيره إلى نهايته، ويشير إلى ما اختلفت به هذه المدينة من أنواع الرقيق والخيل والبزاة والصقور وأجناس المور واللوان الثياب .

وأخيراً يصف ثمارها وهواها وماها، فيستخدم في وصفها

جملات تشتمل على أسماء تفضيل فيأتي وصفها في غاية من الحسن .

٣ - المبدرى ورحلته :

وهو " محمد بن محمد بن علي بن أحمد أبو عبد الله الحاحي (١) المبدرى صاحب الرحلة المعروفة باسمه ، أصله من بلنسية ، ونسبته إلى بني عبد الدار . كان من سكان الحاقه ، وهي قرية فيها مياه معدنية حارة ، في الطريق بين بسكرة وتوزر في المغرب . توجه منها حاجا سنة ٦٨٨ هـ فدخل باحة تونس والقيروان ومر بالإسكندرية في زهابه وإيابه ، وليس في المصادر ذكر لسنة وفاته " (٢) وهذا ما جعل بعض المهتمين ينكروا معرفة أي شيء عن سيرة حياته حيث قال : " أما سيرة حياة المبدرى فلا نكاد نعلم عنها شيئا " (٣)

والرحلة التي تحمل اسمه كتاب مطبوع قام بتحقيقه الأستاذ / محمد الفاسي ، وصدّره بمقدمة أوضح فيها باختصار - كثيرا ما يتعلق بالمبدرى ورحلته التي يطلق عليها أحيانا الرحلة المغربية . وهي وصف للرحلة بدأها المبدرى سنة ٦٨٨ هـ توجه خلالها من مدينة حاحة . وكان طريقه على بلاد القبلة كما ذكر في بداية الرحلة (٤) وتحدث بعد ذلك عن المدن التي مر بها وعن كثير من صفات تلك المدن وأحوالها والبلدان التي شاهدها أثناء تلك الرحلة .

(١) لعلها الحاحي نسبة إلى حاحة كما أطلق عليها محقق الرحلة

د . محمد الفاسي .

(٢) الأعلام ، ج ٧ ص ٢٦٠ .

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي ج ١ ص ٣٦٧ .

(٤) رحلة المبدرى ، محمد الفاسي ، طر / وزارة الدولة المكلفة بالشئون

الثقافية والتعليم الأصلي ، الرباط سنة ١٩٦٨ م ص ١٠١ .

ومن ذلك الوصف الشامل ، تم اختياراهم النصوص الفنية التي وصف
بها العبدري تلك المدن .

وسوف نلمس أهم الفروق التي ميزت هذا الوصف عن وصف الناشرين

السابقين .

وهي المميزات التي تنعكس على القرن السابع الهجري الذي تمت فيه .

والواقع أن هذه الرحلة على الرغم من فائدتها العظيمة في معرفة

تلك البلدان التي جاء ذكرها فإنها تبين لنا كثيرا من صفات العبدري

نفسه كسعة علمه . وفضله وصراحته ، ووضوح أسلوبه المتمثل في نقده لكل

الحوادث التي رأى أنها بحاجة إلى نقد . (١)

وأول مدينة يقوم بوصفها مدينة قسنطينة :

” ثم وصلنا إلى البلد الذي نشفت الخطوب معينه ، وأبنت
الأقدار أن تكون له معينه ، بلد الوضع العجيب ، والموضع
الخصيب . مدينة قسنطينة ، جبر الله صدعها ، وكفاها
من نواب الدهر ما واصل قرعها ، وهي مدينة عجيبنة
حصينة ، غير أنها لخطوب الزمان مستكينة ، قد ذبلت
ببوارح الغير ، وفواح الضرر ، رياضها ، ونضبت بسهام
الآفات وعظام الملل ، حياضها ، حتى صارت كالحسناء
لبست أسمالا ، والكريم فقد مالا ، والبطل أشخته الجراحة
حتى لم يطق احتمالا ، فهي ترى الحوادث لمحا باصرا ،
وتنادي بلسان الحال ذل لو أجد ناصرا . . . وبها
للاوائل آثار عجيبة ، وبيان متقنة الوضع غريبة ، وأكثر
من حجر منحوت ، يعجز الوصف عن إتقانه ويفوت ، وقد

(١) أنظر مقدمة المحقق للرحلة . ص ٤٤

دارَ بها وادٍ شديدٍ الوعر . بعيدُ القمر ، أحاطَ بها
كما يحيطُ السوارُ بالمعصم . ومنعها كما يمنع النوق (١)
الأعصم (٢) ، ولكن سهام الدهر لا تقيها الجنن (٣)
ولا تمنعُ منها القنن ، وريب السنون وصرف الزمن ، وقد
أعيت الحيلةُ فيها من ومن (٤) . (٥)

وفي هذا النص الذي يعد أول وصف فني اخترناه للعبدري نجده
يبين فيه أسفه وحسرتة لما وصلت إليه هذه المدينة ، نتيجة كثرة النوايب
والحوادث ، التي ألمت بها حتى ذبلت رياضها ، ونضبت حياضها ، ثم
شبهها فيما صارت إليه بالحسناء التي ارتدت ثيابا خلية والكريم الذي
فقد ماله ، والبطل الذي أثقلته جراحه ، فلم يتمكن من الصبر عليها .

وتحدث عن كثرة الحوادث المحيطة بها وطلبها الإغاثة
والنصر ، ثم تطرق إلى ذكر آثارها ومبانيها ، وما يحيط بها من أودية
وعرة تمنع عنها أعداءها ، ومع ذلك فهي لم تستطع الاختفاء مما للدهر
من سهام .

والنص بتقسيماته الواضحة وما اشتمل عليه من صور بلاغية من
تشبيهات واستعارات لا يخلو من جمال ومتعة ومع ذلك فقد حوى بعض
الألفاظ الفريبة والعبارات الفاضلة . وهي في الواقع تمثل مرثية نشرية
لهذه المدينة العريقة .

(١) الناقية تقديرها فعلة بالتحريك لأنها جمعت على نوق . الصحاح ،
مادة : نوق .

(٢) الأعصم : أصل العصمة الحبل . وكل ما أمسك شيئاً قد عصمه . لسان
العرب ، مادة : عصم .

(٣) الجنن . بالفتح ، القبر ، الصحاح ، مادة : جنن . حرا الجنن : قبره .

(٤) القنن : القوة من قوى الحبل . . وجمعها قنن . لسان العرب ، مادة : قنن .

(٥) رحلة العبدري ، ص ٣٢ .

(١)
ويصف مدينة بونه :

" ثم وصلنا إلى مدينة بونه ، فوجدناها بلدة بطوارق
الغير مغبونه ، بسوطة البسيط ولكنها بزحف النوائب
مطوية مخبونة (٢) ، تلاحظ من كتب فحوصا ممتدة ،
وتراعى من البحر جزره ومده ، تفارلها العيون من
جور النوائب ، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب ،
وقد أزجج السفر عن حلولها فلم أقض وطرا من دخولها (٣) "

وفي وصف العبدري لمدينة بونه أيضا ، يذكر كيف أثرت طوارق
الغير ونوائب الدهر فيها وكيف أصبحت فحوصا ممتدة تتعرض من البحر
لجزره ومده .

ثم أشار إلى عدم استقرار العيون عند النظر إليها لعدم رؤيتها
ما يضطرها لذلك فهي تفارلها ما أهل بها ، وأن النفوس تتحسر لمصابها .
وقد جاء الوصف في فواصل عديدة طويلة وليست قصيرة غير أنها
موحدة العجمة في كل جزء من النص على حدة (ثم وصلنا إلى مدينة بونه ،
فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة) .

كما اشتمل على بعض الصور البلاغية الجميلة على الرغم من قصره وعدم
استيفائه صفات المدينة كما أشار إلى ذلك العبدري في آخره .

-
- (١) بونة بالضم ثم السكون : مدينة بافريقية . . . وهي مدينة حصينه . . .
معجم البلدان ج١ ص ٥١٢ .
(٢) مخبونه : خبنت الثوب وغيره أخبته خبنا وخبانا إذا عطفته وخطته
ليقصر .
(٣) رحلة العبدري ص ٣٧ .

ويصف مدينة تونس :

" ثم وصلنا إلى مدينة تونس مطمح الآمال ، ومصاب كل
برق ، ومحط الرحال من الغرب والشرق ، ملتقى الركاب
والفلك ، وناظمة فضائل البرين في سلك^(١) ، فإن شئت
أصحرت في موكب ، وإن شئت ابحرت في مركب ، كأنها
ملك^(٢) والأرباض لها أكليل^(٣) ، وأرجاؤها روضة باكرتها
الرياح بليل ، إن وردت مواردنا نغمت غليلا ، وإن
زدت فزادها شفيت حشا غليلا ، جلبيت بها عروس
القروس ، وحلت بها على مر الحروس الطروس ، لا تنشد^(٤)
بها ضالة من العلم إلا وجدت بها ، ولا تلتبس فيها بغية
معوزة إلا استفدتها . أهلها ما بين عالم كالعلم رافع
بين أهله للعلم ، ومعطل حد الطبى بحد القلم ،
ومسلم على ربيع بذى سلم ، شاك من وجده فرط الألم ،
فاقت بحسن معانيها ، واتقان مفانيها غيرها من المدن
وطالت ، ووسطت بنخوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت^(٥) .

-
- (١) السلك بالفتح مصدر سلكت الشيء في الشيء فانسلك أي
أدخلته فيه فدخل . الصحاح ، مادة : سلك .
- (٢) الأرباض : ربض المدينة : ما حولها . الصحاح - مادة : ربض .
- (٣) إكليل : الإكليل : شبه عصابة تزين بالجوهر . الصحاح مادة : كلل .
- (٤) نقع الماء العطش نقعا ونقوعا ، أي سكنه . الصحاح ، مادة : نقع .
- (٥) الغل . . والغلة : حرارة العطش ، الصحاح ، مادة غل .
- (٦) الحروس : الفحرس : الدهر . الصحاح ، مادة : حرس .
- (٧) الطروس : الطرس : الصحيفة . الصحاح ، مادة : طرس .
- (٨) رحلة العبدري ، ص ٣٩ .

أما عند وصفه لمدينة تونس فإنه قد بدأ النص بالأسلوب الإضافي المعروف (مطمح الآمال ، ومصاب كل برق ، ومحط الرحال . . .) ثم بين موقع هذه المدينة بين البر والبحر واستخدم بعد ذلك الصور البلاغية الجميلة حيث شبهها بلك والارياض لها إكليل ، وشبه أرجاءها بروضة باكرتها الريح بليل ، وبين أيضا مدى سعادة الإنسان حينما يرتاد تلك الرياض ثم حالة أشجارها وأشار إلى انتشار العلم فيها ووجود كل ما يطلبه الزائر لها .

ووصف أهلها بالعلم والمعرفة وعدم الانصراف لذات الحياة ، ثم عاد إلى المدينة فذكر تفوقها على قريناتها من المدن الأخرى في المعاني والمفاني .

والنص يمثل قطعة فنية جميلة لما اشتمل عليه من حسن الصياغة وجمال التنسيق ، حيث بدأ بفواصل قصيرة تدرجت في الطول حتى نهاية النص ، وحد بين كل سجمتين واستخدم ألفاظا سلسة وعبارات أكثرها واضحة وإن كانت هناك بعض عبارات فيها نوع من الغرابة (البرين في سلك ، نقت غليلا ، الحروس الطروس) إلا أن مثل هذه العبارات قليلة وتمثل في الوقت نفسه محسنات بدعية جذابة ، تعد من أهم مميزات أسلوب العبدري .

ثم يصف مدينة القيروان :

” ثم وصلنا إلى مدينة القيروان ، فدخلتها مجداً في البحث
غير وان ، فلم أر إلا رسوماً محتها يد الزمان ، وآثاراً
يقال عنها كان وكان ، والأحياء من أهلها جفاة الطباع ،
مالهم في رقة الحضارة باع ، ولا في معنى من المعاني
الإنسانية انطباع ، خفت نفس العلم بينهم فلم ييسق
به رمق (١) ، وكسدت سوق المعارف بينهم فياسخنة (٢)
عين من رمق ، والمدينة نفسها ليس لها بر ولا بحر ،
ولا سحر ولا نحر ، وضعت في سبخة قرعا ، لا ماء بها
ولا مرعى ، ولا تثبت أصلاً ولا ثقل فرعاً ، وما كان حالها
في القديم ، إلا آية من آيات هذا الدين القويم ،
إن أسسها المخلصون من أهله ، المتسكون بحبله ،
السالكون لحزنه (٣) وسهله ، أهل الصرائم (٤)
النافذة الماضية ، والصوارم القاضية القاضية ، والههم
العالية الغالية ، فرسان الحرب والحراب ، وليوث
الطعان والضراب ، رضي الله عنهم ما ساح في السدو (٥)
فدفد (٦) ، ولاح في الجوفرقد (٧) .

-
- (١) الرmq : بقية الروح . الصحاح ، مادة : رمق .
(٢) سخنة المين : نقيض قرتها ، وأسخن الله عينه ، أي أبكاه .
الصحاح ، مادة : سخن .
(٣) حزنه : الحزن : ما غلظ من الأرض . الصحاح مادة : حزن .
(٤) الصرائم : الصريمة : العزيمة على الشيء . الصحاح مادة : صرم .
(٥) الدو : العفازة . الصحاح ، مادة : دوى .
(٦) الغدغد : الأرض الستوية . الصحاح ، مادة : فدفد .
(٧) فرقد : الفرقدان : نجمان قريبان من القطب . الصحاح ، مادة :
فرقد .

وقد كان شأنُ القيروانِ في غابرِ الزمانِ ، بحيث لا يجبهله
إنسانٌ ، ولا يحمله لسانٌ حسبك ببلدٍ وضعت الأُوضاعُ
في فضلِهِ ، وولدت الأُسماع من وصفِ وائلِهِ وطلهِ ، مأوى
العلماءِ والصلحاءِ في حياتِهِمْ ، وكفائِهِمْ (١) بعد
وفائِهِمْ ، بلدٌ لا يُناظرُهُ إقليمٌ ، ومتى ذكر علماءُ هـ فليس
إلا التسليمُ ، ولكنها الأيامُ ، إذا أعطت أخذت ، وكلما
عطت (٢) نبتت ، تلوي على متعذر ، ولا تعسرف
فضل المعذر على المعذر ، إن سالت سالت ، وإن
هادت (٣) داهنت (٤) ، وإن وافقت فارقت ، ومهما
حلت ما حلت (٥) ، لا تبقى ولا تذر ، فليكن العاقل
منها على حذر (٦) .

وعند مدينة القيروان المشهورة . وقف العبدري وقفةً ثانية ، فهو
مع مسارعته إليها ، وجدّه في البحث عنها ، إلا أنه كما يذكر في النص
لم يجد إلا رسوماً وآثاراً محوطة ، أما أهلها فقد نهم نهما مقدعا ، فهم

-
- (١) كفائهم : الكفات الموضع الذي يكفت فيه شيء أي يضم .
الصاحح ، مادة : كفت .
- (٢) عطت : عطف الثوب تعطه عطا ، أي شقه طولا ، الصاحح ،
مادة : عطط .
- (٣) هادت : هاد يهود هودا ، تاب ورجع إلى الحق ، الصاحح ،
مادة : هود .
- (٤) داهنت : المداهنة كالمصانعة . الصاحح ، مادة : دهن .
- (٥) ما حلت : المحل : الجدب . يقال : بلد ما حل وزمان
ما حل . الصاحح ، مادة : محل .
- (٦) رحلة العبدري ، ص ٦٤ .

جفاة الطباع ، ليست لهم أدنى علاقة بالحضارة ، ولا بمعنى من معاني الإنسانية ، ولا بالعلم والمعارف ، ثم يعود إلى المدينة نفسها ، فيصفها بعدم مجاورتها لسبر واسع ، ولا بحر قريب ، وأنها موضوعة في سبخة قرعاء ليس فيها ماء ، وليس فيها نباتات أو أشجار تزينها ، لعدم صلاح النبات في أرضها ، ثم يذكر الأسباب التي أدت إلى شهرتها قديما وخاصة عند تأسيسها ووصف أولئك الذين قاموا ببنائها من رجال هذا الدين المخلصين ، ثم أشار إلى مكانة هذه المدينة التاريخية الهامة التي لا يجهلها أحد ، فهي مأوى العلماء والصلحاء الذين لا يناظرهم غيرهم .

وأخيرا يذكر بالحسرة والأسى فعل الأيام وتقلباتها وأخذها بعد العطاء ، وكيف أنها لا تفرق بين صغير وكبير ولا تعرف فضل أحد على آخر .

والنص كما نلاحظ مليء بالصورة البلاغية من استعارات ومحسنات بدعية كما أن تقسيماته الموسيقية جميلة ، وسجعاته موحدة في أكثر أجزاءه ، وقد أعطته تلك الصور وهذه التقسيمات روعة فنية تدلنا على القدرة الأدبية التي يتمتع بها العبدري .

وتمثل هذه القطعة الفنية مرثية نثرية أخرى تضاف إلى سابقتها التي رأيناها عند ابن المعتز في وصف سامراء ، وعند العبدري نفسه في وصف قسطنطينة .

ويصف مدينة قابس :

” ثم وصلنا إلى مدينة قابس ذات المنظر الخبيث والمحيا
العابس ، هواً وخيماً (١) ، ولوؤم طبع وخيم ، وتضييع
المصليات والمساجد ، وقلة اعتناء بكل راع وساجد ،
مفانيهم إلى النجوم عالية ، ومعانيهم أسفل التخوم
هاوية ، إلى عفونات تخبو (٢) لقربها المصابيح ،
وتنحو (٣) بالحوول (٤) كل وجه صبيح ، تفسد
الأذهان والألوان ، وتضرم للمزاج المعتدل نار
الحرب العوان (٥) ، تنصب عليه مجانيق الطوى
فتقذفه بجلاميد الخوى (٦) ، وترسيه بسهام الروائح
المنكرة ، عن قسي الأهوية المقيرة ، بأكف الأبخرة
المكدرة ، فما تلبث أن تحط علاه ، وتبيح للإسهام
حمامه (٨) ، تنساب حواليه أنهار تشتعل بها في حشى
الظمان نار ، ودارت بها غابة من نخيل ، قد طلست

-
- (١) شيء وخيم أي وبه . الصحاح ، مادة : وخم .
(٢) خبت النار تخبو خبوا : أي طفئت . الصحاح ، مادة : خبا .
(٢) النحو : القصد والطريق . الصحاح مادة : نحا .
(٤) حال لونه أي تغير واسود ، الصحاح ، مادة : حول .
(٥) العوان من الحرب : التي قوتل فيها مرة بعد مرة ، الصحاح
مادة : عون .
(٦) الجلود : الصخر . الصحاح ، مادة : جلد .
(٧) خوت المرأة وخويت أيضا خوى أي خلا جوفها عند الولادة
الصحاح ، مادي : خوى .
(٨) الحمى موضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرعى . لسان العرب ،
مادة : حما .

ثمرتها بكف كل بخيل ، فلوأناها (جبله بن الأبيهم) (١)
أو حل جهاها (إبراهيم بن أدهم) (٢) ، لم تتل الأبرقية
الدينار والدرهم . على أن الهواء العفن قد منعها
الجفوف (٣) ، فليس لها على الخنزير (٤) والقشأ
شُفوف (٥) ، لأنه إذا أفردت عن أشجارها القطوف ،
بدت العفونة بها تطوف .
وأما العلم عندهم فقد ركزت ريحه ، والجهل لديهم
لا يوسى جريحه ، عام لا يتطرق إليه الخصوص ، وظاهر
جاء على وفق النصوص ، وهذا حكم استفدته من
العيان ، ونتيجة الاختبار لهم والامتحان .
نعم بها آحاد الفضلاء الصالحاء ، كالشعرة البيضاء
في اللثة (٦) السوداء ، يستمطر بهم المزن إذا
لم يسبل (٧) سبله ، والتادر لا حكم له . . . (٨)

-
- (١) جبله بن الأبيهم ، الفسائي أبو المنذر ، ملك آل جفنة بالشام أسلم . . .
فلما كان زمن عمرا ترد ولحق بالروم . سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٢ . ٥٥
(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر أبو اسحاق العجلي
.. الزاهد أحد الأعلام . . . توفي سنة ١٦١ هـ . الوافي بالوفيات ج ٥ / ٣١٨-٣١٩ .
(٣) جف الثوب وغيره يجف بالكسر جفافا وجفوا . الصحاح ، مادة :
جفف .
(٤) الخنزير : العوسج . . إذا زاد جفوفه . لسان العرب ،
مادة حزز .
(٥) شَفَّ جسمه يشف . شفوا ، أي نحل . الصحاح ، مادة : شفف .
(٦) اللثة بالكسر : الشعر يجاوز شحمة الأذن . الصحاح ، مادة : لم .
(٧) أسبل المطر والدمع إذا هطل . الصحاح ، مادة : سبل .
(٨) رحلة العبدري ، ص ٧٤ - ٧٥ .

أما وصف مدينة قابس فقد خصه المبدري لذمها فنظرها
خبيث ووجهها عابس وهوأءها وخيم ، و تطرق إلى أهلها منذ بداية
النص فذكر إهمالهم للمساجد والمصلين . واهتمامهم بالمعاني مع
تقصيرهم في المعاني ، ثم وصف المعفونات الموجودة فيها وأثرها
في فساد الأذهان والألوان والأمزجة . وعلى الرغم من وجود غابسة
من نخيل تحيط بها ، إلا أنها بيد البخلاء ولا يستطيع أحد أن ينال منها
إلا بالدرهم أو الدينار ، ثم ذكر العلم وكيف تم إهماله والجهل وكيف ظهر
أثره على الخاص والعام .

وأخيرا استثنى وجود بعض الفضلاء من الصالحين غير أنهم
كالشجرة البيضاء في اللة السوداء ، وأنهم كالنادر الذي لا حكم له .
والنص مع أنه ذم لهذه المدينة إلا أن تقسيماته التقاربية
وتوحيد سجة أكثر أجزاءه ، وما فيه من استعارات وتشبيهات تظهر
عليه لسة فنية واضحة من حيث التنسيق والتركيب أما ألفاظه فان
الفرابة عليها ظاهرة والتكلف فيها واضح .

وعلى الرغم من أن هذه الظواهر من مميزات أسلوب المبدري
في كثير من النصوص إلا أننا نلاحظ زيادة تأثيرها في هذا النص مما
يقلل من قيمته الفنية ، مع ما فيه من صور بلاغية ومحسنات إلا أن الفرابة
تحت من شأنه وتدنى من مكانته .

و يصف مدينة طرابلس :

" ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس وهي للجهل مآتم
وما للعلم بها عرس ، أقفرت ظاهراً وباطناً ، وذمها
الخبيرُ بها سائراً وقاطناً ، تلمع لقاصدها لعان البرق
الخب ، وترية ظاهراً شرقاً والباطن قد قطب
اكتنفها البحرُ والقفرُ ، واستولى عليها من عربان البر
ونصارى البحر النفاق والكفر ، وتفرقت عنها الغضائلُ
تفرق الحجيج يوم النفر ، لا ترى بها شجراً ولا شراً ،
ولا تخوض في أرجائها حوضاً ولا نهراً ، ولا تجتلي
روضاً يحوى نوراً ولا زهراً ، بل هي أقفر من جوف حمار ،
وأهلها سواسية كآسنان الحمار ، ليس على ناشئ
منهم فضلٌ لذي شيبة ، ولا لذي الفضل بينهم
هيبة ، ترى أجساماً حاضرة ، والعقول في عقل
غيابات الغيبة ، وملا بس يلبسها ليلبس بها من
ملا بس العيوب العيبة ، إلى بخل لومازج ماء البحر
جمد ، أو خالط الهواء سكن في آزار وركد ،
وخلق يضيق به متسع الغضاء ، ونزق يحق له فسي
ذمهم كشف الغطاء ، وأذهان أريت في الضيق على
الخاتم ، سواء لديهم من حارب بها ومن سالم (٢) .

ويواصل ذمه لهذه المدن مستخدماً طريقة واحدة في الذم ،
فالفواصل متقاربة التقسيمات وتوحيد السجعة ظاهر في كل جزء على
حدة ، وقد استخدم بعض الصور البلاغية في هذا النص كالاتصارات

والتشبيهاً فأصبح الذم مقذعاً فهو منذ البداية يصورها مأتماً للجبهل،
وليس للعلم بها أثراً، كما أنها مقفرة الظاهر والباطن، لذلك ذمها السائر
والساكن، وقد اكتسب أهلها من سكان البر ونصارى البحر النفاق والكفر،
وزهدت عنهم الفضائل، ثم إنها خالية من الأشجار والثمار والاحواض والآنهار،
والرياض والآنهار ثم شبيهاً في الإقار بجوف الحمار، وسخر من أهلها
وأنتهم كأنتان الحمار في عدم مراعاة أحدهم حقوق الآخر، فلا يقدر منهم
الصغير الكبير، وليس لصاحب الفضل عندهم مكانة، وهم أجسام بدون عقول،
وفيهم من البخل سوء الخلق، والنزق وضيق الأذهان، ما يربو عن الوصف.
ويعد هذا النص أحد نماذج الذم التي جاءت كثيراً في نصوص العبدري.

ويصف مدينة الإسكندرية :

(١) " مدينة الحصانة والوثاقة، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة،
وظلاوة (٢) المنظر وحلاوة المذاقة، كل عنها ظفر
الزمان، ونابه منها جيش الحدان (٣) وأحزابسه،
فلم تبد عليها للزمان ضراعة، ولا وكست لها في معاملاته
سلعة ولا بضاعة، ولا وقفت له موقف ذل يوماً ولا ساعة،
بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل، وصابت كيدته حتى
اضحل سحره وبطل، ولم تصغ أذنا إلى ما يوعد
به من الخنا (٤)، والخطل (٥)، فهي واقفة وقوف

(١) رجل طلق الوجه وطلق الوجه وقد طلق بالضم طلاقة . الصحاح ،
مادة : طلق .

(٢) الطلاوة : الحسن والقبول . الصحاح مادة : طلاء .

(٣) حدان الدهر وحوادثه : نوبة وما يحدث منه . لسان العرب ،
مادة : حدث .

(٤) الخنا : الفحش ، الصحاح ، مادة : خنا .

(٥) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب . الصحاح مادة خطل .

(٢) الأَطْوَادِ ، ساميةٌ بطرفٍ غيرِ كليلٍ (١) وجيدٍ غيرِ منادٍ ،
 آخذةٌ من الكُفْرِ وأهلهِ بالخنقِ (٢) حتى أبدلتهم
 من الصافيِ الروقِ الكدرَ الرنقِ (٤) ، فسا مروا الأسفَ
 سامرةً الندى للمُحلقِ (٦) ، ودجا عليهم ليلٌ هم
 أدلهم (٧) بعدَ نهارٍ سرورٍ تألقَ واضطرم عليهم
 الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم ، وقالوا عضو لا يتفرق .
 مدينةٌ فسيحةُ السِديانِ ، صحيحةُ الأركانِ ، مليحةُ
 البنيانِ ، تسفرُ عن حيا جميل المنظرِ ، وترنو بطرفِ
 ساجٍ أهوراً تبسم عن ثمر كالأقحوان (٨) إذا
 نور ، كأنه لم يغيب عنها شخصُ الإسكندرِ بما ساس
 فيها من عجائب مانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها
 عجبٌ ، قد سترحسنتها حسنٌ غيرها وحجبٌ ، ووفى فيها
 الإتيقانُ حقه كما وجبَ ، وقد أغنى عن تسطير وصفها
 ما سطره الأعلام ، وصرت به على المهارقِ الأَقلامُ (٩) (١٠)

- (١) كللت من المشي أى اعيتت . وسيف كليل الحد ورجل كليل
 اللسان وكليل الطرف . الصحاح ، مادة : كلل .
 (٢) آده أيضا بمعنى حناه وعطفه . الصحاح ، مادة : أود .
 (٣) الخنق بكسر النون : مصدر قولك خنقه يخنقه خنقا . لسان العرب
 مادة : خنق .
 (٤) راق الشراب والماء يروقان . . : صفوا . لسان العرب ، مادة : روق .
 (٥) الرنق : تراب في الماء من القذى ونحوه . لسان العرب ،
 مادة : رنق .
 (٦) المحلق : حلق القمر وتحلق : صار حوله داره . لسان العرب
 مادة : حلق .
 (٧) ادلهم الليل والظلام : كثف واسود ، وليلة مدلهمة أى مظلمة .
 لسان العرب ، مادة : دلهم .
 (٨) الأَقحوان : البابونج ، وهونيت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه
 أصفر . الصحاح مادة : قحا .
 (٩) المهرق : الصحيفة ، والجمع المهارق . الصحاح مادة : هرق .
 (١٠) رحلة العبدري ، ص ٩٠ .

أما مدينة الاسكندرية فانه قد خصها بقطعة جميلة من العدح
مستخدما في ذلك الأسلوب الإضافي الذي لاحظنا كثيرا استخدامه
عند عدد من الناثرين (مدينة الحصانة والوثاقة ، بلد الإشراق اللامع
والطلاقة ، طلاوة النظر ، حلاوة المذاقة) .

ثم ذكر شموخ هذه المدينة التاريخية على مر الزمن ، وعدم
خضوعها ومذلتها أمامه في يوم من الأيام ، بل ولا في ساعة من الساعات .
واستدل بذلك على قوة ثباتها وصرها ، وعدم سماعها لما يوعد به من
الكوارث والأحداث .

وقد استخدم في هذا الجزء كثيرا من الصور البلاغية وبخاصة
الاستعارات .

وإذا كانت الفواصل قد جاءت طويلة في بداية النص فإنه في
الجزء الثاني منه أتى بفواصل قصيرة تتدرج في الطول مرة أخرى
حتى نهايته .

وعلى الرغم من جمال النص لتقسيماته وكثرة الصفات التي
أضفاها العبدري على هذه المدينة إلا أنه قد اشتمل على عدد كبير من
الألفاظ الغريبة التي تتطلب من القارئ الرجوع الى معاجم اللغسة
لشرحها .

ويصف مدينة القاهرة :

" ثم وصلنا الى قاعدة الديار المصرية ، ومدينة المملكة
بالبلاد الشرقية ، فوجدنا معدية المعنى ، بيمض
ما رأينا بها وسمعنا ، وهي مدينة كبيرة القطر ،
وساكنها يحاكي عديد الرمل والقطر ، وهي مع ذلك

تَصْفُرُ عَنْ أَنْ يَسْطُرَ ذِكْرُهَا فِي سَطْرٍ، تَرِيكَ صُورَةَ لَيْلَى
فِي عَيْنِ ابْنِ الْحَمِيرِ، وَتَسْفِرُ لَكَ خَبْرَتَهَا عَنْ وَجْهِ
كَثِيرٍ، تَبْلُدُ الذِّكْرَ النَّحْرِيرَ وَتَحْمِيرَ، وَتَكْدُرُ الذَّهْنَ
الصَّقِيلَ وَتُغَيِّرُ، وَتَنْفِي بِأَزَاهَا وَقَذَاهَا كُلَّ فَاضِلٍ
خَيْرٍ (١) ...

وَنَيْلَهَا مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا عَذُوبَةً وَاتِّسَاعًا، وَغَلَّةً وَانْتِفَاعًا
وَقَدْ وَضَعْتَ عَلَيْهِ الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى، فَصَارَ كَسَلِكَ انْتِظَمَ
دُرْرًا (٢)

وعلى الرغم من أن العبدري قد أعجب بكثير من المدن التي
شاهدها فوصفها خير وصف ومع أن مدينة القاهرة مشهورة إلا أنه يرى
أن هذه الشهرة قد طغت على الحقيقة وأنها كبيرة في الحجم، كثيرة
السكان إلا أنها لا تحتوى على شيء آخر يجذب الإنسان إليها بل
العكس من ذلك فهي تنفي بأزاهها وقذاهها كل فاضل خير.

ويعود فيمجب بنيلها وعذوبته واتساعه، وانتفاع الناس به وانتظام
المدن والقرى على حافتيه .

والعبدري قد ذم أكثر من مدينة وهو في ذمه لتلك المدن
يستخدم نفس أسلوب المدح من حيث التراكيب وتقسيم الجمل والمحسنات
البلاغية كما هو واضح في هذا النص .

(١) رحلة العبدري ، ص ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

ويصف مكة المكرمة :

" دخلت البلد الأمين مقر المجد الصميم ^(١) والشرف
المكين ، فخر بقاع الأرض كلها على مر السنين ، . . .
يا له مشهد أشهد له التنزيل بالفضل ، وسما عن
أن يقرن بمديل أو مثيل ، ما كاده أحد إلا وشي ^(٢)
حده قليل ، ولا مال إليه بظلم إلا والآفات عليه تعميل ،
﴿ ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

بلد كأن نفوس الخلق عجت من طينته ،
فالخواطر مشفولة بتصور زينتته ، انزعج عنه عقل طال
ما سار على هيئته ، وابتذل بالسمى بدن نشأ على
سكينته ، يقطع إليه ميلاً بعد ميل ، كم حوى من مآثر
لا تحد ، كم ضم من مفاخر لا تعد ، كم به من أشعث
دعوته لا ترد ، توده الدنيا وهو يعلم ما يود ، مسأل
عنها وهي للمقول تستميل .

حرم لا يهتك حماه ، شرف لا يحط علاه ، علم
لا يجعد هداه . . . هو ربيع ^(٣) السلافة لا ربيع بسذي
سلم ، كم فيه للهدى من رسم وعلم ، وكم جبر بسبه
من الدين ما انثلم ^(٤) ، كم أمه بالقصد ناقص فلم يلبث

-
- (١) صميم الشيء : خالصه . الصحاح ، مادة : صم .
(٢) شبة كل شيء : حد طرفه ، الصحاح ، مادة شبا .
(٣) الربيع : المحلة . الصحاح ، مادة : ربيع .
(٤) الثلثة : الخلل في الحائط وغيره . الصحاح ، مادة : ثلم .

أَنْ أُمَّدَّ بِالتَّفْضِيلِ ، هَنِيئًا لِمَنْ أَصْبَحَ بِهِ قَاطِنًا ، لَقَدْ
ظَفَرَ بِالْمَنَى ظَاهِرًا وَبِاطِنًا ، يَكْفِيهِ فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ كِتَابِنَا
﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (١)

وفي وصف مكة المكرمة - زادها الله شرفا وأمنا وكرما وتعظيما - بدأ
باستخدام الأسلوب الإضافي (مقر المجد الصميم ، فخر بقاع الأرض)
ثم بين أن هذا المشهد لا أهميته قد شهد له التنزيل ، وأنه قد سماع عن
التشبيه والتمثيل ، وأشار بعد ذلك إلى حفظ الله له من كل من أراد به
سوءا مينا قصة أصحاب الفيل ، ووضح انشغال الخواطر به ، وكان نفوس
الخلق قد عجت من طينته ، وبين كيف انزعج عقله نحوه حتى وصل
إليه .

وأخيرا يتساءل عما حواه من مآثر ، وضم من مفاخر وما فيه من فضلاء
صالحين ،

واختتم النص بوصف حرمة ، وشرفه ومكانته ، وخضوع الناس له ،
وخشوعهم فيه ، وهنا من كتب الله له السكنى فيه .

ومن خلال النص تتضح قدرة العبدري على الإبداع ، فالتقسيمات
بارزة ، وسجعة الفواصل موحدة في كل جزء ، والاقتباسات القرآنية ظاهرة .
إلا أنه لم يستقص فيه جميع الجوانب .

(١) رحلة العبدري ص ١٦٩ .

ثم يصف مدينة الخليل عليه السلام :

” ثم وصلنا بعد ثمانية أيام إلى المحل الأنيس ،
والمعهد الذي يتخير فيه مقيل وتعريين ، والمنزل
الذي حكم له القدر بالسعادة حين التأسيس ، مشوى
لكل خاشع ونيب ، ومستقر كل خائف حذر من التأنيب ،
ومناخ كل مشتاق يحن حنين النيب (١) ، حرم
الخليل عليه السلام ، وهي قرية مليحة المنظر
والمخبر ، أنيقة السموع والبصر ، مشرقة كالصبح
إذا أسفر (٢) .

ويتابع العبدري وصفه للمدن بنفس الأسلوب الذي بدأه به
فالفواصل كما تلاحظ طويلة في البداية مع محافظة على السجعة والحرف
الذي قبلها (أنيس ، تعريين ، تأسيس) ثم منيب ، تأنيب ، النيب .
وجاء في نهاية النص بجمل قصيرة إذا قورنت بسابقتها (حرم الخليل عليه
السلام ، مشرق كالصبح إذا أسفر) ثم لا يخفى ما في هذه الجمل
من التعة النفيسة ، لحسن اختيار ألفاظها ، وسهولة عباراتها ، ووضوح
معانيها ، والاقتراسات القرآنية فيها . ومع ذلك فالنص لم يستقص فيه كل
جوانب المدينة ولكنه اقتصر على بعض صفات عامة كما تلاحظ .

-
- (١) النيب : الناب ، السنة من النوق والجمع النيب . الصحاح ،
مادة : نيب .
(٢) رحلة العبدري ، ص ٢٢١ .

ويصف مدينة بيت المقدس :

” ثم وصلنا إلى بيت المقدس زاده الله تعظيما ،
والحفه (١) ميرة دائة وتكريما ، مسجد الانبياء
وقبلتنا قديما ، ومطلع الأولياء يظلمهم عظيما فعظيما
، أحد المساجد التي إليها تعمل المطى ، وتضاعف
بها الحسنات لكل برتقي ، مصعد نبينا عليه السلام ،
إلى مستوى يسمع فيه صرير الأقلام ، ومعراجة حين
عسمس (٢) الظلام ، إلى مناجاة الملك العلام ،
والقدس المقدس المنقى من الآثام ، نجمة من راد
ورى من حام ، خفق برقه فوق من شام ، وتدفق
ودقه (٣) غأفرق ذوالهيام ، لونطق محتجاب فضيلته
الشام ، لآفحم المراق أى إفحام : (٤)

وفي وصفه لبيت المقدس يستمر أيضا في نفس الأسلوب فالفواصل
طويلة والسجعات موحدة بل في هذا النص التزم بتوحيد حرفين قبل
حرف الروى (تعظيما ، تكريما ، عظيما) وكذلك في (السلام ، الأقلام ،
الظلام ، العلام) .

ثم هو مع ذلك قد أشار إلى مكانة بيت المقدس الدينيسية
فهي مسجد الأنبياء ، وقبلتنا قديما ومطلع الأنبياء ، وأحد المساجد

(١) الحفه : لعفت الرجل الحفه لحفا : طرحت عليه اللحاف

وغظيته بثوب . الصحاح مادة : لحف .

(٢) عسمس الليل : اذا أقبل ظلامه . الصحاح ، مادة : عسمس .

(٣) ودقه : الودق : العطر . الصحاح ، مادة : ودق .

(٤) رحلة العبدري ص ٢٢٨ .

التي تشد إليها الرحال ، وتضاعف فيها الحسنات ، ومصعد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم وممرجه .

والنص كما هو واضح تبدو عليه لسة فنية جميلة فجلسه مقسمة تقسيما موسيقيا ، وسجماته موحدة في كل جزء من أجزائه وقد أحسن اختيار ألفاظه وصياغة عباراته ، حتى ظهر بهذا المستوى .

وأخيرا يصف مدينة سوسة :

” ثم وصلنا إلى مدينة سوسة ، وهي مدينة مليحة ، برية بحرية ، وحولها بساتين وثمار ، وهي في نفسها متقنة محكمة العمل ، مؤسسة بقوة ، وكلها صخر منحوت . . . ولكنه قد سحب الزمان على الكل ذيل البلى . ورمى الداخل والخارج بسهم التوى (١) فعادت بعد الصون بزره مكشوفة ، وصارت محاسنها مكشوفة ، فخفضت خضوع ذي عز قد ذل ، وخشعت خشوع الكثير إذا قل ، ترنو إلى البر والبحر بمقلة خائف ، وتحاذر منهما أنواع المتالف ، لا ترى بها زعيم محبر (٢) ، ولا فارس دفتر (٣) ، قد خرس بها لسان الطلب وعاد لفريق الجهل على فئة العلم الغلب ، فامحقت (٤) بها آثاره ”

(١) التوى مقصور : هلاك المال ، الصحاح ، مادة : توى .

(٢) بزره : البزر البقل وغيره . الصحاح مادة : بزره .

(٣) محبر : سهم محبر ، حسن البرى . لسان العرب ، مادة : حبر .

(٤) الدفتر : واحد الدفاتر وهي الكرايس ، الصحاح ، مادة : دفتر .

(٥) فامحقت : محقه أي أبطله ومحاه . الصحاح ، مادة : محق .

كل فضيلة ، وصيرها الجهل معرّسه ومقيله ، تلاشت
قواها فلم يبقَ بها إلا رَمَقٌ ، وكساها الزمانُ شوبَ
الهبوانِ فامحى رونقها وامحق ، لا تمد في الأمن ساعة
من الدهر باعا ، ولا تميز فتشبع أهلاً جياعاً ، وجامعها
الطليح قد علا عليه الشحوبُ ، وأبلى حسنه وقائعُ
الخطوبِ ، نازلتُه وليس له يدان بالدفاع ، فاستكان
وأطرق إطراق الشجاع ، وما عصم من ريب الزمانِ فريق ،
ولا اعتصم معتصم بذروة نيق^(١) ، وبالله الاستعانة
والتوفيقُ . (٢)

ومدينة سوسه على الرغم من الاعتراف لها بالملاحة والجمال ،
والتفاف البساتين حولها ، وإتقانها وإحكام وقوة تأسيسها ، غير أنه يتحسر
ويتألم لما حل بها من بلى أعادها بعد الصون بزرّة مكشوفة ، وكيف
تحولت محاسنها وتغيرت معالمها حيث شبهها بالعزيز إذا نزل ، والكثير
إذا قل وكيف أصبحت بجانب البر والبحر تنظر إليها نظرة الخائف ،
وتخشى منها أنواع المتألف . ثم وصف حالة أهلها وأنه لا يكاد يوجد
بينهم زعيم مشهور ، ولا فارس مقدم ، ثم أشار إلى خفوت نور العلم وتغلب
الجهل عليه ، وانتهاء الفضائل بسبب ذلك منها . وأخيراً وصف مسجدها
وكيف قارعت الخطوب حتى أبلت حسنه وأعلت عليه الشحوب .

والتأمل لهذا النص لا يخفى عليه ما فيه من جمال فني يظهر
واضحا من خلال التقسيم الموسيقي لجمله ، واشتماله على كثير من التشبيهات

(١) النيق : أرفع موضع في الجبل والجمع نياق . الصحاح ، مادة : نوق .

(٢) رحلة المبدري ، ص ٢٣٨ .

والاستعارات التي تعد من سمات أسلوب العبدري البارزة التي
واكبت أسلوب عصره الملىء بكثير من المحسنات التي تصل أحيانا إلى
حد التعقيد والتكلف .

كما أن هذه القطعة تعد مرثية جديدة عرف فيها العبدري
- وفي ما سبق من مرثيه النثرية التي ألمحنا إليها - وصلت إليه حالة تلك
المدن في عصره من هبوط في كل جانب من جوانب الحياة ما دفعه
إلى إنشائها وإخراجها بهذه الصورة وهذا الأسلوب .

الباب الثاني

نظور وصف المدن والأقاليم وخصائصها الفنية
ويتضمن الفصول الآتية

الفصل الأول : بدايات النشر الفني في وصف المدن والأقاليم .

الفصل الثاني : الأساليب الفنية في وصف المدن والأقاليم .

الفصل الثالث : أهم الخصائص الفنية في وصف المدن والأقاليم .

الفصل الأول

بدايات النشر الفني في
وصف المدن والأقاليم

الفصل الأول

بدايات النشر الفني في وصف المدن والأقاليم

عرضنا في الباب الأول ما أمكننا جمعه من النصوص النثرية الفنية في وصف المدن والأقاليم، تلك النصوص التي وردت في الفترة من القرن الثالث حتى القرن السابع للهجرة .

على أننا اكتفينا بعرضها دون بيان مراحل التطور التي مر بها هذا اللون من النشر الفني .

وسوف نستعرض في هذا الباب - بإذن الله تعالى - تلك المراحل مع عرض موجز لما كان عليه ذلك الوصف في الفترة التي سبقت القرن الثالث الهجري، في محاولة لبيان النشأة الأولى لهذا الضرب من النشر الفني، ومدى تأثير الناثر العربي بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي جاء فيها وصف الجنة وأنهارها وأشجارها وقصورها ودرجاتها، وكانت المثل الأعلى والنبراس الأول الذي اهتدى به الناثرون عند وصفهم فيما بعد .

والواقع أننا لم نتمكن حتى الآن من العثور على أي نص فني وصف المدن والأقاليم في العصر الجاهلي رغم البحث الدقيق عن مثل تلك النصوص .

ومع ذلك فليس باستطاعتنا الجزم بأن الناثر العربي قد أهمل هذا الجانب، مع علمنا أن كثيرا من لديهم القدرة على ذلك قد خرجوا عن حدود الجزيرة العربية لسبب أو لآخر إلى تلك المدن والأقاليم وشاهدوها عن كثب .

ومن ذلك ما كان يتم خلال رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، فقد ذكر المفسرون أن الرحلة التي وردت في السورة الكريمة^(١) كانت " في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارة وغير ذلك " (٢).

وكان يقوم بها القرشيون كما هو واضح من السورة، ولا بد أنهم قد شاهدوا خلال تلك الرحلات كثيرا من المدن اليمنية والشامية؛ وأن بعضهم قد وصفها لأفراد القبيلة عند عودته منها، ردا على استفساراتهم عن مثل تلك البلدان، ولو بعبارات موجزة، غير أن ذلك الوصف لم يصلنا لأسباب ربما كان منها، تأخر فترة التدوين، وعدم اهتمام عرب الجزيرة بحفظ أوصاف مدن بعيدة عنهم، ولأن أصحاب تلك المدن الذين يهتمهم حفظ مثل ذلك الوصف كانوا لا يترددون كثيرا على الجزيرة آنذاك، بل إن حرص الناس على زيارة الجزيرة جاء بعد ظهور الدعوة الإسلامية ودخول الناس فيها أفواجا، وعند ذلك كان القرآن ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فاشتغل جميع المسلمين بحفظه تاركين ما سواه.

ولم تكن قبيلة قريش هي التي قام أبناءؤها بمثل تلك الرحلات فحسب، بل إن كثيرا من الشعراء قد خرجوا عن نطاق الجزيرة العربية حين اضطرتهم ظروف خاصة لمثل ذلك. ومنها ما كان لامرئ القيس ابن حجر بعد مقتل أبيه، من قدومه على السموءل^(٣) ووصوله إلى قيصر

(١) سورة قريش .

(٢) تفسير ابن كثير، طبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، سنة بدون، ج٤، ص ٥٥٣.

(٣) السموءل بن غريظ بن عادي الأزدى : شاعر جاهلي حكيم، من سكان خيبر (في شمال المدينة) توفي نحو سنة ٦٥ ق. هـ، الأعلام، ج ٣، ص ١٤٠.

الروم ولا بد أنه قد مر خلال هذه الرحلة بإقليم الشام ومدنه، وكذلك المناطق الواقعة في بلاد الروم، كما جاء في كتب الأدب^(١). أيضا ما قام به الشاعران: النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، من زيارات للشام ووصف لملوكه^(٢). ومع ذلك فإن الأستاذ غوستاف غرناوم يرى "أن الفترة الكلاسيكية في الأدب العربي هي فترة الجاهلية ولم تكن المدن حينئذ تلعب دورا هاما في الحياة العربية" ويرى أن ذلك يفسر لنا "أنه لم يكن قد نشأ بعد أسلوب خاص بوصف المدن"^(٣).

ونرى أن إعطاء حكم نهائي في مثل هذه الحالات يعتمد من الصعوبة بمكان، وذلك لعدم وجود الأدلة الكافية حتى الآن، وقد يأتي يوم يظهر فيه خطأ مثل هذه الأحكام، عند اكتشاف مخطوطات جديدة تحمل في طياتها نصوصا فنية يعود تاريخها إلى الفترة المذكورة.

كما يرى الأستاذ صلاح الدين المنجد أن "التحدث بفنائل البلدان من الأمور التي أحدثت بعد ظهور الإسلام وهي تناظر في الجاهلية التحدث بأمجاد القبائل وأيامها ومفاخرها"^(٤).

والواقع أن فنائل البلدان يعد لونا مستقلا بذاته، وأن التحدث بأمجاد القبائل وأيامها ومفاخرها قد تحول في فجر الإسلام

(١) النظر الأثافي - أبو الفرج الأصفهاني - دار الكتب المصرية، القاهرة

سنة ١٩٣٦م ج ٩ ص ٩٩.

(٢) النظر مروج الذهب، المسعودي، ج ٢ ص ١٠٧.

(٣) دراسات في الأدب العربي، غوستاف غرناوم، ترجمة إحسان

عباس وآخرين، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر،

بيروت - نيويورك سنة ١٩٥٩م، ص ٢٢٨.

(٤) صلاح الدين المنجد، مقدمة تحقيق كتاب فنائل الشام

ودمشق للربيعي ص ٥، مطبعة الترقوي دمشق سنة ١٩٥٠م.

إلى ذكر فضائل الصحابة والقبائل العربية ثم عادت تلك الفاخر من جديد في العصر الأموي، للحالة السياسية التي كانت تسيطر على المجتمع آنذاك .

أما فضائل البلدان ، فقد بدأت بوصف الجنة وذكر بعض المدن والأقاليم في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، وسوف نبين بإيجاز كيف سار هذان الضربان من النشر الفني في خطين متوازيين منذ فجر الإسلام حتى بداية القرن الثالث الهجري ، موضوع الدراسة . على أننا سنلمس وجود نصوص في وصف الأشخاص وذكر القبائل ترجع إلى العصر الجاهلي بخلاف فضائل البلدان التي لم نجد حتى الآن مثل تلك النصوص كما بيّنا .

فما نسب إلى العصر الجاهلي في ذكر فضائل الأشخاص وقبائلهم ما جاء عن النابغة الذبياني من ثناء مسجوع أنشده أمام عمرو بن الحارث الغساني قال فيه :

"ألا انعم صباحاً أيها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ،
والأرض وطاؤك ، ووالدائ فداؤك ، والعرب
وقاؤك ، والعجم حماؤك ، والحكماء جلساؤك ،
والمدارة (١) سمارك ، والمقاول (٢) إخوانك ،
والعقل شعمارك ، والحلم دثارك ، والسكينة مهادك ،
والوقار غشاؤك ، والبر وسادك ، والصدق رداؤك ،

(١) الدرر : زعيم القوم والمتكلم عنه . والجمع مداره . الصحاح ، مادة : دره .

(٢) المقول : القيل بلفظة أهل اليمن . والجمع المقاول ، والقيل ملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم . الصحاح ، مادة : قول .

والْيَمِينُ حِذَاؤُهُ كَ ، وَالسَّخَاءُ ظَهَارَتُكَ ، وَالْحَمِيَّةُ بَطَانَتُكَ ،
وَالْعَلَاءُ عَلَايَتُكَ ، وَأَكْرَمُ الْأَحْيَاءِ أَحْيَاؤُهُ كَ ، وَأَشْرَفُ
الْأَجْدَادِ أَجْدَادُكَ ، وَخَيْرُ الْآبَاءِ آبَاؤُهُ كَ ، وَأَفْضَلُ
الْأَعْمَامِ أَعْمَامُكَ ، وَأَسْرَى الْأُخْوَالِ أُخْوَالُكَ ، وَأَعْسَفُ
النِّسَاءِ حَلَاثُكَ ، وَأَفْخَرُ الشَّبَانِ أَبْنَاؤُهُ كَ ، وَأَطْهَرُ
الْأَمْهَاتِ أَمْهَاتُكَ ، وَأَعْلَى الْبَنِيَانِ بَنِيَانُكَ ، وَأَعْدَبُ
الْمِيَاهِ أَمْوَاهُكَ ، وَأَفِيحُ الدَّارَاتِ دَارَاتُكَ ، وَأَنْزَهُ
الْحَدَائِقِ حَدَائِقُكَ ، وَارْفَعِ اللَّبَاسَ لِبَاسِكَ ، قَسَدُ
حَالِفِ الْإِضْرِيحِ عَاتِقِيكَ ، وَوَلَامِ السِّكِّ سِكِّكَ (١) ،
وَجَاوِرِ الْعَنْبِرِ تَرَائِيكَ (٢) ، وَصَاحِبِ النِّعَمِ جَسَدِكَ ،
الْمَسْجِدِ (٣) آتِيَتِكَ ، وَاللَّجِينِ (٤) صَاحِفِكَ ،
وَالْعَصْبِ (٥) مَنَادِيكَ ، وَالْحَوَارِي (٦) طَعَامِكَ ، وَالشَّهِيدِ
إِدَامِكَ ، وَاللَّذَاتِ غِذَاؤُهُ كَ ، وَالْخَرْطُومِ (٧) شَرَابِكَ ،
وَالْأَبْكَارِ مَسْتَرَاكِكَ ، وَالْأَشْرَافِ مَنَاصِفِكَ (٨) ، وَالْخَيْرِ

-
- (١) الْمَسْكُ بِالْفَتْحِ : الْجِلْدُ . الصَّحَاحُ : مَادَةٌ : مَسْكٌ .
(٢) التَّرِيبَةُ : وَاحِدَةُ التَّرَائِبِ وَهِيَ عِظَامُ الصَّدْرِ . الصَّحَاحُ ،
مَادَةٌ : تَرَبٌ .
(٣) الْمَسْجِدُ : الذَّهَبُ . الصَّحَاحُ ، مَادَةٌ : عَسْجِدٌ .
(٤) اللَّجِينُ : الْفِضَّةُ . الصَّحَاحُ ، مَادَةٌ : لَجِينٌ .
(٥) الْعَصْبُ : ضَرْبٌ مِنَ بَرُودِ الْيَمِينِ . الصَّحَاحُ ، مَادَةٌ : عَصْبٌ .
(٦) الْحَوَارِيُّ : وَلَدُ النَّاقَةِ وَلَا يَزَالُ حَوَارًا حَتَّى يَفْصَلَ ، فَإِذَا فَصَلَ
عَنْ أُمِّهِ فَهُوَ فَصِيلٌ . الصَّحَاحُ ، مَادَةٌ : حَوْرٌ .
(٧) الْخَرْطُومُ : الْخَمْرُ . الصَّحَاحُ ، مَادَةٌ : خَرْطُمٌ .
(٨) النِّصْفُ بِكَسْرِ الْمِيمِ : الْخَادِمُ ، وَالْجَمْعُ مَنَاصِفٌ . الصَّحَاحُ ،
مَادَةٌ : نِصْفٌ .

بفناءك ، والشربساحة أعدائك ، والنصر منوط بلوائك ،
والخذلان مع ألوية حسارك ، والبر فعلك . قد
طحطح (١) عدوك غضبك ، وهزم مغانيهم (٢)
مشهدك ، وسار في الناس عدلك ، وشسع (٣) بالنصر
ذكرك ، وسكن قوارع (٤) الأعداء ظفرك ، الذهب
عطاؤك ، والدواة رمزك ، والأوراق لحظك واطراقتك ،
وألف دينار مرجوحة انماؤك ، أيقاخرك المنذر اللخمي ،
فوالله لققاك خير من وجهه ، ولشمالك خير من يمينه ،
ولا أخصمك خير من رأسه ، ولخطوك خير من صوابه ،
ولصمتك خير من كلامه ، ولا أمك خير من أبيه ، ولخدمك
خير من قومه ، قهبل لى أسارى قومي ، واسترهن بذلك
شكري ، فإنك من أشرف قحطان ، وأنا من سروات (٦)
عدنان .

-
- (١) طحطح بهم طحطحة وطحطاحا ، إذا بددهم ، الصحاح ،
مادة : طحطح .
- (٢) المغنى : واحد المغاني ، وهي المواضع التي كان بها أهلوها .
الصحاح مادة : غنى .
- (٣) الشاسع والشسوع : البعيد ، الصحاح ، مادة : شسع .
- (٤) القارعة : الشديدة من شدائد الدهر ، هي الداهية ،
الصحاح ، مادة : قرع .
- (٥) عمر بن المنذر اللخمي ملك الحيرة في الجاهلية ، عرف ينسبه
الى أمه هند . توفي سنة ٤٥ ق.هـ . الاعلام جده ص ٨٦ .
- (٦) سراة كل شيء : أعلاه ، وسراة الفرس أعلا ظهره ووسطه ،
والجمع سروات . الصحاح ، مادة : سرا .

فرفع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة
على رأسه ، وقال : بمثل هذا فليثن على الطسوك ،
ومثل ابن الفريمة (١) فليدحهم ، وأطلق له أسرى
قومه . (٢)

وقد أتيت بالقطعة النثرية كاملة ، كما جاءت في كتاب الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني ، ومن خلالها يتبين أن هذا الثناء يمثل صورة
واضحة لما كان عليه وصف الأشخاص في العصر الجاهلي .

كما يتضح جمال أسلوب وصف الأشخاص ، والثناء عليهم ، وذكر
الأمجاد ، الذي كان يرتجله الناثر العربي في كثير من الأحيان ، فيأتي
به سجعاً ، قصيراً ، يختار فيه أجمل الألفاظ ، ويستقصي فيه جميع
الخلال الكريمة التي يتحلى بها موصوفه كما رأينا .

أما في العصر النبوي الزاهر ، فقد تحول وصف الأشخاص
والثناء عليهم ، والفاخرة بالأنساب إلى فضائل خصَّ به الرسول الأعظم
- عليه أفضل الصلاة والسلام - بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، وعلى رأسهم
الخلفاء الراشدون . ومن ذلك ما ورد " عن عبدالله بن الزبير أن النبي
صلى الله عليه وسلم نظر إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : هذا عتيق الله
من النار فمن يومئذ سمي عتيقاً وكان قبل ذلك اسمه عبدالله بن عثمان . (٣)

(١) هو حسان بن ثابت بن النذر الخزرجي الأنصاري شاعر النبي

صلى الله عليه وسلم . أحد المخضرمين . . . اشتهرت مدائحه

في الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام . توفي سنة ٥٤ هـ .

الأعلام ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) الأغاني - ج ١٥ ص ١٥٩ - ١٦١ .

(٣) رواه الهزار والطبراني بنحوه ورجالهما شقات . مجمع الزوائد ومنبع

الفوائد . المهيبي - ط ٢ دار الكتب - بيروت سنة ١٩٦٧ م ،

ج ٩ ص ٤٠ .

ومن ذلك ما روى " عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن في السماء ملكين أحدهما يأمر بالشدة ، والآخر باللين ، وكل مصيب ، جبريل وميكائيل ، ونبيان أحدهما يأمر بالشدة والآخر باللين ، وكل مصيب ، وذكر إبراهيم ونوحا ، ولوى صاحبان أحدهما يأمر بالشدة والآخر يأمر باللين ، وكل مصيب وذكر آبا بكر وعمر " . (١)

وما جاء في حق علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما روى " عن أبي إسحاق أن عليا لما تزوج فاطمة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : زوجتني أعيش عظيم البطن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد زوجتكه وإنه لأول أصحابي سلما ، وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما " . (٢)

والأحاديث النبوية الكريمة في مثل هذا كثيرة جدا ، غير أننا اكتفينا بما ذكرناه كأثلة على ما جاء في فضائل الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد كانت هذه الفضائل تمثل أعلى الأوسمة لأنها تأتي من أحب الناس إلى نفوس الصحابة الذي لا ينطق عن الهوى وكان الصحابة في ذلك العهد يخشون على أنفسهم أشد الخشية أن ينزل في أحدهم قرآن يرضه إلى فريق المنافقين أو غيرهم من أعداء الدعوة فإذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهم بخيرا استبشر وهناك كل أصحابه بتلك المكرمة . ولم تقتصر هذه الفضائل في ذلك العصر على أشخاص الصحابة فحسب ولكنها تجاوزتهم إلى القبائل العربية التي اعتنق أهلها

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات . مجمع الزوائد ج ٩ ص ٥١ .

(٢) رواه الطبراني وهو مرسل صحيح الإسناد . مجمع الزوائد ، ج ٥

الإسلام ودافعوا عن العقيدة جنبا إلى جنب مع المهاجرين والأنصار.
وفضائل القبائل في الأحاديث الشريفة منها ما جاء في ذكر
قبيلة واحدة كما روى : " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : نعم القوم الأزد ، طيبة أفواههم برة أيمانهم
، نقية قلوبهم " (١)

" وعن غالب بن أبحر قال : ذكرت قيس عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : رحم الله قيسا ، قيل يا رسول الله ترحم على قيس قال :
نعم . إنه كان على دين أبينا إسماعيل بن إبراهيم خليل الله . . . إن
قيسا فرسان الله في الأرض . . . إنما قيس بيضة تفلقت عنا أهل البيت ،
إن قيسا ضراء الله في الأرض ، يعني أسد الله " (٢)

وجاءت أحاديث أخرى تذكر فضائل لا أكثر من قبيلة واحدة ومن
ذلك ما روى : " عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : قریش والآنصار وجهينة ومزينة ، وأسلم وغفار وأشجع وسليمان
أولياي ، ليس لهم ولي دون الله ورسوله " (٣)

(١) رواه أحمد وإسناده حسن . مجمع الزوائد ج١٠ ص ٤٩٠

(٢) رواه الطبراني في الكبير والآنصار ورجالهم . مجمع الزوائد

ج١٠ ص ٤٩٠

(٣) رواه أبو يعلى والآنصار بنحوه ورجالهم رجال الصحيح غير

عبد الملك بن محمد بن عبد الله وهو ثقة وفيه خلاف .

مجمع الزوائد ج١٠ ص ٤٢٠

ومنه ما روى * عن أبي هريرة قال : ذكرت القبائل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن بني عامر فقال : جمل أزهر يأكل من أطراف الشجر ، وسألوه عن هوازن فقال : زهرة تنبع ماءً ، وسألوه عن بني تميم فقال : ثبت الأقدام ، رجح الأحلام ، عظماء الهام ، أشيد الناس على الدجال في آخر الزمان ، هضبة حمراء لا يضرها مسن ناوأها : (١)

وروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلم سألها الله ، وغفار غفر الله لها ما أنا قلته ولكن الله عز وجل قاله : (٢)

وقد جاء على غرار ذلك الوصف ذكر الصحابة فضائل بعضهم بعضاً ، وعلى الرغم من طول النصوص الواردة في مثل هذه الأوصاف إلا أنها قد اقتضت على تمسكهم بالإسلام وإخراصهم للدعوة وصدق إيمانهم ، وتحليهم بالخلال الإسلامية الخالصة ، ونصرتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما روى " عن أسيد بن صفوان ، صاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال :

" لما توفي أبو بكر سجد بثوب فارتجت المدينة بالبكاء ودهش (٣) كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء علي بن أبي طالب مسترجعاً مسرعاً وهو يقول :

(١) رواه الطبراني في الأوسط وفيه سلام بن صبيح وشقه ابن حبان

وبقية رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ج ١٠ ، ص ٤٣ .

(٢) رواه احمد والبخاري وابويعلی والطبراني باختصار عنهما وأسانيدهم

جيدة . مجمع الزوائد ج ١٠ ، ص ٤٦ .

(٣) دهش الرجل بالكسر يدّش دهشاً : تحير ودهش أيضاً فهو

مدهوش . وأدهشه الله . الصحاح مادة دهش .

اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت
الذي هو فيه أبو بكر فقال : رحمك الله يا أبا بكر ،
كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ،
وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناءً (١) ، وأحوطهم على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثهم على الإسلام ،
وأمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأفضلهم مناقب ،
وأكثرهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشبههم به هدياً
وخلقاً وسمتاً (٢) ، وأوثقهم عنده ، وأشرفهم منزلة .
وأكرمهم عليه منزلة ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله
وعن المسلمين خيراً . صدقت رسول الله صلى الله
عليه وسلم حين كذبه الناس فسمك صديقاً ، فقال :
والذي جاء بالصدق ، محمد - صلى الله عليه وسلم - صدق به
أبو بكر . آسيت حين بخلوا ، ووقت معه حين قعدوا ،
وصحبته في الشدة أكرم الصحبة ، والنزل عليه السكينة ،
رفيقه في الهجرة ومواطن الكربة ، خلفته في أمته
بأحسن الخلافة حين ارتدت الناس ، فقمت بدين
الله قياماً لم يقم خليفة نبي قط ، فوثبت حين ضعف
أصحابك ، ونهضت حين وهنوا ، ولزمت منهاج رسوله

(١) الغناء بالفتح : النفع . الصحاح ، مادة : غنى .

(٢) حذب عليه ، وتحذب عليه أي عطف عليه . الصحاح ، مادة : حذب .

(٣) السميت : هيئة أهل الخير ، يقال : ما احسن سمته أي هديه .

الصحاح ، مادة : سميت .

برغم المنافقين ، وغيظ الكافرين ، فقامت بالأمر حين فشلوا ،
ومضيت بنور الله إذ وقفوا ، كنت أعلاهم فوقاً ، وأقلهم
كلاماً ، وأصوبهم منطقاً ، وأطولهم صمتاً ، وأبلغهم
قولاً ، وكنت أكثرهم رأياً ، وأشجعهم قلباً ، وأشدهم
يقيناً ، وأحسنهم عملاً . وأعرفهم بالأمر ، كنت للدين
يعسوباً (١) ، وكنت للمؤمنين أبا رحيماً ، إذ صاروا
عليك عيالاً ، فحملت أثقال ما عنه ضعفوا ، وحفظت
ما أضعوا ، ورعيت ما أهملوا ، وصبرت إذ جزعوا
فأدرت آثار ما طلبوا ، ونالوا بك ما لم يحتسبوا ،
كنت على الكافرين عذاباً صاباً (٢) ، وللمسلمين غيثاً
وخصباً ، فطرت بغناها ، وفزت بحياتها (٣) ، وذهبت
بفضائلها ، وأحرزت سوابقها ، لم تغفل (٤) حجتك ،
ولم يزع قلبك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ،
كنت كالجيل لا تحركه العواصف ، ولا تزيه القواصف ،
كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمن الناس
عليه بصحبتك وذات يدك ، وكما قال : ضعيفاً في
بدنك ، قوياً في أمر الله ، متواضعاً عظيماً عند المسلمين ،
جليلاً في الأرض ، لم يكن لأحد فيك مهز ، ولالقاتل
فيك مغمز ، ولا فيك مطمع ، ولا عندك هوادة لأحد ،

(١) اليعسوب : ملك النحل ، ومنه قيل للسيد : يعسوب قومه .

الصاح ، مادة : عسب .

(٢) صببت الماء صبا فانصب ، أى سكبته فانسكب . الصاح ، مادة :

صيب .

(٣) الحيا مقصور : المطر والخصب . الصاح ، مادة حيا .

(٤) الفل بالفتح : واحد فلول السيف وهي كسور في حده . الصاح

، مادة : فلل .

الضعيفُ الذليلُ عندك قويٌ حتى تأخذ له بحقه ، والقويُّ
المميزُ عندك ذليلٌ حتى يؤخذ منه الحقُّ ، والقريبُ
والبعيدُ عندك في ذلك سواءٌ ، شأنك الحقُّ ، والصدقُ
والرفقُ قولك ، فاقلمتِ وقد نهجَ السبيلُ ، واعتدل بكِ
الدينُ ، وقوى الإيمانُ ، وظهر أمرُ الله ولو كره الكافرونُ ،
فسبقتِ والله سبقاً بعيداً ، وأتعبتِ من بعدك إتعباً
شديداً ، وفزتِ بالجنةِ . وعظمتِ رزيتك في السماء ،
وهدتِ مصيبتك إلا نام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،
رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا لله أمره ، فلن يُصاب بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبداً ، كنتِ
للدنِّ عِدَّةً وكهفاً ، وللمسلمين حِصناً وفئةً وأنساً ،
وعلى المنافقين غلظةً وغِيظاً ، فألحقك الله بنبيه ،
ولا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك . قال : وسكت
الناسُ حتى قضى كلامه ، ثم بكى أصحابُ رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقالوا صدقتِ يا ابن عم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهم : (١)

وعلى الرغم من أن الحديث المذكور فيه ما فيه إلا أنه يعثل
قطعة وصف فنية تدل على تحول تلك الفضائل المختصرة إلى نصوص
مطولة استقص فيها الإمام على كرم الله وجهه صفات الخليفة الأول أبي بكر
الصديق رضي الله عنه كاملة في خطبة مرتجلة ، إذا صحت نسبتها إليه .

(١) رواه البزار وفيه عمر بن ابراهيم الهاشمي وهو كذاب . مجمع

ومن ذلك ما ورد " عن علي بن أحمد السدوسي عن أبيه

قال :

" بلغ عائشة أن ناسا ينالون من أبي بكر فبعثت إلى
أزفلة (١) منهم ، فسدلت أستارها وعذلت (٢) وقرعت
وقالت : أبي وما أبيه ، أبي لا تعطوه الأيدي هيهات ،
والله ذاك طور منيف ، وظل مديد ، أنجح (٣) والله
إن كذبتم . وسبق إن ونيتم (٤) ، سبق الجواد إذا
استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ،
يفك عانيها ، ويريش (٥) ملقها (٦) ، ويـرأب
روعها ، ويلم شمشها ، حتى حليته قلوبها ، ثم
استشري (٧) في دينه ، فما برحت شكيمته (٨) في
ذات الله ، حتى اتخذ بفناء مسجدا يحيى فيه
مألمات المبطون ، وكان رحمه الله غزير الدمعة ،

-
- (١) الأزفلة : الجماعة . الصحاح ، مادة : زفل .
(٢) العذلت : الملامة . وقد عذلت . والاسم العذل ، بالتحريك
الصحاح مادة عذل .
(٣) أنجح الرجل : صار ذا نجح . . . ورأى نجيح أي صواب .
الصحاح ، مادة : نجح .
(٤) الونى : الضعف والفتور ، والكلال والإعياء . الصحاح ، مادة : وني .
(٥) رشت فلانا : أصلحت حاله . وهو على التشبيه . الصحاح ،
مادة : ريش .
(٦) الإملاق : الإفتقار . الصحاح ، مادة : لطق .
(٧) شرى الرجل واستشري ، إذا لج في الأمر . الصحاح مادة شرى .
(٨) فلان شديد الشكيمة ، إذا كان شديد النفس أنفاً أبياً . الصحاح ،
مادة شكم .

وقيدَ الجوانح (١) ، شجى (٢) النشيج (٣) ،
فاصفت (٤) إليه نسوان مكة ، وولدائها يسخرون منه
ويستهزؤون به ، " الله يستهزئ بهم ويمدهم في
طغيانهم يعمهون " فأكبرت ذلك رجالات قريش
فحنّت (٥) قسيها وفوقت (٦) سهاها ، وامتلوه غرضا
فما فلوا له شياة ، ولا تصفوا له قناة ، ومروا على سبائه (٧)
حتى إذا ضرب الدين بجرانه (٨) ، وألقى بركه ،
ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة
أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبضه
الله عز وجل ، ضرب الشيطان رواقه ، ونصب حباله ،

-
- (١) الجوانح : الأضلاع التي تحت الترائب وهي ما يلي الصدر كالضلوع ما يلي الظهر ، الواحد جانحه . الصحاح ، مادة : جنح .
- (٢) الشجو : الهم والحزن ، الصحاح ، مادة : شجا .
- (٣) شج الباكي ينشج نشجا ونشيجا ، إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب . الصحاح ، مادة : نشج .
- (٤) أصفوا على كذا أي أطبقوا عليه . الصحاح ، مادة : صفق .
- (٥) قوسُ حنانه : تحن عند الإنهاض . الصحاح ، مادة : حنن .
- (٦) الفوق : موضع الوتر من السهم . تقول : فقت السهم فانفاق أي كسرت فوقه فانكسر وفوقته أي جعلت له فوقا . الصحاح ، مادة : فوق .
- (٧) السبساء : منتظم فقار الظهر . الصحاح ، مادة : سيس .
- (٨) ضرب الإسلام بجرانه أي ثبت واستقر . أساس البلاغة ، مادة : جرن .

ومدّ طنبه (١) ، وأجلب بخيله ورجله ، فاضطرب
حبل الإسلام ، ومزج عهده ، وماج أهله ، وعاد ميرمه
أنكاثا ، ونفى الفوائل (٢) ، وظنت الرجال أن قد
أكشبت (٣) أطماعهم ، ولات حين يرجعون ، وأنسا
والصديق بين أظهرهم ، فقام حاسرا مشمرا ، فرقع
حاشيته ، وجمع قرطته (٤) ، فرد يسر (٥) الإسلام
على غره (٦) ، ولم شعثه بطبه (٧) ، وأقام أوده (٨)
بثقافه (٩) ، فابذعر (١٠) النفاق بوطايه (١١) ،

-
- (١) الطنب : حبل الخباء ، والجمع أطناب . الصحاح ، مادة :
طنب .
- (٢) الفوائل : الدواهي . الصحاح ، مادة : غيل .
- (٣) كشبت الشيء أكشبه كثبا ، إذا جمعته . الصحاح ، مادة :
كشب .
- (٤) القراط : شمعة السراج ما احترق من طرف الفتيله . الصحاح ،
مادة : قرط .
- (٥) يسر القوم الجزور أي اجتزروها واقتسموا أجزاءها ، تاج العروس
، مادة : يسر .
- (٦) غرة كل شيء : أوله وأكرمه . الصحاح ، مادة : غرر .
- (٧) كل حاذق طبيب عند العرب . الصحاح ، مادة : طبيب .
- (٨) أود الشيء يأود أودا ، أي اعوج . الصحاح ، مادة : أود .
- (٩) الثقف : ما تسوى به الرماح . . . وتثقيفها : تسويتها . الصحاح
، مادة : ثقف .
- (١٠) ابذعروا ، أي تفرقوا . الصحاح ، مادة : بذعر .
- (١١) الوطاء : خلاف الغطاء . الصحاح ، مادة : وطأ .

وانتاش^(١) الدين بنعشه ، فلما راح الحفّ على
أهله وأقرّ الرؤوس على كواهلها ، وحقن الدماء في
أهبيها^(٢) ، حضرت منيته ، فسدّ ثلثته بشقيقه في
العرحة ، ونظيره في السيرة والمعدلة ، ذاك ابن
الخطاب ، لله أم حلت به ، ودرت عليه ، لقد أوحدت
به ففتح الكفرة وذيخها^(٣) ، وشرذ الشرك شذر مذر ،
وبعج^(٤) الأرض فقاءت أكلها ، ولفظت
خبثها ، ترأّمه^(٥) ويصدف عنها ، وتصدى^(٦)
له وبأباها ، ثم ورع فيها ، ثم تركها كما صحبها ،
فأروني ماذا تقولون ، وأي يومي أبي تنعمون ، أيوم
إقامته إزعدل فيكم ، أو يوم ظعنه إذ نظر لكم ،
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم^(٧)

-
- (١) التناوش : التناول . والانتياش مثله . الصحاح ، مادة :
نوش .
- (٢) الأهاب الجلد ما لم يدبغ ، والجمع أهب على غير قياس .
الصحاح ، مادة : أهب .
- (٣) الذبخ بالكسر : الكبر . التكلمه والذيل والصلة لكتاب تاج
اللسان وصاح العربية - الحسن الصنعاني - مادة : ذبخ .
- (٤) بعج بظنه بالسكين يبعجه بجماء . إذا شقه . الصحاح ،
مادة : بعج .
- (٥) رمت الناقة ولدها رعانا . إذا أحبته . الصحاح ، مادة :
رأم .
- (٦) الصدى : الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها .
الصحاح ، مادة : صدى .
- (٧) رواه الطبراني . وأحمد السدوسي لم يدرك عائشة ولم أعرفه ولا ابنه .
مجمع الزوائد ، ج ٩ ص ٤٨ - ٥٠ .

وبنفس الطريقة والأسلوب الذي أثنى فيه على بن أبي طالب كرم
الله وجهه - على خليفة رسول الله أبي بكر الصديق، جاء ثناء أم المؤمنين
رضي الله عنها وأرضاها .

فالخطبتان مليئتان بالمواقف الإيمانية الفريدة للصديق،
منذ بزوغ فجر الدعوة إلى أن اختاره الله إلى جواره راضيا مرضيا .
ثم بدأت بعد ذلك بوادر المفاخرة بالأنساب تعمود شيئا
فشيئا لتحتل مكانتها كاملة في العصر الأموي كما سنرى .

أما في عهد الخلفاء الراشدين فقد كانت أخف وطأة وأقل أثرا .
ومن ذلك ما ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى قال :

" لما قدم عمرو بن معد يكرب من الكوفة على عمر، سأله
عن سعيد بن أبي وقاص، فقال فيه ما قال من الثناء
، ثم سأله عن السلاح، فأخبره بما علم . ثم سأله عن
قومه، فقال له : أخبرني عن قومك منذ حج ودع
طيفا، قال : سلني عن أيهم شئت، قال : أخبرني
عن علة بن جلد، قال : هم فرسان أغراضنا، وشفاة
أمراضنا، وهم أعتقنا، وأنجينا، وأسرعنا طلبنا،
وأقلنا هربا، وهم أهل السلاح، والسماح، والرماح،
قال عمر : فما أبقيت لسعد العشيرة ؟ قال : هم
أعظمنا خميسا، وأسخانا نفوسا، وخيرنا رئيسا، قال :
فما أبقيت لمراد ؟ قال : هم أوسعنا دارا، وخيرنا
جارا، وأبعدنا آثارا، وهم الأتقياء البررة، والساعون
الفخرة، قال : فأخبرني عن بني زبيد ؟ قال : أنا
عليهم ضنين، ولو سألت الناس لقالوا : هم الرأس والناس
الأذناب . " (١)

ومع أن القصة لا تزال طويلة، إلا أن هذا الجزء يوضح لنا كيف كان العربي يفخر بقومه وقبيلته، وكيف عادت تلك العفاخرات بعد أن كثر عدد القبائل المدافعة عن الإسلام، ومشاركاتها في المعارك الإسلامية الشهيرة وتحقيقها أروع وأعظم الانتصارات في تاريخ الدعوات .

ولا نكاد نصل إلى العصر الأموي، حتى نجد أن تلك العفاخرات قد عادت إلى ما كانت عليه في العصر الجاهلي، بل ربما ازدادت حدة وضراوة بسبب الدعوات السياسية المختلفة، ونشوء الفرق الإسلامية التي طغت على هذا العصر في بعض الأحيان .

ومن أمثلة ذلك ما " ذكروا أن الضحاک ابن المنذر بن سلامة ذى فائش الحميري وكان أبوه وجده ملكين ، وكان وسيما دخل على معاوية بن أبي سفيان ، فاستشرفه معاوية حين نظر إليه ، فقال : من الرجل ؟ فقال :

من فرسان الصباح ، الملاعبين للرماح ، المبارين الرياح ، وكان معاوية متكئاً فاستوى قاعداً ، وعجب من قوله ، وقال : أنت إذا من قريش البطاح . قال : لست منهم ، لولا الكتاب المنزل والنبي المرسل لكنت عندهم راغباً ولقد يمهم عاباً ، قال : فأنت إذا من أهل الشراسة ذوى الكرم والرياسة ، كنانة بن خزيمه ، قال : لست منهم واني لا أطمو عليهم ببحر زاخر وملك قاهر وعز باهر ، وفرع شامخ وأصل بانخ . . . " (١)

والنص طويل جداً وقد تحول في نهايته إلى مفاخرة علنية بين معاوية والضحاک ، وخرجت تلك المفاخرة عن المألوف وهو ما يعبر عن الحالة السياسية التي كانت تسود المجتمع آنذاك .

(١) الأكليل - الهمداني ، دار الحرية للطباعة ، بغداد سنة ١٩٨٠ م ،

(١) ومن ذلك أيضا ما روى "أن الهيثم بن الأسود النخعي دخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : كيف علمك يا هيثم بقومك ؟ قال : كملك بملكك .

قال : فأخبرني عن همدان ، قال : أبناء المنون ، وفرسان الطلاحم . قال : فأخبرني عن كندة . قال : أولئك أشرفنا وديباجناء... قال : فأخبرني عن قضاة ؟ قال : فـرساننا في البهم (٢)

ومصايحنا في الظلم . قال : فأخبرني عن حمير . قال : أولئك وكرعنا ، وميت ملكنا . قال : وهل كان لكم ملك ؟ قال : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، وهسل تنكر الشمس المضيئة ، والفرقة الشاذخة (٣) ؟ قال : ما علمت ذلك ، ففضب النخعي وقال : لا أنت والله أعلم به منك بدار أمك ساعة خرجت إلى الدنيا... (٤)

والقصة أيضا طويلة كسابقتها . ونكتفي بهذا الجزء كمشال لهذا النوع من المفاخرة في العصر الأموي .

هذا ما كان من المفاخرة بالأنسب ، والذي سار في اتجاه مواز لذكر الفضائل ولم يتطور أحدهما عن الآخر كما رأينا بل تشابها في الأسلوب .

-
- (١) الهيثم بن الأسود النخعي المذحجي : خطيب وشاعر من ذوى الشرف والمكانة في الكوفة من المصمرين وكان ثقة في الرواية من خيار التابعين توفي نحو سنة ١٠٠ هـ . الأعلام ج ٩ ص ١١٤ .
- (٢) البهمة بالضم : الفارس الذي لا يدرى من أين يؤتى من شدة بأسه والجمع بهم . الصحاح ، مادة : بهم .
- (٣) الشاذخة : الفرقة التي فشت في الوجه من الناصية إلى الأنف ولم تصب العينين . الصحاح مادة شدخ .
- (٤) الإكليل : الهمداني ، ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

وفي العصر العباسي وبعد أن بلغت المفاخرة بالأُنساب
أوجها في الدعوة للشعبوية وغيرها من الدعوات . بدأت تظهر ردود
فعل من أمثال ما جاء عن الجاحظ في تحذيره من تلك المفاخرات ونقضه
لها والتفجير منها إن يقول :

” واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها، وضعوا
النظر فيها، مع اشتغالها على الفساد، وقد حبا البغضاء في
القلوب، والعداوة بين الأوداء : المفاخرة بالأُنساب
فإنه لم يفلط فيها عاقل قط، مع اجتماع الإنس جميعا على
الصورة، وإقرارهم جميعا بتفريق الأمور المحمودة والمذمومة،
من الجمال والدمامة واللؤم والكرم، والجبن والشجاعة
في كل حين، وانتقالها من أمة إلى أمة، ووجود كليل
محمود ومذموم، في أهل كل جنس من الأدميين، وهذا
غير مدفوع عند الجميع، فلا تجعلن له من عقلك نصيبا،
ولا من لسانك حظا تسلم بذلك على الناس أجمعين
مع السلامة في الدين.” (١)

أما فضائل البلدان فعلى الرغم من عدم حصولنا على نصوص يرجع
تاريخها إلى العصر الجاهلي حتى الآن، لما تقدم ذكره، فإن الذي
نستطيع الجزم به وتأكيدُه، هو ما مر به هذا اللون من النثر الفني بعد
ظهور الإسلام من أطوار ومراحل بدأت بالمعاني السامية التي استقاها

(١) الجاحظ حياته وآثاره، ط الحاجري، ط ٢، دار المعارف

مصر ص ٨٣ . وفي رسائل الجاحظ رسالة المعاد والمعاش

الناثر العربي ، من الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت في وصف الجنة ونعيمها ، وما أعدّه الله للمتقين من نعيم مقيم ، وما فيها من حقائق وأنهار وقصور ومنازل ودرجات ، وما وصف الله به أهلها من المؤمنين . ومن تلك الآيات المباركات قوله عز وجل :

* وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا ، مُتَكَئِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَوَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قَطُوفُهَا تَذَلِيلًا ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةِ مَنَافِئٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ، قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدْرُوهَا تَقْدِيرًا ، وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ ولدَانٌ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ، وَإِذَا رَأَيْتَ شَمْسًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خَضِرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ ، وَحَلُوهَا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسِقَاهُمْ رَبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا* . (١)

ويقول عز وجل :

* وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جنسَاتِ النِّعَمِ ، ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولِيَّينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (٢) ، مُتَكَئِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ ولدَانٌ مَخْلُودُونَ ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ،

(١) الدهر آية ١٢ - ٢١ .

(٢) موضونة : مضمرة بالذهب واللالى . ابن كثير ، ج٤ ، ص ٢٨٦ .

لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم
طيبر ما يشتهون . وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون .
جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً
إلا قِيلاً سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين .
في سدر مخضود . (١) وطلح منضود (٢) . وظل مدود .
وما مسكوب ، وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش
مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكاراً . عرباً
أتراباً (٤) . لأصحاب اليمين (٥) .

(٦) وشبه بهذا الوصف ما جاء في النصف الثاني من سورة الرحمن

ففيه ذكر لما أعد الله لعباده المتقين من عيون جارية وفواكه مختلفة وفرش
ناعمة ، وأزواج لم يسبق أن مسهن أنس أو جن ، وأنهن يشبهن الياقوت
والمرجان صفاء ونقاءً ، إلى غير ذلك من أسباب النعيم .

والآيات التي جاء فيها وصف الجنة كثيرة ، وسوف نكتفي هنا بذكر

أسماء بعض السور وأرقام الآيات الكريمة التي وردت فيها وهي : سورة
النساء آية ٥٧ ، والرعد آية ٣٥ والنحل آية ٣٢ والإسراء آية ٩١ والكهف
آية ٣٤ ومريم آية ٦٣ ، وفاطر آية ٣٥ والصفات آية ٤٩ والزخرف آية ٧٠
والدخان آية ٥٧ والطور آية ٢٥ والحديد آية ٢١ والصف آية ١٢ والحاقة
آية ٢٤ ، والنبأ آية ٣٦ . تلك هي الآيات التي أتت في وصف الجنة

(١) مخضود : هو الذي لا شوك فيه . ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٨ .

(٢) منضود ، أي متراكم الثمر . ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٨ .

(٣) عربا : متعشقات ، محبيات ، ابن كثير ج ٤ ص ٢٩١ .

(٤) أترابا : على ميلاد واحد . ابن كثير ج ٤ ص ٢٩١ .

(٥) الواقعة آية ١٠ - ٤٠ .

(٦) من آية ٤٦ حتى آية ٧٨ .

الحقيقية في الآخرة، وقد وردت آيات أخرى جاء فيها ذكر الجنات
والمقصود منها البساتين وحدائق الدنيا ومنها :
قوله عز وجل :

* كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم .
ونعمة كانوا فيها فاكهين * (١)

وقوله تعالى :

* لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين
وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة
ورب غفور * (٢)

وقوله تبارك وتعالى :

* فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام
كريم * (٣)

وقوله تبارك اسمه :

* وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع
ونخيل صنوان وغير صنوان (٤) يسقى بماء واحد ونفضل
بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات
لقوم يعقلون * (٥)

(١) الدخان آية ٢٧ .

(٢) سبأ آية ١٥ .

(٣) الشمراء آية ٥٨ .

(٤) صنوان : النخلات في أصل واحد ، وغير صنوان المتفرقات .

ابن كثير ج ٢ ص ٥٠٠ .

(٥) الرعد آية ٤ .

وقوله عز وجل :

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله
وتشبيهاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت
أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون
بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب
تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه
الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت
كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ (١)

وكانت هذه الآيات البينات ، خير رافد ومعين لا ولئك النافرين
الذين وصفوا المدن والأقاليم فيما بعد ، ولعل ما جاء عن أبي العلاء من
ذم مسقط رأسه العمرة خير دليل على الاقتباس من هذه الآيات حيث
يقول :

" هي ضد ما قال الله عز وجل ﴿ مثل الجنة التي وعد
المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ الآية . اسمها
طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورد بها محتبس ،
وظاهر ترابها في الصيف يبس ، ليس لها ماء جار ،
ولا يفرس بها غرائب الأشجار " . (٢)

(١) البقرة آية ٢٦٦ .

(٢) رسائل - أبي العلاء - أبو العلاء المعري - تحقيق د . عبد الكريم

خليفة ، ط : عمان سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م ، ج ١ ص ٣١٣ .

أما الأحاديث الشريفة التي وردت في وصف الجنة وكان لها أثر في أسلوب وصف المدن، فمنها ما ورد عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم لأصحابه :

”ألا مشر للجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، في مقام أبد . في حبرة ونضرة ، في دار عالية سليمة بهية .

قالوا : نحن المشركون لها يا رسول الله . قال : قولوا إن شاء الله ، قال : ثم ذكر الجهاد وحض عليه (١)

وعن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

”إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام“ . (٢)

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

”إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن من فلا يرى بعضهم بعضا“ . (٣)

-
- (١) سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ط : سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م شركة الطباعة العربية الرياض ، ج٢ ص ٤٥٥ .
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٣ سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م المكتب الاسلامي - بيروت - دمشق ج٢ ص ٢٢٠ .
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ج٢ ص ٢٢٦ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" (١)

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لما خلق الله الجنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر... " (٢)

وعن ابن عمر قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة فقال :

" من يدخل الجنة يحيا فيها لا يموت ، وينعم فيها لا يبأس (٣) ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، قيل يا رسول الله ما بناؤها ؟ قال : لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ملاطها (٤) المسك ، وترابها الزعفران ، حصاؤها اللؤلؤ والياقوت " (٥)

-
- (١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ج٣ ص ٨٣ .
(٢) رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جيد . مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٩٧ .
(٣) اليأس : العذاب . الصحاح ، مادة : بأس .
(٤) الملاط : الطين الذي يجعل بين مسافي البناء يملط به الحائط . الصحاح مادة ملط .
(٥) رواه الطبراني بإسناد حسن الترمذي لرجالهم ، مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٩٧ .

وعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

” في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ” . (١)

تلك الأحاديث التي جاءت في وصف الجنة وقد لاحظنا كيف اقتبس منها الناثرون عند وصفهم للمدن من خلال النصوص التي مرت بنا في الباب الأول .

والواقع أننا لا نستطيع استقصاء كل ما جاء عن الجنة من وصف ، سواء كان ذلك في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة ، وخاصة إذا عرفنا أن اسم الجنة قد تكرر ذكره في القرآن الكريم دون غيره في مائة وسبعة وأربعين موضعاً منها ما جاء بصيغة المفرد ، ومنها ما ورد بصيغة الجمع ؛ كما هو مفصل في معجم الفاظ القرآن الكريم ، مادة : جنن .

أما الأحاديث الواردة في فضائل المدن والأقاليم ، فهي كثيرة وتتفاوت درجات صحتها بسبب كثرة وضع الأحاديث في هذا الباب للعصبة والميل إلى البلدان التي ينتمى إليها الوضعون . ومن تلك الفضائل التي جاءت في وقت مبكر ضمن أحاديث

(١) رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح مجمع الزوائد ج ١ ص ٤١٢ .

وردت عن النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، ما جاء في فضل الشام
فقد روى " عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه . قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" يا طوبى للشام ! يا طوبى للشام ! يا طوبى للشام ! "

قالوا : يا رسول الله وبم ذلك ؟ قال : " تلك
ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام " (١)

وكذلك ما ورد " عن عبد الله بن حوالة أنه قال : يا رسول الله اكتب لي
بلدا أكون فيه ، فلو أعلم أنك تبقى لم أختر على قربك ، قال : (عليك
بالشام) ثلاثا .

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كراهيته للشام قال :
" هل تدرون ما يقول الله عز وجل ؟ يقول : يا شام
يا شام ! يدي عليك يا شام ! أنت صفوتي من بلادى ،
أدخل فيك خيرتي من عبادى ، أنت سيف نقمتي ، وسوط
عذابي ، أنت الأندر ، واليك المحشر ، ورأيت ليلة أسرى
بي عموداً أبيض كأنه لوؤ لوؤ تحمله الملائكة .
قلت : ما تحملون ؟ قالوا : نحمل عمود الإسلام .
أمرنا أن نضعه بالشام . وبينما أنا نائم رأيت كتاباً
اختلف من تحت وسادتي ، فظننت أن الله تخلى من أهل
الأرض ، فأتبعته بصرى ، فإذا هو نور ساطع بين يدي ،

(١) تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربيعي - محمد ناصر الدين
الألباني - ط ٤ بيروت سنة ١٤٠٥ هـ ص ١٢ . قال الألباني هو
حديث صحيح .

حتى وضع بالشام . فمن أبي أن يلحق بالشام فليلحق
بيمنه ، وليستق من غدرة ، فإن الله قد تكفل لي بالشام
وأهله . (١)

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل الشام ونحن نكتفي بما
نقلناه في فضلها ، وسنختار ما جاء في فضل بعض البلدان الأخرى .

ومن ذلك ما جاء في فضل اليمن حيث ورد " عن ابن عباس رضي
الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قال :

" الله أكبر إذا جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن ، قوم
نقية ظواهرهم ، حسنة طاعتهم ، أو كلمة نحوها ، الإيمان
يمان والفقہ يمان والحكمة يمانية . " (٢)

و " عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه
وعلى آله وسلم رفع رأسه إلى السماء فقال :

" أتاكم أهل اليمن كقطع السحاب ، خير أهل الأرض . فقال
رجلٌ ممن كان عنده منا يا رسول الله ؟ فقال كلمة
خفيفة : إلا أنتم وفي رواية : بينا نحن عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم بطريق مكة إذ قال : يطلع عليكم
أهل اليمن كأنهم السحاب هم خيار أهل الأرض . فقال

(١) المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩ قال الألباني حديث صحيح دون
قوله : " يا شام ، يا شام ، يدى عليك يا شام " وقوله : " أنت
سيفي نقتي ، وسوط عذابي - أنت الأندر " فإن هذا القدر
ما لم أقف عليه في غير هذا الحديث .

(٢) رواه البزار ، وفيه الحسين بن عيسى بن مسلم الحنفي وثقه ابن
حبان وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد

رجل من الأنصار : ولا نحن يا رسول الله فسكت . فقال :
ولا نحن يا رسول الله فسكت . قال : ولا نحن يا رسول
الله . فقال كلمة ضعيفة إلا أنتم" (١)

"وعن شبيب أبي روح أن رجلا أتى أبا هريرة فقال : يا أبا هريرة
حدثنا حديثا عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم . قال : فذكر
الحديث فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ألا إن الإيمان
يمان والحكمة يمانية وأجد نفس ربكم من قبل اليمن" (٢)

كما أن هناك أحاديث كثيرة وردت في فضائل اليمن وأهله وقد
اخترنا منها ما ذكرناه خشية الإطالة .

وقد أورد صاحب كتاب الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة
أحاديث نبوية في فضل مصر بعد أن سرد الآيات القرآنية التي أشارت إليها (٣)

ومما جاء في فضل مصر :

" عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط .

فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم نمة ورحما "

أو قال : " نمة وصهرا . . . " (٤)

-
- (١) رواه أحمد وأبو يعلى إلا أنه قال : فقال رجل من الأنصار : إلا
نحن ، والبخاري بنحوه والطبراني وأحد إسنادي أحمد وإسناد أبي
يعلى والبخاري رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ج ١ ص ٥٤-٥٥ .
- (٢) رواه أحمد ورجال الصحيح غير شبيب وهو ثقة . مجمع الزوائد
ج ١ ص ٥٥-٥٦ .
- (٣) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة - ابن ظهيره - ط دار
الكتب سنة ١٩٦٩ م . تحقيق مصطفى السقا ، كامل المهندس ،
ص ٧١-٧٢ .
- (٤) صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٢ م
ج ١ ص ٩٧ .

وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال :
" دعا نوح عليه السلامُ ربَّه لولده وولديه : مصرين
بيصرين حام بن نوح وبه سميت مصر. وهو أبو القبط
فقال : اللهم بارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض المباركة
التي هي أمن البلاد ، وغوث العباد ، ونهرها أفضل
أنهار الدنيا ، واجعل فيها أفضل البركات . وسخر لسه
ولولده الأرض ، وذلله لهم ، وقوهم عليها (١) .

ذلك ما اخترناه مما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة من ذكر
فضائل البلدان ، على الرغم من كثرة تلك الأحاديث وكثرة الضعيف منها بغية
تفضيل بعض البلدان على بعضها الآخر ، غير أن ما أثبتناه هنا هو أقربها
إلى الصحيح كما أشرنا عند تخريجها .

أما فضائل البلدان في عهد الخلافة الراشدة ، فقد وردت عنها
أحاديث تعد لبنات أساسية في وصف المدن والأقاليم ، لأنها انتقلت
من ذكر فضائل عامة إلى وصف أكثر تفصيلاً وشعولاً لجوانب الموصوف .
وأكثر ما كان يصدر مثل هذا الوصف ، عن الخليفة عمر أو بناءً
على طلب منه رضي الله عنه . ومن ذلك ما ورد في تاريخ بغداد قال :

" كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحمري : اختر لي
المنازل . قال : فكتب : يا أمير المؤمنين إنه بلغنا

(١) فضائل مصر ، الكندي ، ط : ١ ، مطبعة الإستقلال الكبرى - القاهرة

أن الأشياء اجتمعت فقال السخاء أريد اليمين . فقال
حسن الخلق : أنا معك . وقال الجفاء : أريد
الحجاز ، فقال الفقر : أنا معك . وقال البأس : أريد
الشام ، فقال السيف : وأنا معك . وقال العلم : أريد
العراق ، فقال العقل : وأنا معك ، وقال الغنى : أريد
مصر ، فقال الذل : وأنا معك . فاختر لنفسك . قال :
فلما ورد الكتاب على عمر قال : فالعراق إذا ، فالعراق
إذا . (١)

وكان السعدي قد أورد القصة نفسها غير أنه لم يذكر بمسـ
البلدان التي وردت هنا وجاءت بعض الصفات على نحو لم يأت في هذه
القصة . وقد تقدم عرضها كاملة في الباب الأول عند الحديث عن
السعدي .

كما سبق لنا عرض رواية أخرى " أن عمر بن الخطاب حين فتح
الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر ، وغير ذلك من الأرض
كتب إلى حكيم من حكماء مصر " بذلك وطلب منه أن يصف له المدن
وأهويتها ومساكنها وما توشه التربة والأهوية في سكانها . وتقول الرواية
: إن ذلك الحكيم قد رد على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن الله قد
قسم الأرض أقساماً وذكر الجهات الأربع الشرق والغرب والشمال والجنوب ،

(١) تاريخ مدينة بغداد ، الخطيب البغدادي ، الناشر دار الكتاب

ثم أوضح صفة كل جهة ، ثم وصف له القطع المسكونة من الأرض ، فوصف الشام ومصر واليمن ، والحجاز والمغرب والعراق والجبال وخراسان وفارس ، وخورزستان والجزيرة ، واعتذر عن وصف الهند والصين وبلاد الروم لعدم حاجة أميرالمؤمنين لذلك .

والواقع أن هذا الوصف الذي عرضناه كاملاً في الباب الأول يعد في غاية الجمال ، وعلى الرغم من أن الحكيم قد مدح بعض تلك الأقاليم وذم بعضها الآخر إلا أن أسلوبه في كل ذلك قد امتاز بقصر الجملة وتوحيد الفواصل واختيار الألفاظ المناسبة في المدح والذم ، فكانت هذه الأوصاف إرهابات أولية لنشأة وصف فني متدفق بلغ أوجه في القرن الرابع كما لمسنا من خلال النصوص .

وإذا كان أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد اهتم بوصف الأقاليم كما لاحظنا في الروايات السابقة ، فإنه قد خص بعضها بأن طلب من ولاته عليها أن يصفوها له ليكون بذلك أكثر علماً ودراية بها . ومن ذلك ما نقله الكندي في فضائل مصر " أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أميرالمؤمنين إلى عمرو بن العاص . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني فكرت في بلدك فإذا أرضك واسعة عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً ، وقوة في بروجها ، وقد عالجتها الفراعنة ، وعلموا فيها عملاً محكماً ، مع شدة عتوهم ، فعجبت من ذلك ، فأحب أن تكتب لي بصفة مصر كأنني أنظر إليها .

فكتب إليه عمرو بن العاص : بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لعبد الله عمراً أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ،
سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ،
أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وقرأته وفهمته ، وأما ما ذكرت
فيه من صفة مصر . فإن كتابي سيكشف عنك عن الخبر ،
ويرى على بالك بنافذ البصر .

إن مصر وما أحببت أن تعلمه من صفتها : تربة سوداء ،
وشجرة خضراء ، بين جبل أغبر ، وورمل أعفر (١) ، قد
اكتنفها معدن رقيقها . ومحط رزقها ، ما بين أسوان
إلى منشأ البحر ، في سح (٢) النهر مسيرة الراكب
شهرًا ، كأن ما بين جبلها وورملها بطن أقب (٣) ، وظهر
أجب (٤) ، يخط فيه نهر مبارك الغدوات ، ميمون
البركات ، يسيل بالذهب ، ويجري بالزيادة والنقصان
كجاري الشمس والقمر ، له أيام تسيل إليه عيون الأرض
وينابيعها ، مأمورة بذلك ، حتى إذا ربا (٥) وطما ، (٦)
واصلخ (٧) لجه (٨) ، واغلوب (٩) عيابه ، كانت

(١) الأعر : الأبيض وليس بالشديد البياض . الصحاح ، مادة : عفر .

(٢) سح الماء يسح أي سال من فوق . الصحاح ، مادة : سحج .

(٣) الأقب : الضامر البطن . الصحاح ، مادة : قب .

(٤) الجب : القطع وبمعير أجب بين الجيب أي مقطوع السنام .

الصحاح ، مادة : جب .

(٥) ربا الشيء يربوربوا ، أي زاد . الصحاح ، مادة : ربا .

(٦) طما الماء يطمو طموا ويظمي طميا ، إذا ارتفع وملاء النهر . الصحاح ،

مادة : طما .

(٧) اصلخم اصلخاما ، إذا انتصب قائما ، الصحاح ، مادة : صلخم .

(٨) لجة الماء بالضم : معظه ، وكذلك اللج . الصحاح ، مادة : لجاج .

(٩) اغلوب العشب : بلغ والتف . الصحاح ، مادة : غلب .

القرى بما أحاطَ بها كالربا لا يوصلُ من بعضها إلى
بعضٍ إلا في السفائنِ والمراكبِ ، ولا يلبثُ إلا قليلاً
حتى يكونَ كأولِ ما بدأ من جريهِ ، وأولِ ما طما من شربه ،
وحتى تستبينَ فنونهاً ومتونها ، ثم تنتشر فيه أمةٌ محقورةٌ ،
قد رزقوا على أرضهم جلدًا وقوةً . لغيرهم ما سعوا به
من كدهم بلا حمدٍ ينالهم من ذلك ، يسقون سهل الأرض
وخرابها وروابيها ، ثم يلقون فيها من صنوف الحب ما
يرجون به التمام من الرب ، وما يلبثُ إلا قليلاً حتى يشتد ،
ثم تسيلُ قنواته وتصفر .

يسقيه من تحته الشرى ، ومن فوقه الندى ، أو سحباً منهمراً
بالأرائك مستدر ، ثم في هذا الزمان من زمانها يفنسى
ذبابها ، ويبدأ في صرامها ، فبينما هي مدرة سوداء ،
(١)
إذا هي لجة زرقاء ، ثم غوطة خضراء ، ثم ديباجة رقشاء ،
ثم فضة بيضاء ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الفعّال لما
يشاء .

وإن خير ما اعتمدت عليه في ذلك شكر الله عز وجل يا أمير
المؤمنين على ما أنعم عليك منها ، فأدام الله لك
النعمة والكرامة في أمورك كلها ، والسلام (٢) .

(١) حية رقشاء : فيها نقط سواد وبياض . الصحاح ، مادة : رقت .

(٢) فضائل مصر ، ص ٦٠ - ٦٢ .

من هذا الوصف وما سبقه من نصوص تتضح اهتمامات الخليفة الثاني، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وتبرز خصائص هذا النثر في تلك الفترة المتقدمة من تاريخه ، كما يظهر جليا الفارق الكبير بين وصف المدن والأقاليم وذكر الأشخاص والفاخرة بالأُنساب كما بينا . وإلى جانب اهتمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوصف البلدان فقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بعض أوصاف للكوفة على الرغم من قصرها إلا أنها تدل على وجود هذا النوع من الوصف في تلك الفترة يقول رضي الله عنه :

” الكوفة كنز الإيمان ، وحجة الإسلام ، وسيف الله ورمحه ، يضعه حيث شاء ، والغدي نفسي بيده ، ليتصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز .

وكان سلمان الفارسي يقول : أهل الكوفة أهل الله ، وهي قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن .” (١)

ونلاحظ من القطعة القصيرة في وصف الكوفة ، مدى التأثير الإسلامي على الوصف الفني في هذه الفترة ، فالمزايا التي أضفاها علي رضي الله عنه على هذه المدينة ، جميعها ترتبط بالمعاني الإسلامية الكريمة فهي : كنز الإيمان ، وحجة الإسلام ، وسيف الله .

كما نلاحظ أن موقع أهل الكوفة في الوصف يأتي في آخر النص ، وهذا هو الترتيب الذي جاء فيما بعد ضمن كثير من النصوص ، ومع ذلك فإن

(١) معجم البلدان ، ج٤ ص ٩٢ .

سلمان الفارسي في العبارات التي وصف بها الكوفة عكس ذلك الترتيب،
والتزم بالمعاني الإسلامية السامية . فأهل الكوفة هم أهل الله ، وهي
قبة الإسلام ، ويحن إليها كل مؤمن . مع أن أهل الكوفة لم يزلوا ينادون في أي بلد ،
ويذكر " عن كعب الأحمبار أنه قال : من أراد أن ينظر إلى
شبه الجنة ، فلينظر إلى مصر إذا أخرفت ، وإذا أزهرت ، وإذا اطردت أنهارها ،
وتدلت ثمارها ، وفاض خيرها ، وغنت طيرها .

وعن عبد الله بن عمرو قال : من أراد أن ينظر إلى الفردوس ، فلينظر
إلى أرض مصر حين تخضر زروعها ، ويزهر ربيعها ، وتكسى بالنوار أشجارها ،
وتغني أطيافها " (١) .

وفي هاتين القطعتين وصف جميل لمصر ، ظهر فيه ذكر الجنة
والفردوس ، والأشجار والأنهار والثمار وغيرها من الألفاظ التي رأيناها
عند وصف الجنة في الآيات القرآنية الكريمة ، وهو أثر طموس واقتباس
واضح وتشبيه بديع ، مع ألفاظ وعبارات سهلة سلسلة عذبة .

وقد استمر وصف البلدان في عهد بني أمية بنفس الأسلوب الذي
سار عليه في عهد الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - من حيث سبب
إنشائه فكان يأتي إما بناءً على طلب الخليفة أو الوالي أو من إنشائه هو .
ومن ذلك ما جاء عن الحجاج بن يوسف الثقفي ، عندما ولي عس
أصبهان وهزاذ بن يزداد الأنباري وكان ابن عم لكاتبه زاذان فروخ

(١) فضائل مصر ، ص ٥٧ .

المجوس ، فكتب إلى الحجاج في بعض أوقاته في مقامه بأصبهان ،
يسأله نظراً لأهلها لبعض خراجهم ، فكتب إليه الحجاج كتاباً هذه
نسخة بعضه :

” بسم الله الرحمن الرحيم . وأما بعد ، فإني استعملتك
يا وهزان على إصبهان ، أوسع المملكة رقعة وعملاً ،
وأكثرها خراجاً بعد فارس والأهواز ، وأزكاها أرضاً ،
حشيشها الزعفران والورد ، وجبلها الفضة والإشمس ،
وأشجارها الجوز واللوز ، والكرام الكريمة والجلوز والفواكه
العذبة . طيرها عوامل العسل ، وماؤها فترات ،
وخيلها الماذيانات الجياد .
أنظف بلاد الله طعاماً ، وألطفها شراباً ، وأصحها
تراباً ، وأوفقها هواءً ، وأرخصها لحماً ، وأطوعها أهلاً ،
وأكثرها صيداً ، فأنخت عليها يا وهزان بكل كل أضطر
أهلها إلى سألتك ما سألت لهم لتغوز بما يوضع
عندهم (١)

وما نقله المسعودي عن أبي عبد الله النخعي قال :
” لما فرغ الحجاج من دير الجماجم (٢) وقد علمى عبد الملك
ومعه أشرف أهل المصريين فأدخلهم عليه ، فبينما هم عنده يوماً إذ

(١) ذكر أخبار إصبهان ، ج ١ ص ٣٧ .
(٢) بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها وعند هذا الموضع كانت الوقعة
بين الحجاج وابن الأشعث التي كسر فيها ابن الأشعث . معجم
البلدان ج ٢ ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

تذاکروا البلدان ، فقال محمد بن عمير بن عطار (١) :

" أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، إِنْ الْكُوفَةَ أَرْضٌ ارْتَفَعَتْ عَنِ الْبَصْرَةِ
وَحَرَّهَا وَعَمَّقَهَا ، وَسَقَلَتْ عَنِ الشَّامِ وَوَبَّأَهَا وَبَرَدَهَا ،
وَجَاوَرَهَا الْفَرَاتُ فَعَذَّبَ مَاؤُهَا ، وَطَابَ ثَرْمُهَا . " وقال
خالد بن صفوان الأهشي (٢) :

" أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : نَحْنُ أَوْسَعُ مِنْهُمْ بَرِيَّةً ، وَأَسْرَعُ
مِنْهُمْ فِي السَّرِيَّةِ ، وَأَكْثَرُ مِنْهُمْ قَنَدًا وَعَاجًا وَسَاجًا . مَاؤُنَا
صَفْوٌ ، وَخَيْرُنَا عَفْوٌ ، لَا يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِنَا إِلَّا قَائِدٌ
وَسَائِقٌ وَنَاعِقٌ . "

فقال الحجاج :

" أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمَوءِ مَنِينٍ : إِنِّي بِالْبَلَدَيْنِ خَبِيرٌ ، وَقَدْ
وَطَّقْتُهُمَا جَمِيعًا ، فَقَالَ لَهُ : قُلْ فَأَنْتَ عِنْدَنَا مُصَدِّقٌ ،
فقال : أَمَا الْبَصْرَةَ فَعَجَّوزٌ شَمَطَاءُ (٣) ، دَفْرَاءُ (٤) ،
بَخْرَاءُ ، وَأَوْتَيْتِ مِنْ كُلِّ حُلَى وَزِينَةٍ ، وَأَمَا الْكُوفَةَ فَشَابَةٌ حَسَنَاءُ
جَمِيلَةٌ ، لَا حُلَى لَهَا وَلَا زِينَةٌ ، فقال عبد الطك : فَضَلْتِ
الْكُوفَةَ عَلَى الْبَصْرَةِ . " (٥)

-
- (١) محمد بن عمير بن عطار بن حاجب التميمي الدارمي من أشرف الكوفة وأجوادهم ، له مع الحجاج وغيره من أمراءها أخبار . توفي نحو سنة ٨٥ هـ . الأعلام ج ٦ ، ص ٣١٩ .
- (٢) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو التميمي . . من فصحاء العرب المشهورين ولد ونشأ بالبصرة وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه . توفي نحو سنة ٣٣ هـ . الأعلام ج ٢ ص ٢٩٧ .
- (٣) الشمط بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والرجل أشمط . . والمرأة شمطاء . الصحاح ، مادة : شمط .
- (٤) الدفر : النتن خاصة . الصحاح مادة : دفر .
- (٥) مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٥٩ .

ذلك ما كان عليه وصف المدن والأقاليم في القرن الأول للهجرة .
ونجد ما يشبه ذلك من جوانب كثيرة في القرن الثاني الهجري حيث ورد
أن هارون الرشيد قال للحسن بن عمار :

” وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر تتكفأ أمواجها
على رياض كالدراي ، فما يرح بك التعدي لا رفاقهم
أن جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر ” (١)

وهنا يشبه الخليفة العباسي مدينة دمشق بالجنة ، وقد لاحظنا
هذا عند كثير من وصف دمشق فيما بعد ، كما أنه استخدم ^{أسماء} التفضيل
التي شاع استعمالها في جل هذا الوصف .

وكذلك ما نقله أبو نعيم الإصبهاني من أن ” أيوب بن زياد
الإصبهاني دخل على المأمون أمير المؤمنين فقال : يا أيوب صف لي
إصبهان وأوجز ، فقال يا أمير المؤمنين :

” هواؤها طيب ، وماؤها عذب ، وحشيشها الزعفران ،
وجبالها العسل ، غير أنها لا تخلو من خلال أربع :
جور السلطان ، وغلاء الأسمار ، وقلة الأقطار ، وفقد
سياه .

فأطرق المأمون ساعة ويده قضيب ينكث به في الأرض فرفس
رأسه وقال :

(١) مختصر كتاب البلدان - ابن الفقيه الهمداني - ط : بريل ليدن

يا أيوب : لعلَّ قراءَها منافقون ، وتجارها مريئون ،
رُتِّئاً لها شربةُ خمرٍ ، وفي أطرافها لا يصلون .^(١)

ذلك هو المصارع الذي مر به وصف المدن والأقاليم منذ ظهور
الإسلام حتى بداية القرن الثالث الهجري بإيجاز شديد .
وسوف نرى في الفصول القادمة بإذن الله تعالى كيف اتضح
معاله ومانت أساليبه ، وبرزت خصائصه الفنية في القرون التالية .

(١) ذكر أخبار أصبهان ، ج ١ ص ٣٨ .

الفصل الثاني

الأساليب الفنية في
وصف المدت والأقاليم
ويتضمن مبحثين

المبحث الأول : تطور وصف المدت .

المبحث الثاني : تطور وصف الأقاليم .

الفصل الثاني

الأساليب الفنية في وصف المدن والأقاليم

المبحث الأول : تطور وصف المدن :

وقبل أن نبدأ حديثنا عن ذلك التطور لا بد لنا من الوقوف عند لفظ مدينة ومعناه ، ثم نتبعه بذكر الأساليب التي أمكننا معرفتها من ذلك الوصف .

وبالرجوع إلى كتب المعاجم نجد أن " مدن بالمكان : أقام به .
ومنه سميت المدينة . . وتجمع على مدائن بالهمز وتجمع أيضا على مدن
ومدن " . (١)

والمدينة هي : " البلدة العظيمة تجمع المنازل والأسواق " . (٢)

وقد ورد لفظ المدينة في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعا وهو في جميع تلك المواضع معرفاً بالالف واللام وإذا رجعنا إلى لفظ (جنة) الذي ورد في القرآن الكريم غير معرف بالالف واللام فسنجده يساوي نفس العدد حيث ورد في أربعة عشر موضعا أيضاً .

(١) الصحاح ، مادة : مدن .

(٢) معجم ألفاظ القرآن ، مجمع اللغة العربية - ط ٢ الهيئة

المصرية للتأليف والطبع سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، ج ٢ ، ص ٦١٩ .

والآيات التي جاء فيها ذكر المدينة في القرآن الكريم هي :

قوله تعالى :

﴿ إِن هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ (١)

وقوله عز وجل :

﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾

وقوله :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن

رَسُولِ اللَّهِ ﴾ (٢)

وقوله :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ (٣)

وقوله تبارك اسمه :

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٤)

وقوله :

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾

وقوله :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ (٥)

وقوله :

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ (٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾

-
- (١) الأعراف آية ١٢٣ .
(٢) التوبة آية ١٠١ ، ١٢٠ .
(٣) يوسف آية ٣٠ .
(٤) الحجر آية ٦٧ .
(٥) الكهف آية ١٩ ، ٨٢ .
(٦) النمل آية ٤٨ .

وقوله :

* فأصبح في المدينة خائفاً يترقب *^(١)

وقوله تعالى :

* وجاء رجل من أقصى المدينة *^(٢)

وقوله :

* لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والرجفون
في المدينة *^(٣)

وقوله تبارك وتعالى :

* وجاء من أقصى المدينة رجل يسمى *^(٤)

وقوله :

* يقولون لئن رجعنا إلى المدينة *^(٥)

كما جاءت ثلاث آيات قرآنية ذكرت فيها المدائن جمع مدينة

فقط. ولم ترد في القرآن صيغ الجمع الأخرى وهي مدن ، ومدن .

أما الوصف الفني للمدن عند النashرين منذ القرن الثالث الهجري

وما بعده فقد تطور عما كان عليه من قبل ويتمثل ذلك في ظهور عدة

أساليب فنية نوجزها فيما يلي :

(١) القصص آية ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ .

(٢) الاحزاب آية ٦٠ .

(٣) يس آية ٢٠ .

(٤) المنافقون آية ٨ .

الأسلوب الأول : أسلوب التفضيل :

وفيه يستخدم الناثر العربي أسماء التفضيل عند وصف المدينة في جمل تأتي أغلبها متساوية وموحدة الفواصل .

وفي النصوص التي أثبتناها في الباب الأول من هذا البحث، نلاحظ أن الجاحظ هو الذي بدأ باستخدام هذا الأسلوب عند وصفه موضعا في أعلى جبانة البصرة فذكر أن الناس " لم يروا قط هواءً أعدل ولا نسيما أرق ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع .

كما نقل عن الأحنف وصفا للبصرة وجهه إلى أهل الكوفة :

" نحن أعزى منكم برية ، وأكثر منكم بحرية ، وأبعد منكم سرية ، وأكثر منكم ذرية " . (١)

واستخدمه أيضا في الذم ، عندما نقل عن أهل الكوفة قولهم :

" إن البصرة أسرع الأرض خرابا وأخبثها ترابا وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقا " . (٢)

وليس غريبا أن يرد وصف المدن عند الجاحظ بهذا الأسلوب فهو من الأساليب التي تعامل معها وأكثر منها حتى في وصفه لغير المدن ومن ذلك ما وصف به " الكتاب " حيث جاء فيه بعدد كبير من أسماء التفضيل في جمل متتالية حتى وصل إلى حد الإسراف من الاستقصاء .

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ص ١١٢

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٢٩

إذ أنه استخدم ما يقرب من ثلاثين اسم تفضيل فيما لا يزيد
عن عشرة أسطر من وصفه للكتاب وذكر فضائله .

وما جاء في ذلك الوصف :

" وعبت الكتاب ، ولا أعلم جارا أبر ، ولا خليطا أنصف
ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحباً أظهر
كفاية ، ولا أقل جنابة ... " (١)

ويستمر حتى يصل إلى العدد الذي أشرنا إليه .

كما استخدم هذا الأسلوب اليعقوبي عند وصف مدينة بغداد
وخاصة عندما وصف أهلها :

" فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا أروى من راويتهم
... "

واستخدام اليعقوبي لهذا الأسلوب ، يشبه إلى حد كبير استخدام الجاحظ ،
ففي عدد قليل من الأسطر نجد أكثر من خمسة عشر اسم تفضيل ، مما يبين
لنا تأثير اليعقوبي براءد البيان العربي الجاحظ ، وكل منهما قد عاش في
القرن الثالث الهجري ، وهذه النصوص توضح لنا انتشار أسلوب التفضيل
في هذا القرن .

أما في القرن الرابع الهجري فإننا نجد هذا الأسلوب مستخدماً عند

(١) الحيوان ، الجاحظ ، ط : ثانية ، مصر ، سنة : بدون ، ج ١ ،

المقدسي في وصفه لمدينة دمشق :

" لا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها ،

ولا أحزم من أهلها "

وجاء في وصفه لمدينة الرملة :

" ليس في الإسلام أبهى من جامعها ، ولا أحسن ولا أطيب

من حواريتها ... " (١)

وإن كان المقدسي قد أتى هنا باسمي تفضيل في الجملة الواحسدة :

" ولا أحسن ولا أطيب " ثم جاء بجمل كثيرة تشمل نفس الأسلوب عند

وصفه لمدينة بيت المقدس والفسطاط ومدينة تَستَر.

ونجده أيضا في المقامة الخمسين البصرية التي وصفها الحريري

مدينة البصرة وأهلها :

" بلدكم أوفى بالبلاد طهرة ، وأزكاها فطرة ، وأفسحها

رقمة ... " (٢)

وعند هذه المقامة وما حوته من أساليب مختلفة ، منها أسلوب التفضيل ،

يقف القارئ وقفة إكبار ، لقدرة الناثر الكبيرة في اختيار الألفاظ السلسلة ،

الدالة على المعاني الكريمة ، وفي ذلك بيان واضح على سعة اطلاع

الحريري ، وثروته العلمية وخاصة في مجال اللغة .

(١) أحسن التقاسيم ، ص ١٦٤

(٢) مقامات الحريري ، ص ٢٥٢

أما الإدريسي فقد جاء بهذا الأسلوب عند وصفه لمدينة
سيبطة :

" كانت من أحسن البلاد منظراً وأكبرها قطراً ، وأعدلها
هواً ، وأطيبها شرى " (١)

ولأن النصوص الفنية التي وصف بها الإدريسي أكثر المدن - إذا
ما قورنت مع غيرها - تعد قصيرة في كثير من الأحيان ، فإنه يستخدم في
أكثرها أسلوباً واحداً ، كما لاحظنا ذلك في القطع الفنية التي أوردناها
في الباب الأول ، ومنها وصف مدينة سببلة المشار إليه ، والنص السدي
يتلوه في وصف مدينة القيروان .

أما القزويني فقد جاء استخدامه لهذا الأسلوب في أول نص
نختاره له وهو وصف مدينة صنعاء :

" أحسن مدنها بناءً ، وأصحها هواً ، وأعذبها
ماءً ... " (٢)

وهو يريد بالضمير هنا اليمين ، فيبين أن مدينة صنعاء أحسن
مدن اليمين بناءً وأصحها هواً وأعذبها ماءً .

ثم يستخدم نفس الأسلوب عند وصف مدينة بغداد :

" هواؤها ألطف من كل هواً ، وماؤها أعذب من
كل ماءً ... " (٣)

(١) نزهة المشتاق ، ص ٢٨٩

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٤

ونلاحظ عدم استعمال القزويني لهذا الأسلوب بكثرة في نصوصه ويعود ذلك إلى أن القطع التي وصف بها المدن كانت قصية . ويعود وصف مدينة خوارزم هو أطول نص فني عند القزويني في وصف المدن وجاء فيه :

" ثمارها أطيب الثمار وأشهاها ، وألذها وأحلاها " (١)

الأسلوب الثاني :

وهو ما يمكن أن نطلق عليه الأسلوب الإضافي ، وذلك لأن الجمل فيه لا تكاد تخلو من مضاف ومضاف إليه ، وقد وردت بعض جمل من هذا النوع في وصف أهل البصرة :

" ويدل على صلاح مائهم كثرة دورهم ، وطول أعمارهم ،
وحسن عقولهم ، ورفق أكفهم " (٢)

وذلك عند وصف الجاحظ لها .

غير أن وصف مدينة المهديّة لابن حوقل :

(٣)
" كثيرة التجارة ، حسنة السور والعمارة ، كثيرة القصور " .

يعد من النصوص الواضحة التي استخدم فيها الناثر الأسلوب

الثاني في وصف المدن .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥٥

(٢) رسائل الجاحظ ، ص ١٤١

(٣) صورة الأرض ، ص ٧٢

كما جاء ذلك في وصف المقدسي لمدينة تاهرت :

" رشيق الأسواق ، غزير الماء ، جيد الأهل ، قديم
الوضع ، محكم الصرف . . . "

وكذلك ما جاء في وصف مدينة اليهودية :

" كثيرة الخيرات ، بلد التجارات ، حلوة الآبار . . . "

ومدينة الرى :

" كثير الفاخر والفواكه ، فسيح الأسواق ، حسن الخانات ،
طيب الحمامات " (١)

أما الإدريسي ، فقد جاء بهذا الأسلوب عند وصفه لمدينة صنعاء :

" كثيرة الخيرات ، متصلة الممارات "

وكذلك عند وصف مدينة الإسكندرية :

" حصينة الأسوار ، نامية الأشجار ، جليلة المقادير . . . "

وأيضاً ما جاء في وصفه لمدينة القسطنطينية :

(٢)
" فسيحة الطرقات ، متقنة البناءات ، قائمة الأسواق . . . "

ووصفه لمدينة مالقة :

" كثيرة الديار ، متسعة الأقطار . "

ومدينة طليطلة :

" كثيرة البشر ، حصينة الذات . . . عالية الذرى ، حسنة البقعة "

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٩٤

(٢) نزهة المشتاق ، ص ٢٢

ومدينة شبيرة :

(١) " منيعة الحصن ، رفيعة القدر ، سنية الذكر " .

أما ابن جبير فقد استخدمه عند وصفه لمدينة تكريت :

" واسعة الأرجاء ، فسيحة الساحة . . "

على الرغم من أن النص قصير جدا .

وكذلك عند وصفه لمدينة بزاعة :

" طيبة الثرى ، واسعة الذرى "

ثم مدينة حمص :

" فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة " .

ومدينة دمشق :

(٢)

" جنة المشرق ، مطلع حسنه الموء نق المشرق " .

وجاء هذا الأسلوب في وصف القزويني لمدينة دمشق على الرغم

من أن القطعة قصيرة جدا :

" قصبة بلاد الشام ، جنة الأرض " .

ومدينة شيراز :

" صحيحة الهواء ، عذبة الماء ، كثيرة الخيرات " .

ووصفه لمدينة بغداد :

" أم الدنيا ، سيدة البلاد ، جنة الأرض ، مدينة السلام ،

وقبة الإسلام " (٣)

وما وصف به مدينة بغداد يعد من أجمل وصف المدن عند القزويني .

(١) نزهة المشتاق ، ص ٥٩٩

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٨

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢١٤

وأخيرا ما جاء في وصف العبدري لبعض المدن كتونس :

" مطح الآمال ، مصاب كل برق ، محط الرجال " .

وكذلك مدينة الإسكندرية :

(١)

" مدينة الحصانة والثاقة ، وولد الإشراق اللامع والطلاقة " .

الأسلوب الثالث :

وهو الذى يتكون من جمل قصيرة .

وقد جاء ذلك في وصف عبدالله بن المعتز لمدينة سامراء :

" كوكبها يقظان ، جوها عريان ، حصاها جوهر ، نسيمها

معطر ... " (٢)

وهو النص الذى يعد من أجمل ما قيل في وصف المدن وبخاصة

في الفترة التي عاش فيها عبدالله بن المعتز .

وكذلك ما جاء من وصف الطائف عند الشريف الإدريسي :

" مياها عذبة ، هواؤها معتدل ، فواكهها كثيرة .. " .

ووصفه أيضا لمدينة الإسكندرية :

" شوارعها فساح ، عقائد بنيانها صحاح " .

وكذلك عند وصفه لمدينة مالقة :

" أسواقها عامرة ، ومتاجرها دائرة ، نعمها كثيرة " .

(١) رحلة العبدري ، ص ٩٠

(٢) معجم البلدان ، ص ١٧٧ - ١٧٨

ثم ما جاء في وصفه *جُزيرة صقلية* :
" أقدارها خطيرة ، أعمالها كبيرة ، بلادها كثيرة ،
محاسنها جمة ... " (١)

أما وصف ابن جبير فيعد تطورا متقدما لوصف المدن فهو بالإضافة
إلى حسن اختيار الألفاظ تمكن من توحيد الفواصل وساواة الجمل كما
هو ملحوظ من النصوص . وفي وصفه لمدينة حماه :

" أقطارها مضمومة ، ديارها مركومة " .

ومدينة مسينة من جزيرة صقلية :
" أسواقها نافقة ، حفيلة ، أرزاقها واسعة بإرغاد الميش
كفيلة " (٢)

نلاحظ أن الجمل عنده أصبحت أطول من الجمل التي وردت عند
غيره وهذه ظاهرة تعاز بها النصوص الفنية لابن جبير في وصف المدن .

٤ - الأسلوب الرابع :

وهو الأسلوب الذي يتكون من جمل فعلية كما سنرى .

ومن ذلك ما جاء في وصف مدينة بغداد لليعتوبي :

" اعتدلّ الهواء ، وطاب الثرى ، وعذب الماء ... " (٣)

والجمل هنا متساوية ومكونة من فعل وفاعل فقط وسجعتها واحدة .

(١) نزهة المشتاق ، ص ٥٩٥

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢١٢

(٣) كتاب البلدان ، ص ٢٤٤

وما جاء في وصف المقدسي لمدينة دمشق :
" بلد قد خرقتة الأُنهَار ، وأُحدقت به الأشجار ،
وكثرت به الثمار ."

ومنه ما جاء للمقدسي أيضا في وصف مدينة الرملة :
" جمعت التين والنخل ، أنبتت الزروع على البعل ،
حوت الخيرات ."

وما وصف به الفسطاط :
" اتسعت بقعته ، كثرت ناسه ، وتنضرا إقليمه ، اشتهر
اسمه ، جل قدره ."^(١)

والمقدسي كما رأينا ينوع الأساليب والاستعمالات في جميع
أوصافه للمدن فحينما تكون الجمل قصيرة ، وآخر تكون أطول ، وقد يجتمعان
في النص الواحد .

وتطول الجمل في هذا الأسلوب حتى تصل عند ابن جبير
في وصف دمشق إلى ستة تراكيب بدلا من فعل وفاعل .

" قد تحلت بازاهير الرياحين ، وتجلت في حلال سندسية
من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ."^(٢)

وطول الجمل عند ابن جبير لم يقتصر على هذا الأسلوب بل لقد
سبق ذلك في الأسلوب الثالث ويضاف إلى طول الجمل جمال الألفاظ
وسلاستها ما يوضح النقلة الداخلية في تلك الأساليب لدى الناثرين
التأخرين كابن جبير .

(١) أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٤٨ <

هـ - الأُسلوب الخامس : الأُسلوب التصويرى :

وهو الأُسلوب الذى تكثرفيه التشبيهات البلاغية .

ومن ذلك ما جاء فيما نقله الجاحظ عن زياد :

" الكوفة جارية جميلة . . . البصرة عجوز شوهاة " . (١)

وقد جاء هذا النص في رسائل الجاحظ مجردا عن أى تعليق مع علنا أنه فيما سبق من نصوص حاول الجاحظ جاهدا أن يفضّل البصرة على الكوفة ، وناقش كل رأى يخالف ما ذهب إليه إلا عند هذه العبارات فقد اكتفى بأن وضع لها عنوانا هو " فصل منه " ولم يعقب عليها بشيء . ويظهر أن المقارنة كانت جميلة فاشتتها رغم إنكاره لمعناها .

ومنها ما جاء في وصف مدينة بغداد للوهرائي :

" فرأيت بحرا لا يعبر زاخره ، وجنة أبدع غارسها

(كمثل الجنة التي وعد المتقون) " . (٢)

وهذا الوصف الذى جاء في مقامته التي وصف فيها بغداد بهذه العبارات المختصرة التي توضح الفرق بين المقامات الحريرية وغيرها ، فوصف الوهرائي مقتضب إلا أنه قد أحسن الإقتباس من القرآن الكريم . وجاء في وصف مدينة بغداد عند ابن جبير أنها أصبحت قديمة بالية :

" كالظلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال

الشاخص " . (٣)

(١) رسائل الجاحظ ، ص ١٢٦

(٢) مقامات الوهرائي ، ص ١٠

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٢

وهذا ضمن وصف كامل لمدينة بفسداد ، جاء في رحلة ابن جبير التي بناها على المشاهدة والمعينة ، فعبر عن تلك المشاهدات أدق وأجمل تعبير ، كما لسنا ذلك فيما أوردناه من نصوص في الباب الأول ، تشهد بتطور أسلوبه وصدق في التعبير عن مشاهداته ، وعذوبة ألفاظه ورفقتها وقلعة الحشو الذي لا فائدة فيه .

٦ - الأسلوب السادس :

وهو الذي يتكون من عدد من الصفات المجردة .

ومن ذلك ما جاء في وصف الحكيم للبلدان ، الذي نقله لنا السعدي من وصف للحجاز :

" وهو بلد محل ، قحط ، جذب ، ضحك " . (١)

ووصف ابن حوقل لمدينة سوسة :

" طيبة ، رفة ، خصبة " . (٢)

كما أن المقدسي قد أكثر من استخدام هذا الأسلوب عند وصفه

للمدن ففي وصف مدينة عدن يأتي بعدد من تلك الصفات :

" بلد جليل ، عامر ، أهل ، حصين ، خفيف " .

ويصف مدينة تاهرت :

" بلد كبير كثير الخيرات ، رحب ، رفق ، طيب ، رشيق

الأسواق " . (٣)

(١) مروج الذهب ، ص ٦١

(٢) صورة الأرض ، ص ٧٤

(٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٨

ثم سمرقند :

" بلد سرى ، جليل ، عتيق " .

ويصف مدينة " مرو :

" قصبة طيبة ، طريفة ، بهية ، رحبة ، خفيفة " .

ويصف مدينة نسا :

" بلد رحب ، نزيه ، طيب " .

ومدينة اليهودية :

" كبيرة ، عامرة ، أهلة " .

ومدينة الرى :

" بلد جليل ، بهي ، نبيل " (١) .

وكذلك الإدريسي عند وصفه مدينة مالقة :

" مدينة حسنة ، عامرة ، أهلة " (٢) .

وابن جبير عند وصفه مدينة الموصل :

" هذه المدينة عتيقة ، ضخمة ، حصينة ، فخمة " (٣) .

والعبدري عندما يصف مدينة سوسة :

" وهي مدينة مليحة ، برية ، بحرية " (٤) .

تلك هي الأساليب التي جاءت في النصوص الفنية لوصف المدن

عند أهم الناشرين .

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٤٩٠

(٢) نزهة المشتاق ، ص ٥٦٥

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢١

(٤) رحلة العبدري ، ص ٣٣٨

وقبل أن تنتقل إلى الأساليب التي جاءت في وصف الأقاليم عند أهم الناشرين ، سوف نوضح ما ذهب إليه الأستاذ غرنباوم ، عندما ناقش هذه القضية ، في بحث مختصر ، ترجمه لنا الدكتور أنيس فريحة ، ضمن عدد من البحوث ، التي ترجمها مع الدكتور إحسان عباس وآخرين .

وسوف نعمل على بيان ما جاء في البحث المذكور على غرار الدراسة التي قننا بها في هذا الموضوع الهام ، بغية إيضاح الحقيقة التي ينشدها الدارسون جميعا .

ويتلخص الموضوع في أن المستشرق الألماني الأستاذ / غوستاف فون غرنباوم^(١) في بحث له بعنوان (مدح المدن في النثر العربي) حاول أن يحصر " النثر الفني العربي الذي يدور حول مدح المدن وفنائها " في ثلاثة أساليب ، رمز للأسلوب الأول منها بحرف " أ " ومثل له بوصف مدينة بغداد للقزويني الذي سبق أن أوردناه في الباب الأول ، كما رمز للأسلوب الثاني بحرف " ب " ومثل له بما جاء في وصف مدينة سامراء ، لعبدالله بن المعتز . أما الأسلوب الثالث فقد رمز له بحرف " ج " ومثل له بالمقامة الخمسين التي وصف فيها الحريري مدينة البصرة .

وأشار في هذا البحث إلى أن الناثر العربي قد أكثر من استخدام أسلوب فني عند وصفه الإنسان سواء كان هذا الوصف جسديا أم خلقيا وأنه أحجم عنه عند وصف المدن مادحا أوهاجيا ، وكان استعمال ذلك الأسلوب مقصور على الأشخاص .

(١) كتاب دراسات في الأدب العربي - غوستاف فون غرنباوم ، ترجمة إحسان عباس وآخرين ، نشر بالإشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٥٩ م ص ٢٢٥ - ٢٢٤ .

وذكر أن هذا الأسلوب «يتألف من سلسلة من صفات منفصلة لا يربط بينها حرف عطف مثل : كان رجلا فاضلا كريما لبيبا وقورا . . . أو من سلسلة من إضافات مضاف ومضاف إليه مثل شديد البطش جرى القلب مجتمع الحس» .

ثم بين «أن قصر استعمال هذا الأسلوب الفني على وصف الإنسان فقط، يعود في أصله إلى الأسلوب اليوناني المعروف بالأسلوب التصويري، الذي شاع أمره في عصر أدبيه تلمّ العصر الكلاسيكي الإغريقي والروماني» .

ويؤيد «أن إجحام الناثر الفني عن استعمال أسلوب وضع أصلا لفن أدبي معين، في فن أدبي آخر، لدليل على ميل القدماء إلى التمييز بين أساليب الفنون الأدبية المختلفة، وتخصيص أسلوب خاص لكل فن منها . . .»

ويخرج من ذلك كله إلى «أن مدح المدن في الأدب العربي أمر نادر الوجود نسبيا، وإذا عثرنا على شيء منه فإننا نجد الناثر الوصف موجزا قصير النفس» .

ويرى «أن أجمل مدح للمدن في الأدب العربي، وأكثره تعقيدا وأبرعه صناعة، هو ذلك الذي نجده في المقامة الخمسين - المقامة البصرية - من مقامات الحريري» .

وقد حاول أثناء كلامه في هذا البحث نسبة الأساليب الثلاثة التي أشار إليها إلى أصول قديمة غير عربية، فالأسلوب الأول والثاني يرجعهما إلى الأساليب التي تبدو في الترانيم المسيحية وما إليها من أدب مشابه . والأسلوب الثالث يريد إرجاعه إلى أسلوب ميناندر . وذلك يكون قد

أعاد كل ما جاء من وصف فني للندن إلى أصول غير عربية، شأنه في ذلك شأن كثير من المستشرقين الذين اهتموا بالعلوم العربية والإسلامية ليدسوا السم في المسئل بالتشكيك فيها من خلال الإهتمام بها ودراستها ، على الرغم من أن أبحاثه لا تخلو من فوائد كثيرة أخذت منه أوقاتاً طويلة وجهوداً مضية حتى وصلت إلينا بتلك الكيفية .

ولإيضاح النقطة الأولى التي تتعلق بالأساليب فإن عدم اطلاع الأستاذ غرناوم على جميع النصوص الخاصة بوصف المدن والأقاليم هو الذى جعله يحصرها في ثلاث أساليب فقط متجاهلاً الأساليب الأخرى التي جاءت في نصوص لم يسبق له رؤيتها أو أنه رآها لكنه يريد بنسائه دراسته على ما يتصل بالأساليب الثلاثة ليؤكدها ما ذهب إليه . ومع أننا قد تتبعنا تلك النصوص في جميع المراجع التي تمكنا من الحصول عليها إلا أننا لا نستطيع القطع بأن تلك النصوص والأساليب الموجودة فيها هي كل ما يتعلق بوصف المدن ، لأن ذلك يخضع للحصول على جميع الكتابات التي جاءت في هذا الجانب ، وذلك ما لا يمكن ، فلا تزال هناك مخطوطات أدبية كثيرة لم يكتب لها حتى الآن أن ترى النور ومن المحتمل وجود نصوص تمت صياغتها بأساليب وطرق أخرى . وأرى أن ما عرضناه من نصوص في الباب الأول وأهم الأساليب التي ظهرت عنها يعد بياناً كافياً لمدى تسرع الأستاذ غرناوم في إصدار الأحكام قبل استقصاء جميع جوانب الموضوع .

إضافة إلى أن مترجم البحث ، قد أشارة إلى ذلك التجاهل للأساليب الأخرى ، وتحديده ثلاثة أساليب دون غيرها ، وملاحظته في الواقع جديرة بالإثبات ، لأنها تمثل شهادة شاهد عايش الموضوع كما

أنها جاءت في هامش البحث نفسه لتؤكّد عدم إقرار المترجم كأديب ومهتم بأدبه العربي - لتلك الدعوى .

ومع أنها جاءت ضمن ملحوظات آخر إلا أنها كانت واضحة وتؤكّد الفرض المطلوب إذ أنها تبين بصراحة ووضوح أن " فسي تحديد المؤلف لثلاثة أساليب تجاهل لآساليب أخرى " (١)

أما الملاحظة الثانية التي أوردها الأستاذ غريباًوم من " أن هناك أسلوباً فنياً في النشر يكثر الناشر العربي استعماله عند وصفه الإنسان ، سواءً أكان الوصف جسدياً أم خلقياً ، ولكنه يحجم عنه عند المدن ما دحا أوهاجياً . فكأن استعماله مقصور على الأشخاص . وهذا الأسلوب يتألف إما من سلسلة من صفات منفصلة لا يربط بينها حرف عطف ، مثل كان رجلاً فاضلاً كريماً كاملاً لبيباً وقوراً . . . " أو من سلسلة من إضافات ، مضاف ومضاف إليه مثل شديد البطش جرى القلب مجتمع الحس . . . " (٢)

فإن ما جئنا به من نصوص في الباب الأول ، مليئة بتلك الأوصاف ما جعلنا نفردها في الباب الثاني ، أسلوباً مستقلاً بذاته ، وإنكاره لها بالطريقة التي رأيناها ، يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه لم يتمكن من الإطلاع على كثير من النصوص التي وردت في وصف المدن والأقاليم ، وأنه تمكن من الإطلاع عليها ، ويريد التفاضل عنها ليكون قادراً على إثبات حاجة فسي

(١) د . أنيس فريحة - دراسات في الأدب العربي - هامش ص ٢٢٩ .

(٢) دراسات في الأدب العربي ص ٢٢٧ .

نفسه وهى أن " قصر استعمال هذا الأسلوب الفني على وصف الإنسان
(١)
فقط يعود في أصله الى الأسلوب اليوناني المعروف بالأسلوب التصويري".

وسواءً أكان يقصد هذا أم ذاك فإن فيما جئنا به من نصوص،
فيها من استخدام الناثر العربي لتلك الصفات المجردة المدد الكبيرة
يؤيد كد أن ملاحظة الأستاذ (غرباوم) قد جانبها الصواب في هذه النقطة
أيضا .

ومن تلك الصفات المجردة التي وردت في النصوص ما وصف به
المقدسي مدينة عدن :

" بلد جليل ، عامر ، أهل ، حصين ، خفيف " (٢)

وما وصف به مدينة سمرقند :

" بلد مري ، جليل ، عتيق " .

وما وصف به مدينة مرو :

" قصة طيبة ، طريفة ، بهية ، رحبة ، خفيفة " .

ومن ذلك ما جاء في وصفه لمدينة نسا :

" بلدرحب ، نزيه ، طيب " .

ومدينة الري :

" بلد جليل ، بهى ، نبيل " (٣)

(١) دراسات في الأدب العربي ، ص ٢٢٨ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٨٥

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٠

وما وصف به الإدريسي مدينة مالقة :

"مدينة حسنة ، عامرة ، أهلة ."^(١)

وابن جبير عند وصف مدينة الموصل :

"عتيقة ، ضخمة ، حصينة ، فخمة"^(٢)

والعبدري عند وصفه مدينة سوسة :

"مدينة مليحة ، بيرية ، بحرية"^(٣)

وما جاء في وصف القديسي أيضا لإقليم المغرب :

"إقليم بهي ، كبير ، سرى ."

وإقليم الجبال :

"نزبه ، بهي ، خصب"^(٤)

وفي ذلك أدلة واضحة على بطلان ما ذهب إليه في هذه القضية .

وما رآه الأستاذ غرناوم من "أن مدح المدن في الأدب العربي

أمر نادر الورود نسبيا ، وإذا عثرنا على شيء منه فإننا نجد الناشر

الواصف موجزا قصير النفس" ثم ما أتبع ذلك من استنتاجات مؤداهما

أن الأسلوبين الأول والثاني اللذين أوردهما يرجعان في أصلهما إلى

الأساليب التي تبدو في الترانيم المسيحية ، وما إليه من أدب مشابه ."

(١) نزهة الشتاق ص ٥٦٥

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٢١

(٣) رحلة العبدري ص ٢٣٨

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٨٤

فقد أبطله بنفسه ضمن الفقرة التالية، حين أكد أنه ليست لديه أدلة تنهض بدعواه، وتثبت صحة ما ذهب إليه، حيث وعد بأن يدل على صحته في غير هذا المقام، ثم أنه نقض كلامه جملة وتفصيلا ورجع عن رأيه فأوضح أيضا في نفس الصفحة (١) بأن الأسلوب الثاني " يمكن رده إلى الخطب والمواعظ القديمة المربية " وكذلك الأسلوب الثالث " يمكن تتبع نشأته في النثر العربي إلى أزمنة تسبق الزمن الذي ظهر فيه أدب مدح المدن في المربية. " (٢)

وقد فطن إلى هذا التناقض، ثم الإقرار مترجم النص، حيث أشار في هامش الصفحة نفسها إلى " أن القول بهذا التشابه ضرب من التقدير المحض أو التوهم فالكتاب نفسه قد أقر أن الأسلوب (ب) والأسلوب (ج) يمكن ردهما إلى نماذج سابقة في النثر العربي نفسه، ولم يصرح بشيء عن نسبة الأسلوب (أ) إلى موروث عربي سابق، وأحب أن أؤكد أن هذا أيضا موجود في الأساليب المربية المتقدمة على نشأة النثر الذي يدور حول مدح المدن ودمها.

وهذا جزء هام من البحث أغفله المؤلف أو تغاضى عنه، وهو تطور الأسلوب في مدح المدن ودمها داخل نطاق الأساليب العربية نفسها. " (٢)

(١) دراسات في الأدب العربي ص ٢٢٨.

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٩.

(٣) نفس المصدر هامش ص ٢٢٩.

وبالرجوع إلى الفصول السابقة من البحث نجد أن فيما أوردناه من نصوص، تبين تطور هذا الضرب من النثر منذ القرن الأول الهجري، وأن محاولة رده إلى أساليب غير عربية فيه كثير من البعد عن الواقع الذي توءم يده النصوص .

كما أن عجز الأستاذ غرباوم عن إثبات ما ذهب إليه يؤيد إخفاق آرائه الخاصة بهذا الموضوع .

وكذلك ما أشار إليه من ندرة وصف المدن في الأدب العربي، وأنه في حالة وجود شيء من ذلك فإنها تمتاز بالإيجاز والنفس القصير، فإن في القطع الفنية الطويلة التي أوردناها في الباب الأول ما ينقض هذه النظرة القاصرة أيضا .

ولعل فيما بيناه، إيضاح كامل لجوانب القضية التي أثارها الأستاذ غرباوم فيما يتعلق بمدح المدن . تلك هي أهم الأساليب التي استخدمها أهم الناثرين الذين اخترنا لهم قطعا نثرية فنية في وصف المدن بين القرنين الثالث والسابع الهجريين .

وسوف نتحدث في البحث القادم بإذن الله عن أهم الأساليب التي جاءت في وصف الأقاليم لنصل بذلك إلى ما أزمعنا بيانه في الباب الثاني من هذا البحث .

البحث الثاني : تطور وصف الأقاليم :

يعرف أصحاب المعاجم الإقليم بأنه " واحد أقاليم الأرض السبعة" (١) وأن " أقاليم الأرض : أقسامها . . . قال ابن دريد : لا أحسب الإقليم عربيا . قال الأزهري : وأحسبه عربيا ، وأهل الحساب يزعمون أن الدنيا سبعة أقاليم كل إقليم معلوم . كأنه سمي إقليما لأنه معلوم من الإقليم الذي يتأخمه أى مقطوع . وإقليم موضع بمصر . " (٢)

و " اصطلاح العامة ، وجمهور الأمة ، وهو جار على السنة الناس دائما ، وهو أن يسموا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليما ، نحو الصين ، وخراسان ، والعراق ، والشام ، ومصر . . . ونحو ذلك . فالأقاليم على هذا كثيرة لا تحصى " (٣)

وهذا يتفق مع التسمية التي استخدمها ابن حوقل في كتابة صورة الأرض : " وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحدا " (٤)

وما ذهب إليه المقدسي عندما ذكر خصائص الأقاليم فسمى العراق إقليما وكذلك المشرق والجبال والشام ومصر وغيرها (٥) ومن هذا الاستخدام جاء تعريف الإقليم بأنه " قسم من الأرض يختص باسم " (٦)

(١) الصحاح - مادة قلم .

(٢) لسان العرب - مادة قلم .

(٣) معجم البلدان ج ١ ص ٢٦ .

(٤) صورة الأرض ص ١٥ - ١٦ .

(٥) احسن التقاسيم ص ٣٣ .

(٦) دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى ، ط ٣ : دار

المعرفة بيروت سنة ١٩٧١ م ج ٧ ص ٩٢٦ .

أما نظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم، وهي أحزمة عرضية مرتبة من الجنوب إلى الشمال، في موازاة خط الاستواء ومبتدئة منه على وجه التقريب. هذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء". (١)

وحدثا جاء تعريف الإقليم بأنه "بلاد تسمى باسم خاص كإقليم الهند وإقليم اليمن. ومنطقة من مناطق الأرض تكاد تتحد فيها الأحوال المناخية والنظم الاجتماعية، كإقليم الشمالي والإقليم الجنوبي". (٢)

وإذا نظرنا إلى هذه التعريفات فإننا سنجدنا متقاربة جداً، وأنه في الفترة التي كان يقسم أصحابها الأرض إلى سبعة أقاليم، والإقليم عندهم هو أحد هذه الأقاليم السبعة كانوا أيضاً يستخدمون الإصطلاح الآخر الذي يعني بكلمة إقليم، أنه الناحية التي تشتمل على عدة مدن وقرى وأنه البلاد التي تسمى باسم خاص كالشام واليمن ومصر وغيرها.

وهذا المعنى الأخير هو الذي سنتعامل معه عند تناول الأساليب الفنية التي جاءت في وصف الناشرين لتلك الأقاليم لأنه نفس المعنى الذي كان يقصده أولئك الناثرون.

(١) تاريخ الأديب الجغرافي . كراتشكوفسكي ، ج ١ ص ٢٣٠

(٢) المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - مادة إقليم

وبالرجوع إلى أهم القطع الفنية التي وصف فيها أصحابها تلك الأقاليم ، سوف نجد أن أهم الأساليب التي برزت في ذلك الوصف، هي نفس الأساليب التي ظهرت في وصف المدن، وسنمثل لكل أسلوب منها فيما يأتي :

١ - الأسلوب الأول :

ومن ذلك ما جاء في وصف ابن حوقل لإقليم المراق :

" هذا الإقليم أعظم أقاليم الأرض منزلة ، وأجلها صفة ،
وأغزرها جباية . . . "

وعند وصفه لأهل الإقليم :

" وأهله فأوفرهم عقولا ، وأوسعهم حلوما ، وأفسحهم
فطنة . "

وكذلك عند وصفه لإقليم ما وراء النهر :

" إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة ، وأنزهها وأكثرها
خيرا . " (١)

وما جاء في وصف ابن جبير لأرض نجد :

" وما أرى أن في المعمور أرضا أفسح بسيطا ، ولا أوسع
أنفا ، ولا أطيب نسيما ، ولا أصح هواء . . . ولا أحسن
اعتدالا في كل الأزمان من أرض نجد . " (٢)

(١) صورة الأرض ص ٢٨٤

(٢) رحلة ابن جبير ص ١٩٠

وما وصف به ياقوت الحموي أرض العراق :

(١)
"والعراق أعدل أرض الله هواءً ، وأصحها مزاجاً وماءً ."

ويتضح من الأمثلة المذكورة ، كثرة استخدام هذا الأسلوب في وصف الأقاليم . كما أن النثرين قد استخدموه في وصف المدن منذ البدايات ، وظل أسلوباً مفضلاً لدى النثرين حتى القرن السابع ، كما لحظنا في وصف المدن . وسبب ذلك أن النثر العربي كان في أكثر المناسبات يحاول تفضيل وتقديم المدينة أو الإقليم الذي يصفه على غيره في عدد من الجوانب ، وهذا الأسلوب هو خير وسيلة لذلك التفضيل .

٢ - الأسلوب الثاني :

وقد جاء عند المقدسي في وصفه لإقليم العراق :

" هذا إقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء ، لطيف الماء ،

عجيب الهواء "

ومنه ما وصف به أيضاً إقليم الشام :

" ديار النبيين ، مركز الصالحين ، معدن البدلاء . "

وكذلك إقليم المغرب :

" كثير المدن والقرى ، عجيب الخصائص والرخا . "

وأيضاً إقليم الشرق :

" معدن الخير ، مستقر العلم ، ركن الإسلام المحكم . "

وما وصف به إقليم السند :

(١)
" هذا إقليم الذهب والتجارات ، والعقاير والآلات . "

ومع أن هذا الأسلوب قد استخدمه أكثر الناشرين عند وصف المدن كما رأينا ، فإن التعامل معه عند وصف الأقاليم كان محدوداً فلم يستخدمه إلا المقدسي في عدد من النصوص التي تمكنا من الإطلاع عليها .

وليس معنى ذلك أن ناثراً غير المقدسي لم يستخدمه بل فيما أماننا من قطع نثرية لم نجده في وصف الأقاليم كما رأينا في وصف المدن .

وهذا يوءد لنا بأن هذا الأسلوب عند وصف الأقاليم كان استعماله بدرجة أقل من الأسلوب الأول .

٣ - الأسلوب الثالث :

ومنه ما جاء في وصف المقدسي لإقليم الجبال :

" هذا إقليم حشيشه الزعفران ، وشراب أهله العسل
والألبان ، وأشجاره الجوز والأتيان (٢) . "

وما وصف به القزويني الشام :

" هواؤها طيب ، وماؤها عذب (٣) . "

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٤٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٦

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٥

وعلى الرغم من أن المقدسي قد جاء بهذا الأسلوب عند وصف الأقاليم، إلا أنه عند وصف المدن لم نعثر له على استخدام فيما بين أيدينا من مدح للمدن للمقدسي، ويتضح أيضا من وصف المدن أن أول من استخدم هذا الأسلوب هو عبد الله بن المعتز في القرن الثالث عند وصف مدينة سامراء، وكان ذلك النص من أجمل النصوص التي تعبر عن معانسة صاحبها، وصدقته في إضفاء تلك الصفات على موصوفه، لأن ذلك الوصف ليس ناتجا عن مجرد مشاهدة عابرة، أو إرضاء لشخصية كبيرة هامة، ولكنه نابع من قلب مفهم يحب موصوفه، وإذا كان الرثاء يعني الوصف وتستخدم فيه صيغة الماضي، فإن ذلك النص يعد قطعة رثاء فنيّة تعبر عن مكانة ابن المعتز الأدبية وتفوقه في مجال النثر الفني، كما تدل على مدى ألمه وحرقة ما وصلت إليه سامراء في عصره بعدما كانت عليه من رفعة ومكانة عالية قبل ذلك .

وكذلك القزويني فقد استخدم هذا الأسلوب عند وصف الأقاليم على الرغم من عدم استخدامه له عند وصف المدن، كما لاحظنا ذلك عند الحديث عن وصفها حيث لم نعثر له على نص بهذا الأسلوب .

٤ - الأسلوب الرابع :

ومنه ما جاء في وصف المقدسي لإقليم الرحاب :

" لما جل هذا الإقليم وطاب ، وكثرت فيه الشمار والأعنان ،
ورخصت به الأسعار .. جرت خلاله الأنهار .. (١)

(١) أحسن التقاسيم ص ٢١٢

ومع أن المقدسي هو الذي جاء به عند وصف الأقاليم إلا أننا عند وصف المدن قد وجدنا عدداً آخر من الناشرين يستخدمه وكان ذلك منذ القرن الثالث حيث جاء في وصف اليعقوبي لمدينة بغداد ثم تبعه المقدسي عند وصفه لمدينة دمشق، ومدينة الرملة، ومدينة الفسطاط، وأخيراً ابن جبير في القرن السابع عند وصف مدينة دمشق وهنا عند وصف الأقاليم لم نعثر على نص لأحد الناشرين غير ما جاء به المقدسي آنفاً .

هـ - الأسلوب الخامس :

وقد جاء فيما نقله السعدي عن بعض الحكماء في وصف مصر :

" ثلاثة أشهر لوء لوءة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ،
وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب
حمراء " . (١)

وعلى الرغم من أن استعمال هذا الأسلوب يأتي منذ وقت مبكر، حين نقله الجاحظ عن زياد في وصف الكوفة والبصرة، واستمراره حيث وصف به الوهراني مدينة بغداد، وابن جبير في وصفه لمدينة بغداد أيضاً . إلا أن التعامل معه كان بدرجة أقل من الأساليب التي سبقته، ويتضح ذلك من النصوص التي وردت، سواء في وصف المدن أو الأقاليم فهي قصيرة جداً ومقتضبة، ولا نجد فيها الإسهاب والطول الذي وجدناه في الأساليب السابقة .

٦ - الأسلوب السادس :

وقد جاء في وصف المقدسي لإقليم المغرب :

” هذا إقليم بهي ، كبير ، سرى .”

كما جاء في وصفه لإقليم الجبال :

” نزيه ، بهي ، خصب .” (١)

الأسلوب الذي أمانا قد جاء في وصف المدن عند كثير من
الناثرين، كما رأينا ذلك منذ وصف الحكيم البلدان بطلب من الخليفة عمر
ابن الخطاب - رضي الله عنه - واستمر عند ابن حوقل في وصف مدينة سوسه
والمقدسي عند وصف مدينة عدن، ومدينة تاهرت، ومدينة سمرقند، ومرو ونسأ
واليهودية كما لمسنا ذلك في وصف المدن المذكورة وغيرها .

وأيضا استعمل هذا الأسلوب الإدريسي عندما وصف مدينة
مالقة وابن جبير في وصف مدينة الموصل، والعبدرى في وصف مدينة
سوسه .

ومع ذلك فإن استخدام عند وصف الأقاليم قد اقتصر على
المقدسي ، فيما أمانا من نصوص دون غيره .

وهذا يدلنا أولا : على أن المقدسي لكثرة وصفه للمدن والأقاليم
قد جاء بجميع تلك الأساليب سواء عند وصف المدن أو الأقاليم .

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٨٤

ثانيا : أن وصف الأقاليم كان حظه من النصوص والاهتمام من قبل الناثرين أقل بكثير مما نالته المدن المختلفة، وقد يعود ذلك إلى بروز معالم المدن، وسهولة وصفها، بخلاف الأقاليم التي تكون عادة أكبر بكثير من تلك المدن .

ثم إن المدن تتيح للناثر تفاصيل دقيقة يمكن أن يسترسل في وصفها، والحديث عنها، لأن من السهل عليه أن يتجول فيها فيشاهد تلك المعالم ويخالط أهلها، بينما الإقليم عام ولا يوصف العمام إلا بالتعميم ويمكن وصف الخاص بالتفصيل .

ونلاحظ من خلال استخدام الناثرين لتلك الأساليب، أن الأسلوب الأول قد وُجد في النصوص الفنية التي جاءت في وصف الأقاليم منذ القرن الرابع عند ابن حوقل حتى القرن السابع عند الحموي ومر بين الفترتين عند ابن جبير .

أما الأسلوب الثاني في وصف الأقاليم فأكثر النصوص التي عثرنا عليها ترجع إلى القرن الرابع عند المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم .

وكذلك الأسلوب الثالث فقد وجدنا أن النصوص التي ورد فيها ترجع إلى القرن الرابع عند المقدسي ثم إلى القرن السابع عند القزويني .
والأسلوب الرابع يرجع تاريخ النصوص التي جاء فيها إلى القرن الرابع أيضا عند المقدسي .

أما الأسلوب الخامس في وصف الأقاليم فلم نعثر على نماذج له في النصوص التي أمانا للناثرين من القرن الثالث حتى السابع الهجريين غير أن المسعودي كان قد نقل نصا لبعض الحكماء في وصف مصر ولم يبين

من هو هذا الحكيم كما لم يحدد الفترة التي قيل فيها النص المذكور.
والأسلوب السادس جاء في النصوص التي يرجع تاريخها إلى
القرن الرابع عند المقدسي .
ومن ذلك يتضح لنا أن المقدسي هو أكثر الناشرين تفاعلاً مع
الأساليب المختلفة في وصف الأقاليم .
وأن أكثر الأساليب وجوداً عند وصف الأقاليم هو الأسلوب
الأول الذي يتكون من أسماء تفضيل . والأسلوب الثالث الذي يتكون من
جمل اسمية ثم باقي الأساليب تأتي في مرحلة تالية .
أما الفصل الثالث فسوف نأتي فيه بإذن الله تعالى بأهم
الخصائص الفنية للنثر الفني في وصف المدن والأماكن وهي : الاستقصاء ،
والتراكيب .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لوصف المدة

والأوقات

ويتضمن مبحثين

- المبحث الأول : الاستقصاء .
- المبحث الثاني : التراكيب .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لوصف المدن والأقاليم

البحث الأول : الاستقصاء :

" وهو أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه ، فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه ، بعد أن يستقصى جميع أوصافه الذاتية بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالا يقوله . " (١)

وهذا التعريف أخذ به بعض الدارسين عند تعرضه للاستقصاء ضمن موضوعات بلاغية أخرى . (٢)

وقد برزت هذه الظاهرة منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الأول الهجري ، حيث لاحظنا وجودها فيما قدمه الحكيم من وصف للأقاليم إلى الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومن ذلك ما وصف به إقليم الشام عندما وصفه بأنه : " سحب وآكام ، ورييح وغمام ، وغدق وركام " وكان يمكنه الاكتفاء بهذا الوصف لولا أنه أراد أن يستقصى كل ما يمت بصلة إلى هذه البلاد من صفات فقال :
إنها : " ترطب الأجسام وتبلد الأحلام . وتصفي الألوان "
ثم خص منها جزءاً هو حمص فقال عنها :

(١) بديع القرآن - ابن أبي الأصبغ المصري ، ط ٢ دار نهضة مصر

للطبع والنشر - القاهرة ، ص ٢٤٧ .

(٢) معجم البلاغة العربية ، د . بدوي طبانة ، ط ٢ ، دار العلوم للطباعة

والنشر ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج ٢ ، ص ٧٠٦ .

إنها " تحسن الجسم وتصفى اللون ، وتبلىد الفهم ،
وتنزح غوره ، وتجفى الطبع ، وتذهب بماء القريحة ،
وتنصب العقول " .

ويعود مرة ثانية إلى وصف الشام :

" فهي مسرح خصب ، ووايل سكب ، كثرت أشجاره ،
واطردت أنهاره وغمرت أعشاره وبه منازل الأنبياء ،
والقدس المجتبى " . (١)

ويستمر على هذا النسق فيذكر من حل فيه من خلق الله المالحيين
والمتعبدين وأن جباله مساكن للمجتهدين .

ومن خلال هذا النص تتضح ظاهرة الإستقصاء في هذا الضرب
من النثر وبخاصة بداياتها الأولى . كما أن النصوص التي سوف نختار
منها نماذج ستبين لنا كيف تعامل الناثرون مع هذه الظاهرة عبر الفترة
التي اخترناها للدراسة .

ومن تلك النصوص التي برزت فيها بوضوح تام ما جاء في وصف مدينة

(٢)

بفداد لليعقوبي .

فبعد أن وصفها باعتدال الهواء ، وطيب الثرى وعدوية الماء . . .
الخ يعود فيؤكّد أن تلك الصفات قد أكسبتهم حسن الأخلق ، ونضرة
الوجوه ، وانفتاح الأذهان ، وأنهم بسبب هذه المزايا قد فضلوا جميع الناس

(١) مروج الذهب ، ص ٦١ - ٦٢

(٢) البلدان ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥

بالعلم والفهم والأدب، وغيرها من الصفات التي رأيناها في النص، ولا يكتفى بهذا القدر، بل يعود مرة أخرى فيفصل كثيرا ما أجمل، وينبغي أن يكون هناك من يصل إلى ما وصلوا إليه في العلم والطب والصناعة والكتابة والمنطق " فليس عالم أعلم من عالمهم، ولا أروى من رواتهم، ولا أجدل من متكلمهم . . . "

ويستمر مسجداً هذا الأسلوب حتى يصل إلى نهاية النص الذي فضلهم فيه على غيرهم في كل جانب من جوانب العلم والصناعة والورع والعبادة وغيرها .

والواقع أن قراءة النص كاملاً يعطى صورة صادقة عن مدى تدبير الصفات التي أضفاها على الموصوف واستقماً جوانب التفضيل، وسعة صدره وطول نفسه، حتى أنه لم يدع صفة يمكن أن يوصف بها صاحب علم أو مهنة أو عادة أو موهبة من المواهب إلا وفضلهم فيها على غيرهم .

وعلى الرغم من أنه قد أتى بتلك الصفات مجلة في بداية النص، ثم فصلها تفصيلاً دقيقاً مع الإضافة إليها، إلا أن القارئ لا يشعر بالملل من ذلك التكرار، لتلوين الأساليب، وجمال التعبير، والقدرة على الإقناع .

ويتضح ذلك من خلال العبارات الأولى المجملة التي وصفهم فيها بالحدق بكل مناظره، وإحكام كل مهنة، وإتقان كل صناعة، يعود بمد ذلك ليوكد أنه لا يوجد من يفضلهم في العلم والرواية، وعلم الكلام والنحو والقراءة، والطب والفناء والصناعة والكتابة، والمنطق والعبادة والزهد والحكم والخطابة، والشعر بل وحتى في المعجون " ولا أفتك من ماجنهم . "

ومن النصوص التي نلحس فيها ظاهرة الإستقواء، ما جاء في وصف

عبدالله بن المعتز لمدينة سا مراء^(١) التي وصفها بأنها جنة الأرض وقرار الملك، وفصل حالة الجند وما يحملونه من أسلحة تتمثل في السيوف والرمح والدروع، وقد شبه تلك الرماح بقرون الوعول والدروع بزبد السيول، والخيال التي يستخدمها هذا الجيش، وكيف تأكل الأرض بحوافرها وكيف انتشرت الغرر في وجوهها فشبها بصحائف البرق كما شبه تحجيلها بأسورة اللجين .

ثم عاد مرة أخرى ليؤكد كثرة عدد أفراد ذلك الجيش، الذي يتلقف الأعداء أوائله، مع أن آخره لم ينهض بعد، ومع كثرة عدد ذلك الجيش فإنه قد جُبل على قوة التحمل والصبر في مجالدة الأعداء، فكان ذلك سببا لانتصاراته المتكررة على الأعداء .

وانتقل من وصف الجيش إلى وصف قائده، الذي جمع بين الملك وقيادة جيشه، ونال من الجمال والجلال ما يملأ العين والقلب .

ووصف بعد ذلك قوة عزمته، وصاب رأيه، وقدرته في تصريف ملكه، بحزم وعزم، وهو مع ذلك في سن شباب لم يقترف خطأ، ويستمر في استقصاء صفات ذلك الملك القائد، مستخدماً أجمل عبارات الثناء، والطف ألقاب المدح، حتى لا يكاد يدع فضيلة من فضائل الملك والقيادة، إلا جاء بها، ويستطرد ليؤكد مكانته فيصف الحالة التي يعيشها الناس في ذلك العصر وكيف أنه ملحي، بالنواب، طارق بالعجائب . يوء من يومه، ويفدر غدره .

(١) معجم البلدان ص ١٧٧-١٧٨

ويأتي بعد ذلك إلى وصف المدينة نفسها التي رأى أنها قد جفيت من قبل الآخرين، وأنه رغم ذلك لا يزال يعدها معشوقة السكنى، وحبوبة الشوى، ولذلك يخصصها بأجمل الصفات التي أتى فيها على كثير من فضائلها المعنوية، في تشبيهات جذابه.

فكوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها مسك، ويومها غداق، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرايبها مريء، وتاجرها مالك وفقيرها فاتك.

ونلاحظ هنا كيف تتبع صفات الجيش الذي يحمي تلك المدينة فلم يكتف به عدد من الصفات حتى أتى بجلها، ثم كيف أضفى عبارات الثناء والتعظيم على الملك، الذي يقوم بتصريف شئون ذلك الجيش. وأخيرا قام بوصف المدينة نفسها بأعذب الألفاظ.

والواقع أن ظاهرة الاستقصاء تتضح جلية في سرد الناثر لجميع ما يتعلق بموصوفه، سواء في ذلك الجيش أو الملك أو المدينة نفسها.

أما خاتمة النص، فقد جاءت كما رأينا، في ذم مدينة بغداد، التي عدّها السبب الوحيد في صرف أنظار الخلفاء عن معشوقته سامراء، فوجه إلى الأخيرة أقذع ألوان الدم مفرغا بذلك ما في صدره من حقد عليها، لاحتوائها مقر الخلافة من جديد، وجذبها الخلفاء والأمرء، وصددهم عن مدينة سامراء.

وهو في سبيل ذلك الذم، لم يدع ذميمة، إلا وصفها بها، فهي عنده، وسخة السماء، ومدة الهواء، ولم يكتف بذلك حتى جعل جوها كانه ناراً وأرضها خبار، وماؤها حميم، وترابها سرجين، وحيطانها نزور، وتشربها تموز.

ومع أن هذه الأوصاف تفي بالغرض من حيث التأكيد على حرارة جوها، إلا أنه يريد أن يصل إلى درجة من الاستقصاء، فيفضل أكثر " فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من عرق".

ويعود لتأكيد ذلك المعنى الذي يهدف إليه وهو تفضيل سامراء على بغداد، فيصف منازل بغداد بالضيق، وجوارها بالقسوة، وكثرة الدخان وقلة الضيفان. وينتقل إلى ذم أهلها فيشبههم بالذئاب، وكلامهم بالشتائم والسباب، ومع أنه قد ذكر قلة ضيفانهم إلا أنه يعود فيصفهم بالبخل، ويختتم ذمها بعدم نظافة طرقها ومسالكها.

وبعد ذلك كله يطمئن نفسه بأن الفرج لا بد أن يأتي بمد الضيق، وأن كل مكروه له أجله المحدود، وأن من عادة الدهر أن يجمع بين السراء والضراء، وأن الكرب لا بد له من فرج.

والواقع أن وصف ابن المعتز لمدينة سامراء، وذمه لمدينة بغداد، يعد مقابلة ومقارنة بينهما، فالظل يقابله الحرور، والصفاء يقابله الكدر، والجمال يقابله القبح، ولعل ذلك يعود إلى شاعريته وديعته.

ومن النصوص التي جاء الاستقصاء فيها بوضوح وصف إقليم العراق للمقدسي، فمع أنه قد وصف الإقليم بوصف عام، من أنه إقليم الظرفاء، ومنبع العلماء، فإنه يهوء كد ذلك، فيأتي بأسماء العلماء الذين خرجهم هذا الإقليم، كأبي حنيفة فقيه الفقهاء، وسفيان سيد القراء... وهكذا إلى أن يأتي بمدد كبير منهم، على نفس السجعة والغاصلة، ويعود من جديد فيهوء كد أنه قد خرج كل فقيه ومقرئ، وأديب وسري، وحكيم وداه، وزاهد ونجيب، وظريف ولبيب، مع أن هوء لا جميعا يدخلون

ضمن كلمة علماء، وكان يمكن الاكتفاء بها لولا أن المقدسي أراد أن يزيد في الإيضاح، فاستقصى كل ما يتعلق بالعلم والعلماء ليؤكّد أن العراق حقا منبع العلماء .

ثم ينتقل المقدسي لوصف مدينة بغداد، مع أنها من العسـراق لكنه لا يكتفي بما جاء عن العراق فيبين أن لهم الخصائص والظرافة والقرائح واللطافة، وفي سبيل تثبيت هذا المعنى وتأكيدِه يصف هواءهم بالرقّة، وعلمهم بالدقّة، ثم يوضح أن :

” كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ،

وكل ظرف لها ، وكل قلب إليها ، وكل ذب عنها ” .

ولا يقتنع بذلك كله حتى يقول عنها بأنها :

” أشهر من أن توصف، وأحسن من أن تتعت ، وأعلى من

أن تمدح (١) .

ومن تلك النصوص أيضا التي بانّت فيها ظاهرة الاستقصاء

ما جاء في وصف الشام للمقدسي (٢) فقد بدأه بأن :

” إقليم الشام جليل الشأن ، ديار النبيين ، ومركز

الصالحين ”

(١) أحسن التقاسيم ص ١١٩
(٢) المرجع نفسه ص ١٥١-١٥٢

وحتى يوء كد أنه كذلك أتى بكل ما يتعلق بالأنبياء والمرسلين في الشام، وما يوجد به من مشاهد إسلامية وأماكن مقدسة، سرد ذلك كله بطريقة مسجوعة عجيبة، فالشام :

” معدن البدلاء، ومطلب الفضلاء، وبه القبة الأولى، وموضع الحشر والسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة ”.

ثم انتقل إلى مشاهد الأنبياء وقبورهم، وأمكنته تعبدتهم، فذكر مهاجر إبراهيم وقبره، وديار أيوب وعثره، وسحراب داود وبابه، واستمر بهكذا الأسلوب يعدد الأنبياء ومشاهدتهم، حتى وصل إلى قبة الرسول الأعظم - عليه الصلاة والسلام - ثم ذكر مساجد عمر ووقف عثمان، وغيرها من المواضع التي لها أي صلة بالأنبياء والمرسلين والخلفاء والصالحين.

وعلى الرغم من طول هذا النص واستيفائه كل ما يبين فضل هذا الإقليم، إلا أن ذلك السرد لأسماء الأنبياء، وصلة كل منهم بهكذا الإقليم، وذكر الأحداث التي جاء ذكرها في التنزيل، بطريقة متسلسلة توء كد قدرة الناثر العلمية والفنية على إنشاء مثل هذه النصوص، كما توء كد ثقافته وسعة اطلاعه.

ومن ذلك أيضا ما جاء للمقدسي نفسه في وصف مدينة الرملة بفلسطين (١) الذي جمع فيه كل ما يتعلق بهذه المدينة من فضائل في كل شأن من الشؤون.

(١) أحسن التقاسيم ص ١٦٤

ومع أنه قد استقصى في وصفه لمدينة الرملة جميع الصفات الطيبة،
الا أنه أعقبها بدمٍ عَدَدٍ فيه مساوئها، بنفس الطريقة التي جاء فيها
بالفضائل، وهذا يلفت النظر إلى تنوع المقدسي لأساليب وصفه ودقته
في نقل الحقائق بطريقة فنية جميلة .

كما يأتي وصف المقدسي لمدينة الفسطاط صورة مكررة للأسلوب
الذي استخدمه عند وصفه لمدينة الرملة .

فبعد أن جاء بجميع صفات مدينة الفسطاط، وفضلها على مسا
سواها من المدن الأخرى . أتبعها بدمٍ لاذع، سرد فيه أيضا جميع
مساوئها .

وإذا رجعنا إلى النصوص التي وصف بها المقدسي كثيرا من
المدن والأقاليم، فإننا سنلمس وضوح ظاهرة الاستقصاء بجلاء، في جل
تلك النصوص، وخاصة ما وصف به إقليمي الرحاب والجبال (١).

وما أثبتناه من تلك النصوص هنا ليس إلا لمجرد الاستشهاد
والاستدلال، إذ إن هنالك نصوصا أخرى تمثل وجود تلك الظاهرة في
النثر الفني لوصف المدن والأقاليم عند المقدسي .

ومن أهم النصوص التي اتسمت بالاستقصاء ما جاء في المقامات
الحريرية من وصف لمدينة البصرة (٢) في المقامة الخمسين، تلك المقامة
التي اشتملت على عدد كبير من فضائل البصرة، في جعل قصيرة مسجوعة

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٧٢ ٢٨٤٦

(٢) شرح مقامات الحريري ص ٢٥٣

جميلة التقسيم ، موحدة الأوزان ، عذبة الألفاظ ، لون الحريري أساليبها ،
فبدأ بأسماء التفضيل ، وثنى بالجميل الإسمية ، ثم بالجميل الفعلية ، فكانت من
أجمل القطع الغنية ، في وصف المدن كما رأينا .

والحقيقة أننا إذا رجعنا إلى تلك المقامة ، فإننا سنجد عددا
كبيرا من الصفات الجميلة ، قد أضفاها الحريري على تلك المدينة ، فهو يوجه
الخطاب إلى أهلها " بلدكم أوفى بالبلاد طرة ، وأزكاها ^{طيرة} وأفسحها
رقعة " ويستمر على هذا النوال حتى يأتي على أكثر صفاتها .

ثم يعود فيستخدم نعمة موسيقية ثانية " دهليز البلد الحرام ،
وقبالة الباب والمقام ، وأحد جناحي الدنيا " وهكذا يستمر في ذكر
خصائصها وميزاتها .

وينتقل إلى أهلها فيخصصهم بأكرم الصفات ، ولا يكاد يدع خلة طيبة
ولا صفة كريمة إلا جاء بها في هذه القطعة النثرية الغنية .

واستقصاء الحريري لصفات مدينة البصرة بهذه الطريقة ، يبين لنا
بوضوح ، ما تميزت به هذه المقامة من بروز ظاهرة الاستقصاء التي كثررت
عند عدد من الناثرين ، الذين اخترنا لهم نصوصا فنية في هذا البحث .

أما الإدريسي ، فمع أن النصوص الغنية التي وصف بها المدن
كانت قصيرة إلا أن منها ما برزت بوضوح ظاهرة الاستقصاء فيها
ومن ذلك ما وصف به مدينة القيروان (١) ذلك الوصف الذي استهلته
بنعته لها من أنها " أم أمصار ، وقاعدة أقطار " ثم أراد أن يفصل

(١) نزهة المشتاق ص ٢٨٤

أكثر وأن يسرد كل ما يراه سببا من أسباب تفضيلها على غيرها من المدن .

فهي أعظم مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها أموالا ، ويظل يسرد صفاتها حتى يأتي على أكبر عدد منها كما رأينا في النص الذي مر بنا .

وإذا عدنا إليه وأمعنا النظر فيه ، فإنه على الرغم من قصره قد استقصى فيه الإدريسي جل فضائل القيروان ، ثم انتقل إلى أهلها فذمهم في بادئ الأمر بعبارتين ثم عاد فوصفهم بالتمسك بالخير ، والوفاء بالعهد ، والتخلي عن الشبهات إلى آخر تلك الصفات التي خصهم بها .

وبنفس الطريقة والأسلوب اللذين وصف بهما الإدريسي القيروان يصف مدينة الفسطاط فيبعد أن وصفها بأنها :

” مدينة كبيرة ، على غاية من العمارة والخصب ، والطيب والحسن ”

ينتقل إلى تفصيل ذلك وتتبع فضائلها كاملة ، وينهى النص بفضائل أهلها ثم نبذة من صفات مصر العامة في قطعة نثرية واحدة .

وقد استقصى الإدريسي كثيرا من صفات المدن التي ذكرها ومرت بنا تلك النصوص في الباب الأول ، ومن أهمها مدينة قرطبة ومدينة صقلية .

ونكتفي هنا بما ذكرناه للإدريسي كنموذج للطريقة التي استخدم بها ظاهرة الاستقصاء في تتبع الصفات الخاصة بالمدن التي وصفها .

أما ابن جبير فإن في وصفه لنجد، تتضح هذه الظاهرة ، فعلى الرغم من أن النص قصير إلا أن ابن جبير قد استخدم فيه جملاً قصيرة ساعدت على سرد أكبر عدد من الصفات التي تمثلت في اتساعها. وطيب نسيمها، وصحة هوائها واستوائها ، وصفاء جوها ، ونقاء تربتها، وغير ذلك من الصفات التي فضلها بها على غيرها ، ما في الممهور.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف مدينة بغداد ، ومع أن أكثر الناشرين قد أتوا بفضائلها وفضائل أهلها كما رأينا في النصوص التي مرت بنا ، إلا أن ابن جبير يسيء الظن بها وبأهلها فينشيء ، نصاً طويلاً إذا ما قورن بالنصوص الأخرى التي جاءت في وصفه للمدن - فيذمها ذملاً زاعاً في قديم عهدنا وحديثه ، وينكر أي فضيلة لها ، وكذلك يتعامل مع أهلها . والواقع أن ابن جبير في هذا الذم ، قد استقصى جميع مساوئ هذه المدينة وأهلها ، ولم يدع منها شيئاً إلا جاء به في هذا النص ، الذي يعد من أطول النصوص التي وردت لدى جميع الناشرين في ذم المدن ، إذ أن عادة الناشرين أن تكون النصوص الخاصة بالذم أكثر قصيراً وأقل ذكراً للمساوئ ، من تلك النصوص التي يأتي فيها ذكر الفضائل ، كما لمسنا ذلك في النصوص الكثيرة التي مرت بنا في الباب الأول .

وقد يلحظ القارئ وجود هذه الظاهرة في كثير من النصوص التي مرت لابن جبير في وصف المدن ، إلا أن وضوحها يكون أكثر في بعض تلك النصوص ومنها ما وصف به مدينة دمشق فأحسن أيما إحسان .^(١)

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٦٢

فهي عنده :

" جنة المشرق ، ومطلع حسنه ، وهي خاتمة بلاد

الإسلام ، وعروس المدن ."

الى آخر تلك الصفات التي أضفاها عليها، وكانت حقا من أجمل ما مر من صفات المدن .

ويستمر على هذا المنوال يسرد كل فضائل هذه المدينة بأسلوب جذاب وجميل ، حتى يستقصى كل ما يمت بصلة إليها .

كما أن من تلك القطع الفنية التي نرى فيها الاستقصاء واضحا ، ما وصف به العبدري مدينة قسنطينة (١) هذه القطعة التي تعد مرثية فنية قدمها العبدري لهذه المدينة فذكر ما كانت عليه من العزة والمنعة وما آلت إليه من جراء الخطوب .

فهو يصفها بأنها " عجيبة حصينة " لكنه يستثنى فيذكر أنها قد استكانت لخطوب الزمن ، ولم يكتف بذلك ، بل فصل ما أجملته واستقصى النوائب التي حلت بها ، والآثار التي لحقتها :

" قد ذبلت ببوارح الفير ، وفواح الضرر ، رياضها

ونضبت بسهام الآفات وعظام اللما ، حياضها ."

ثم يزيد في التفصيل والإيضاح فيشبهها بالحسناء التي لبست ثيابا قديمة خلقة ، والكريم الذي فقد ماله ، والبطل الذي أشننته جراحه ، حتى لسم . يستطع الاحتمال . وهي تأكيدات كلها تدل على أصالتها وما كانت

(١) رحلة العبدري ص ٢٢

عليه ، وأن الذى حل بها ليس إلا طارئاً ، ومن صنع الزمان ، فهي في حقيقتها حسناء جميلة ، والذى طرأ لم يتمكن من إحداث تغيير في جوهرها ، ولكن تأثيره نال من الأشياء الظاهرة التي تمثلت في الملابس الخارجية ، كما أنها كالكريم الذى لم يتغير طبيعه وصفة الكرم ثابتة عنده ، ولكنه فقد الشيء الذى يخضع للتغيير وهو المال ، وشبهها بالبطل الذى لم يفقد شجاعته ، غير أن عوامل خارجية قد أثرت عليه وهي الجراحة . لذلك فهي تنادى وتطلب الاغاشة ما طرأ عليها حتى تتمكن من العودة إلى ما كانت عليه . وأن ذلك غير مستحيل فالملا بس من السهل إحضارها ، والمال يمكن ان يوجد ، والجريح من عادته البرء ما هوفيه .

ويعود من جديد لتأكيد المعنى الذى أشار إليه من عراقسة هذه المدينة ، فيشير إلى آثارها المجيبة ، وما فيها المتقنة الغريبة التي يعجز الوصف عن الوفاء بحتمها ، ثم يوء كد ذلك من جديد ، فيبين حصانتها بسبب ما أحاط بها من عوامل طبيعية تمنعها من يريد بها الشر ، على الرغم من صعوبة منع سهام الدهر ، وريب المنون ، من الإضرار بها لأنها قد أعيت الكثير .

ومن النصوص التي نلحظ فيها تلك الظاهرة ما وصف به العبدري مدينة الإسكندرية :

" مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة مذاق " (١)

ثم وضح ما امتازت به هذه المدينة عن غيرها من صمود وعزم لا يلين أمام أحداث الزمن، وأنها تمكنت من الوقوف في وجه تلك الأحداث التي لم تغلت منها أي مدينة، ووقوف البطل حتى أبطلت كيدها وألغت قدرتها على صنع شيء.

وحاول أن يثبت هذه القضية فاستقصى كل جوانبها وسرد جميع الأدلة التي تبين استمرار هذه المدينة على حالتها الأولى "واقفة وقوف الأطوار، سامية بطرف غير كليل، وجيد غير مناد" ويستمر على ذلك حتى جاء على كل ما أصابت به أعداءها من خيبة أمل، وكيف اعترفوا في النهاية بعجزهم عنها، وعدم تمكنهم من تفريق أهلها، السيطرة عليها، وتحويلها إلى مثل ما صارت إليه المدن الأخرى من الخراب والدمار، ثم بين كيف عادوا بالندم والأسى، لعدم تمكنهم من تحقيق آرائهم.

وأخيرا يستقصى أيضا صفات الذاتية "فسيحة الميدان، صحيحة الأركان، مليحة البنيان" ويستمر على هذا النوال موضحا جمال منظرها، ومواءمها أن هيئتها التي كانت عليها عند وجود الإسكندر لم تتبدل، أو تتغير، وأن حسنها قد ستر حسن غيرها وحجبه عن الأعين، وأن ذلك كله قد بهر كل من رآها، فوصفها بأجمل ما جاء في هذا الوصف.

ونأتي إلى ما وصفه العبدري مكة المكرمة^(١) - زادها الله

شرفا وتعظيما، وصفها كل ذي شر وفتنة، هذه القطعة التي تعد مسك الختام في النصوص التي بيننا، فيها استخدام الناشرين لظاهرة الإستقصاء.

وقد جاء في وصف العبدري لهذه البقاع المقدسة والمشاعر
المحرمة أنه دخل :

"إلى البلد الأمين مقر المجد الصميم والشرف المكين
فخر بقاع الأرض كلها على مرالسنين ."

ولم يكتف بهذه المبارات في حق هذا البلد الطيب الظاهر بل أكد
فضله بما شهد له به التنزيل، وبين علوه عن العدل والميل، وأوضح
أن الله قد تولى حفظه لمكانته وفضله، فصد عنه كل من أراد به سوءاً
واستشهد على ذلك بقوله عز وجل :

﴿ ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ (١)

ثم يستقصى أسباب المكانة السامية التي خص الله بها هذا البلد، وكيف
مكن حبه من نفوس الناس، حتى كأنها عجت من طينته، وكيف
انشغلت الخواطر بتصور زينته.

ويستمر في ذكر ماثره التي لا تعد، ومفاخره التي لا تعد، وما
حواه من عباد لله الذين دعواتهم لا ترد.

وأخيراً يسرد ما حباه الله لهذا البلد من حرمة وشرف، وجبل
النفوس على قصده بالفضل والتمجيد، وما يتمتع قاطنه به من الفضل
والأمن الظاهر والباطن، واستشهد بالآية الكريمة :

﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ (٢)

(١) سورة الفيل آية ١.

(٢) سورة آل عمران آية ٩٧.

وبعد هذا سوف نستعرض في البحث القادم بإذن الله
حالة التراكيب في النصوص التي أوردناها في هذا البحث، على أننا
قد اتبعنا في مناقشتنا لهذه الخصائص الفنية، طريق الإيجاز حتى
لا نكون قد أطلنا فجلبنا الملل والضيق لكل من سيقوم بقراءته
من الدارسين والمتخصصين.

المبحث الثاني : التراكييب :

ولمعرفة مدى شيوع أهم التراكييب النحوية المختلفة، وأهم التراكييب الصرفية، في الوصف الفني للندن والأقاليم، لا بد من معرفة الدراسات التي تم إجراؤها في هذا المجال، والنتائج التي ظهرت عنها، كونها دراسات إحصائية متخصصة، يمكن الإستفادة منها في المقارنة مع ما سنجده في هذه النصوص .

والواقع أن هناك دراسة يمكن الإستفادة منها، قام بإجرائها الدكتور محمد علي الخولي، وهي دراسة إحصائية تهدف إلى التعرف على درجات شيوع التراكييب الصرفية والتراكييب النحوية^(١) في اللغة العربية .

وعلى الرغم من أن مادتها العلمية أي النصوص التي قام بتحليلها، تعد حديثة لا يتجاوز عمرها عشر سنوات، لأسباب أوضحها صاحب الدراسة، إلا أننا سوف نستفيد منها في إجراء بعض المقارنات بين ما سنتوصل إليه وما ظهر عنها، لنوضح مدى شيوع تلك التراكييب في نصوص هذا النشر .

ولأن دراستنا ليست إحصائية، فسنكتفي بالإشارة فقط إلى أكثر التراكييب شيوعاً، ومدى قربها أو بعدها من نتائج الدراسة التي أشرنا إليها .

(١) التراكييب الشائعة في اللغة العربية، دراسة إحصائية، د. محمد

علي الخولي - ط ١، سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، دار العلوم للطباعة

والنشر ص ٥

وسنرى في النصوص التي سنأتي بها، أن بعضاً منها قد جاءت تراكيبه متفقة مع النتائج التي توصل إليها الدكتور الخولي، وأن بعضاً آخر كان على عكسها . أما أهم النتائج التي توصلت إليها دراسة الدكتور الخولي، فتشير إلى أن الجملة الفعلية أكثر شيوعاً من الجملة الإسمية، وأن نسبة شيوع الاسم أكثر من نسبة شيوع الحرف، ونسبة شيوع الحرف أكثر من نسبة شيوع الفعل. (١)

ولكي نوضح أهم التراكيب الشائعة في وصف المدن والأقاليم، لا بد لنا من نظرة سريعة إلى عدد من تلك النصوص، لنعرف مدى قربها أو بعدها عن ظاهرة شيوع التراكيب في اللغة العربية.

فمنها ما وصف به اليعقوبي مدينة بغداد، ذلك الوصف الذي تميز بالجملة الفعلية القصيرة، المكونة من فعل وفاعل فقط "اعتدل الهواء، وطاب الثرى" وكثرة أسماء التفضيل وبالتقسيم الجميل للفواصل وحسن اختيار الألفاظ، وصياغة العبارات والحوار المنطقي الجذاب.

أما الجمل فإن الفعلية في هذا النص أكثر من الإسمية وهذا يتفق مع ظاهرة شيوع الجمل الفعلية في تراكيب اللغة العربية. كما أن الأسماء يزيد عددها عن الأفعال وهو ما يمثل نفس الظاهرة.

غير أن الجديد هو زيادة عدد الحروف زيادة كبيرة فاقست عدد الأسماء والأفعال وهذا :

(١) التراكيب الشائعة، ص ١٨٢-٢٠٣.

أولا : لا يتفق مع ظاهرة شيوع التراكيب التي توصل إليها

الدكتور الخولي .

ثانيا : لن نجد في النصوص التي سنختارها لناشرين آخرين .

والواقع أن هذه الزيادة تعود إلى مجيء " واو " العطف بكثرة

عند وصل الجمل بعضها ببعض وهذا ما يقوى تماسك النص . كما أن حروف

الجر وخاصة حرف " من " التي تأتي عادة بعد اسم التفضيل قد تكررت

كثيرا لوجود أسماء التفضيل بإسهاب كبير . ذلك من الناحية النحوية

أما الناحية الصرفية فقد تمثلت بكثرة أسماء الفاعل وأسماء التفضيل وعدد

من أسماء المصدر .

أما النص الثاني فهو وصف إقليم العراق للمسعودي ، هذا الوصف

الذي يميل فيه المسعودي إلى الناحية التاريخية ، بحكم علمه الواسع في

هذا المجال .

فهو يبدو ، بذكر مكانة العراق في الماضي ، ثم يأتي بالأسباب

التي حققت له تلك المكانة ، ومنها أهمية موقعه ومانتج عنها من اعتدال

في الهواء ، وندرة في الماء وتأثير ذلك في طبيعة أبنائه .

ومن حيث تراكيب هذا النص ، فإننا نلاحظ كثرة الجمل الفعلية ،

وندرية الإسمية ، وهذا يسير مع ما ذهب إليه الدكتور الخولي ، من شيوع

الجمل الفعلية في التراكيب العربية ، وكذلك ارتفاع نسبة شيوع الأسماء

في هذا النص واقتراب نسبة الحروف منها ، ومقام الأفعال في الرتبة

الثالثة .

والواقع أن زيادة نسبة الأسماء ، تعد ظاهرة عامة في كل لغة ،

لأن كل جملة قد تضم أكثر من اسم كأسماء التفضيل وأسماء الأفعال والمصادر .

أما الناحية الصرفية فليس لها أثر كبير في النص ما عدا بعض أسماء المصدر وهي قليلة .

كما أن وصف ابن حوقل لإقليم العراق (١) تظهر فيه بوضوح تام تلك التراكيب المختلفة نظرا لوضوح تقسيماته وقصره .

فمن حيث الفواصل نلاحظ أنها متقاربة الطول ، والسجعة واحدة في أكثرها ، ومن الناحية النحوية فإن الجمل الإسمية في هذا النص قد زاد عددها على الجمل الفعلية ، وخالفت بذلك الدراسة الخاصة بشيوع الجمل والتي بين فيها صاحبها أن الجمل الفعلية أكثر شيوعا من الجمل الإسمية ، ويعود ذلك إلى كثرة استخدام الناثر لأسماء التفضيل ونتج عن تلك الزيادة زيادة في عدد الأسماء ، وإن كانت زيادة الأسماء تتفق مع تلك النتائج التي أجريت حول التراكيب ، ونلاحظ أيضا نقص عدد الأفعال لارتباطها بعدد الجمل الفعلية التي قلت نسبتها في هذا النص . كما زادت نسبة الحروف على نسبة الأفعال ويعود ذلك إلى كثرة استخدام حرف العطف الواو الذي وصل به بين الجمل ، فظهر النص مترابطا متماسكا ، يمثل قطعة فنية جميلة .

أما من الناحية الصرفية فقد جاء بعدد من أسماء التفضيل التي كان لها الأثر في إعطاء الموصوف وهو إقليم العراق ، خاصة به ميزته عن غيره من الأقاليم .

(١) صورة الأرض ص ٢١٠

وما وصف به المقدسي إقليم الشام، فإنه امتاز بالطول، وتمكن
الناثر من تضمينه أكبر عدد من الأحداث الدينية، المتصلة منذ أقدم
العصور، وسرد فيه ذكر مشاهد الأنبياء والمرسلين، بطريقة جديدة
يؤكدها ما يمتاز به هذا الإقليم عن غيره من الأقاليم من صفات
معنوية تضاف إلى صفاته الحسية.

وقد جاء في سبيل تحقيق تلك الغاية، بكل ما يتعلق بالمواضع ذات
المكانة الروحية، والمنسوبة إلى عدد كبير من الأنبياء والمرسلين والخلفاء
الراشدين وغيرهم من الصالحين.

ويلحظ القارئ من أول وهلة، قدرة المقدسي الفنية، التي جعلت
النص يشمل الناحيتين الحسية والمعنوية، في وصف مدينة دمشق العتيقة.
وتتجلى تلك القدرة، بالإضافة إلى ذلك في تقسيم النص إلى
فواصل متساوية، وخذ السجعة فيها، واختيار جمل قصيرة، عبر في كل جملة
منها عن حدث من تلك الأحداث الدينية الكثيرة.

أما من الناحية النحوية فإننا نلاحظ كثرة الجمل الاسمية، وقلة
الجمل الفعلية، ومع أن هذا لا يتفق مع الدراسة التي أشرنا إليها حول
الموضوع إلا أنها تتفق مع ما مر بنا عند وصف إقليم العراق لابن حوقل،
والنصان قديمان، بينما نتائج الدراسة المشار إليها تم بناؤها على
نصوص حديثة كما قدمنا.

كما نلاحظ كثرة التراكيب الإضافية. (مضاف ومضاف إليه) ويعود
ذلك إلى إضافة أسماء المشاهد، والمواضع الدينية إلى أسماء الأنبياء والصالحين،
كما هو واضح من النص.

كما أن هناك زيادة ملحوظة في عدد الحروف الواردة في هذا النص .

ومن خلال استقراء النصوص نجد أن نسبة عدد الجمل الإسمية لا يزال عالياً، وأن الجمل الفعلية تحتل الدرجة الثانية . ومن تلك النصوص ما وصف به المقدسي مدينة الري ، فمن خلال إلقاء نظرة سريعة على هذا النص نلمس زيادة عدد الجمل الإسمية ، وزيادة الأسماء ونجد ندرة في الجمل الفعلية والأفعال .

أما الحروف فإن نسبتها كبيرة كما رأينا في النصوص السابقة .

والمقامة البصرية التي وصف بها الحريري مدينة البصرة ، فممع أن تقسيمات الفواصل فيها موحدة ، وإن تنوعت السجعة ، فإن الألفاظ التي استعملها الحريري في هذه المقامة قد اختارها بطريقة فنيصة دقيقة .

كما أن نسبة الجمل الإسمية قد تساوت مع نسبة الجمل الفعلية ، أو كادت تتساوى ، وهذا ما يجعل أسلوب المقامات من حيث التراكيب يختلف عن النصوص الأخرى .

أما الأسماء فإنها تأتي أكثر من الأفعال بحسب نتائج الدراسة التي أجريت لمعرفة نسبة التراكيب الشائعة .

ونسبة الحروف توكد نفس النتائج التي ظهرت عن الدراسة التي أشرنا إليها وهي أن نسبتها تأتي تالية لنسبة الأسماء ، وتزيد عن نسبة الأفعال .

وما يتعلق بالناحية الصرفية ، فإن هناك عدداً من أسماء التفضيل وعدداً مماثلاً من أسماء الفاعل وإذا قيست بالعدد الكلي للألفاظ فإنها تمثل نسبة ضئيلة .

وكذلك الإدريسي في وصف مدينة قرطبة، فإنه يسير على نفس
الوتيرة التي سار عليها الناثرون قبل الحريري، فنلاحظ كثرة عدد الجمل
الإسمية، وقلة عدد الفعلية، وهو ما يتفق مع النصوص السابقة للحريري
ويأتي على عكس النتائج التي توصل إليها صاحب التراكيب الشائعة.
أما الأفعال، فقد جاءت قليلة جداً، وعدد الأسماء مرتفع،
وهو ما يتفق مع النسب التي ظهرت عن الدراسة التي أشرنا إليها.
وكذلك نسبة الحروف أتت تالية للأسماء.
ولم تأت التراكيب الصرفية إلا قليلة، تمثلت في عدد من أسماء
المصادر واسم الفاعل.

ومقامة الوهراني التي وصف بها مدينة بغداد، على الرغم من
أن نصيب بغداد فيها من الوصف كان مقصوراً على عدد قليل من الجمل،
إلا أن المقامة نفسها لا تخلو من جمال فني، تمثل في تنسيق جملها
وتساوي فواصلها وإيجاد تقسيمات داخلية بالنسبة للجمل الطويلة، ظهرت
في تقسيمها إلى أكثر من سبعة واحدة، وعمل على توحيد السجدة
في كل جملتين حتى خرج النص بطريقة فنية جذابة.

كما أن الجمل الفعلية قد احتلت الصدارة في هذه القطعة
القصيرة، بحيث لم تظهر إلى جوارها جمل إسمية، وإن كان هذا لا يتفق
مع ما رأينا في وصف المدن والأقاليم الأخرى عند عدد من الناثرين، إلا أن
هذه الطريقة قد تطابقت مع ما جاء في نتيجة الدراسة الخاصة بالتراكيب
الشائعة، من أن الجمل الفعلية أكثر شيوعاً من الجمل الإسمية.

كما أن عدد الأسماء كان أكثر من عدد الأفعال، مع أن نسبة

عددها في النص قد اقتربت من نسبة عدد الحروف، بخلاف العادة حيث تكون نسبة الأفعال أقل بكثير من نسبة الحروف. ويبرر ارتفاع نسبة عدد الأفعال كثرة الجمل الفعلية.

أما الناحية الصرفية فلم تحتو تراكيب النص إلا على عدد قليل جدا من أسماء الأفعال، واسم المصدر، وهو ما لحظناه في باقي النصوص التي مرت بنا.

وفي وصف ابن جبير لمدينة دمشق نجد أن الناثر قد أحدث نقلة كبيرة في حجم الجملة، فعلى الرغم من أن أكثر النصوص التي مرت بنا قد التزم أصحابها بالتقسيمات القصيرة الموحدة في أكثر الأحيان، إلا أن ابن جبير جاء بجمل طويلة، وليست في هذا النص فحسب بل شملت أكثر النصوص التي وصف بها المدن والأقاليم.

أما تراكيب تلك الجمل فإن الجملة الفعلية كما نلاحظ من النص قد ازداد عددها، وهذا ما يتفق مع الحالة الشاملة للجملة في اللغة العربية من شيوع الفعلية أكثر من الإسمية، وإن كان ذلك لا يتفق مع ما رأيناه في وصف المدن والأقاليم عند بعض الناثرين.

كذلك نسبة الأسماء فإنها عالية أيضا، وكذلك الحروف وهي النسبة التي تؤيدها الدراسة التي أجريت في هذا الشأن.

ومن الناحية الصرفية، نجد أن اسم المصدر قد زادت نسبته في هذا النص، بخلاف اسم الفاعل الذي قلت نسبة وجوده جدا.

والقطعة الفنية الجميلة التي وصف فيها عبدالله بن المعتز مدينة سامراء، ودم فيها مدينة بغداد، فإننا على الرغم من طولها إلا أن

حجم الجمل متوسط فليست قصيرة جدا ، كما مرينا في وصف المدن عند كثير من الناشرين ، كما أنها لا تصل إلى الدرجة التي رأيناها عند ابن جبير " وخير الأُمور أوسطها " . وهذا مما ميز تلك القطعة النثرية عن غيرها من وصف المدن .

ونجد فيها أيضا أن الجمل الفعلية قد زاد عددها على عدد الجمل الاسمية .

كما أن الأسماء زاد عددها على الأفعال وأيضا عن الحروف وفي زيادة عدد الأفعال على الحروف تتغير النسب الشائعة ، إذ المادة أن نسبة الأسماء تحتل الصدارة ، تليها الحروف وتأتي الأفعال في المؤخرة ، غير أنها في هذا النص قد تقدمت الأفعال عن الحروف .

أما الناحية الصرفية فهناك عدد من أسماء الفاعل غير أنها ليست كثيرة .

وفي قطعة قصيرة جدا لياقوت الحموي، يصف فيها مدينة بغداد ، نجد أنه على الرغم من قصرها ، لم يلتزم فيها حالة واحدة من حيث حجم الجملة والفاصلة والسجعة . وبالإضافة إلى ذلك فإن النص قد خرج عن الحالة الشائعة في التراكيب ، حيث زاد عدد الجمل الاسمية عن الفعلية أما نسبة الأسماء والأفعال والحروف ، فإنها لم تتغير عن تلك النتائج . فالأسماء عددها أكثر من الحروف ، وكذلك الحروف تأتي في المرتبة الثانية قبل الأفعال ، وتبقى الأفعال في وضعها في المرتبة الثالثة .

وهناك عدد قليل من أسماء التفضيل وأسماء المصدر .

ووصف القزويني لمدينة بغداد ، مع قصر النص إلا أنه قد لقي اهتماما من قبل الدارسين ، حيث كان مما يستشهد به في هذا النثر .

والنص من حيث الشكل العام ، التزم القزويني فيه بالجمل القصيرة التي نوع أساليبها وفواصلها ، وسجعاتها وحسن اختيار ألفاظها .
ومع ذلك فقد جاءت الجمل الإسمية فيه أكثر من الجمل الفعلية التي لا تكاد توجد ، لذلك لا بد أن تكون الأسماء أكثر من الأفعال والحروف .

وهذا الوضع يأتي مخالفا للوضع الشائع من حيث نسبة الجمل الإسمية والفعلية ، وموافقا من حيث نسبة الأسماء والحروف والأفعال .
كما أن هناك عدداً من أسماء التفضيل .

ويأتي مسك الختام ، وصف مدينة مكة المكرمة للعبدي ، ذلك الوصف الذي استعمل فيه العبدي عبارات طويلة ، ختمها بألفاظ مسجوعة ، وقد أتى بتقسيمات داخلية أحيانا ، ليخفف من طول تلك الفواصل ، كما أن اقتباساته من القرآن الكريم ، على نفس نفحة فواصل النص ، أكسبته جمالا وحسن أداء .

وإذا تأملنا نسبة الجمل فيه ، فسنجد أن الفعلية هي الغالبة عليه ، وذلك يتفق مع ظاهرة شيوع الجملة الفعلية في اللغة العربية ، أكثر من الجملة الإسمية . كما أن الأسماء تفوق عدد الحروف في النص وكذلك الأفعال تأتي في الدرجة التالية للحروف وهي النسب التي توصلت إليها الدراسات الخاصة بشيوع التراكيب ، في اللغة العربية .
وما سبق يتضح لنا أن نصوص اليعقوبي وابن المعتز والمسعودي ، والوهراني ، وابن جبير والعبدي ، قد اتفقت نسبة

شيوخ التراكيب فيها مع النتائج التي توصل إليها الدكتور الخولسي في دراسته ، على الرغم من اختلاف القرون التي عاش فيها أولئك الناثرون . بينما اختلفت تلك النسب في نصوص ابن حوقل، والمقدسي والإدريسي ، والحموي والقزويني ، مع اختلاف القرون التي عاشوا فيها أيضا .

تلك حالة أهم التراكيب التي وردت في النصوص المختارة لأهم الناثرين في هذا البحث .

الحياة

م. ب. ك.

الخاتمة

أحمد الله عز وجل على هدايته وحسن توفيقه ، وأرجو أن أكون قد أضفت شيئاً إلى تراثنا الخالد بهذا البحث المتواضع الذي جمعت فيه أكبر قدر من تلك القطع الفنية . الثمينة المتناثرة في صفحات الكتب المختلفة .

تلك القطع النثرية التي وصف بها أصحابها المدن والأقاليم ، بطريقة نثرية فنية تميزت عن غيرها بالأساليب الفنية التي صيغت بهما . وجاء ذلك ضمن فصول الباب الأول .

ثم حاولت بيان البدايات الأولى لهذا الضرب من النثر ، وكيف تطور حتى وصل إلى القرن الثالث الهجري ، ثم ما بعده بتلك الصورة التي رأيناها .

ومن خلال البحث والتتبع تبين لي ، أن المعلومات المتوافرة حتى الآن لا تعطينا أي إثباتات يقينية عن وجود مثل هذا الوصف في العصر الجاهلي ، كما أننا لا نستطيع بحال من الأحوال القطع بعدم وجوده في تلك الفترة أو أنه قد نشأ في فترة تالية فقط .

أما الذي تمكنت من إثباته وسرد الشواهد عليه فهو تلك المراحل التي مر بها هذا النوع من النثر ، منذ ظهور الإسلام حتى نهاية القرن السابع الهجري .

حيث أوضحت كيف أثرت الآيات القرآنية التي وصف الله - عز وجل - بها الجنة ، وما أعدّه فيها لمباهة المقربين ، ثم ما جاء في الآيات الكريمة عن جنات الدنيا - وهي العدايق والبساتين - والإشارات القرآنية العظيمة

إلى بعض البلدان كقوله سبحانه ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ .
كيف أثرت هذه الآيات في أساليب الناشرين الذين قاموا فيما
بعد بوصف المدن والأقاليم ، وكذلك ما جاء في الأحاديث النبوية
الشريفة ، من ذكر لفضائل البلدان ، وما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم ،
وبعض ولاية بني أمية من ذكر بعضها بأساليب فنية كان لها أثر بالغ
في هذا النشر فيما بعد أيضا .

وقمت باستقراء النصوص الفنية التي تمكنت من جمعها للتعرف
على تلك الأساليب ، واتضح أن أهمها :

- ١ - أسلوب التفضيل .
- ٢ - الأسلوب الإضافي .
- ٣ - الأسلوب الذي يتكون من جمل إسمية قصيرة .
- ٤ - الأسلوب الذي يتكون من جمل فعلية .
- ٥ - الأسلوب التصويري .
- ٦ - الأسلوب الذي يتكون من عدد من الصفات المجردة .

ناقشت بعد ذلك ما جاء في مقال الأستاذ (غريباوم) حول هذا
النشر من أن أصوله كانت غير عربية ، وتوصلت من خلال تلك المناقشة إلى أنه
قد نما وترعرع في بيئة عربية ، وأن المقالة المذكورة للأستاذ (غريباوم)
لم تستقص الموضوع كاملا ، وأنها بحاجة إلى إعادة النظر في النتائج التي
توصلت إليها ، من خلال رؤية شاملة ودقيقة ومنصفة ، لجميع النصوص التي
وردت في هذا الوصف .

وأخيرا بينت أهم الخصائص الفنية لهذا النوع من النشر ومنها

ظاهرة الاستقصاء التي عمت كثيرا من النصوص الفنية كما رأينا ، وكذلك
أهم التراكيب الشائعة فيه ومقارنتها بأهم النتائج التي توصلت إليها
الدراسات الحديثة في هذا الجانب .

وفي الختام أسأله عز وجل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه ،
وأن يجعل جميع أقوالنا وأفعالنا خالصة لوجهه الكريم إنه سميع مجيب .

الفهارس

- قائمة المصادر والمراجع .

- فهرس الموضوعات .

فائمة المصائد والمراج

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - آثار البلاد وأخبار العباد - القزويني - ط : دار صادر بيروت سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م
- ٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - المقدسي - ط ليدن سنة ١٩٠٦م
- ٣ - أساس البلاغة - الزمخشري - دار صادر بيروت ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت / ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م
- ٤ - الأعلام - ابن رسته - مطبعة بريل ليدن سنة ١٨٩١م
- ٥ - الأعلام - الزركلي - ط ٣ بيروت سنة ١٩٨٠م
- ٦ - الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٩٢٦م
- ٧ - أمراء البيان - محمد كرد علي - ط / ٣ مطابع دار الكتب بيروت سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م
- ٨ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون - إسماعيل باشا البغدادي - ط دار الفكر سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م
- ٩ - البلدان - نهاية كتاب الأعلام النفيسة - ج ٧ مطبعة بريل - ليدن سنة ١٨٩١م
- ١٠ - البيان والتبيين - الجاهظ ، ط ٣ المكتب العربي بالكويت سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، تحقيق عبد السلام هارون .
- ١١ - تاج المروس - الزبيدي - مطبعة حكومة الكويت سنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م بإشراف لجنة فنية بوزارة الاعلام .
- ١٢ - تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان - ط ٣ مطبعة دار الهلال سنة ١٩٣٦م

- ١٣- تاريخ الآدب الجغرافي - كراتشكوفسكي - لجنة التأليف والترجمة والنشر نقله إلى العربية الأستاذ / صلاح الدين عثمان هاشم سنة ١٩٦١ م.
- ١٤- تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - تحقيق صلاح الدين المنجد .
- ١٥- تطور الآساليب النظرية في الآدب العربي - أنيس المقدسي ط ٥ دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٧٤ م.
- ١٦- تفسير ابن كثير - ط دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .
- ١٧- التنبيه والإشراف - المسعودي ط دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف القاهرة سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨ م.
- ١٨- الجاحظ حياته وآثاره - د . طه المحاجري - ط ٢ دار المعارف بمصر سنة بدون .
- ١٩- الجغرافيا والرحلات عند العرب الدكتور نقولا زياده - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٩٦٢ م.
- ٢٠- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - الأستاذ آدم متز ط : ٤ بيروت سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م.
- ٢١- الحيوان - الجاحظ - ط ٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ م تحقيق عبد السلام هارون .
- ٢٢- دراسات في الآدب العربي - غوستاف فون غربنباوم - مؤسسه فرنكلين - المساهمة للطباعة والنشر . بيروت - نيويورك سنة ١٩٥٩ م ترجمة : إحسان عباس وآخرين .

- ٢٣- ذكر أخبار أصفهان - أبونعيم - مطبعة بريل ليدن سنة ١٩٣١ م.
- ٢٤- رحلة ابن جبير - دار مصر للطباعة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م تحقيق
د . حسين نصار .
- ٢٥- رحلة العبدري - ط وزارة الدولة الكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم
الأصلي الرباط سنة ١٩٦٨ م. تحقيق محمد الفاسي .
- ٢٦- رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ط ١ سنة ١٣٩٩ هـ /
١٩٧٩ م.
- ٢٧- سأمراء في أدب القرن الثالث الهجري ، يونس السامرائي ،
مطبعة الإرشاد - بغداد سنة ١٩٦٨ م.
- ٢٨- سير أعلام النبلاء - الذهبي - ط ٢ - بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- ٢٩- شرح مقامات الحريري - الشريشي - ط ١ مصر ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م.
- ٣٠- الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية - المهندس الدكتور أحمد
سوسة - طبعة مكتب صبرى سنة ١٩٧٤ م بإشراف
لجنة من نقابة المهندسين العراقية .
- ٣١- الصحاح - الجوهري - ط ٢ دار العلم للملايين . بيروت سنة
١٣٩٩ هـ / ١٩٣٩ م تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .
- ٣٢- صورة الأرض - ابن حوقل - دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ .
- ٣٣- العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي - مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م.
- ٣٤- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة - ابن ظهيرة - ط دار
الكتب سنة ١٩٦٩ م. تحقيق مصطفى السقا وكامل
المهندس .

- ٣٥- فضائل مصر - عمر بن محمد بن يوسف الكندي - ط ١ مطبوعة
الإستقلال الكبرى القاهرة سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
تحقيق ابراهيم أحمد المدوي وعلى محمد عمر .
- ٣٦- فن القصص في كتاب المخللاء للجاحظ - محمد المبارك - ط ٣ دار
الفكر ، سنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ٣٧- الفن ومذاهبه - في النثر العربي د . شوقي ضيف ط ٧ دار
المعارف بمصر سنة ١٩٧٤م .
- ٣٨- فوات الوفيات - محمد شاكر الكتبي ط دار صادر بيروت سنة
١٩٧٤م تحقيق احسان عباس .
- ٣٩- القاموس المحيط - الفيروزآبادي - ط ٣ المطبعة المصرية سنة
١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م .
- ٤٠- القصة في أدب الجاحظ - عبدالله باقازي - ط سنة ١٤٠٢هـ /
١٩٨٢م جدة .
- ٤١- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون - مصطفى القسطنطي
المعروف بحاجي خليفة ط دار الفكر سنة ١٤٠٢هـ /
١٩٨٢م .
- ٤٢- لسان العرب - ابن منظور - طبعة دار صادر ودار بيروت للطباعة
والنشر - بيروت سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- ٤٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - الهيثمي - ط ٢ دار الكاتب بيروت
سنة ١٩٦٧م .
- ٤٤- مختصر كتاب البلدان - ابن الفقيه الهمداني - ط بريل ليدن
سنة ١٣٠٢هـ .
- ٤٥- مروج الذهب - المسعودي ط ٥ دار الفكر سنة ١٣٨٤هـ /
١٩٦٤م تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

- ٤٦- معجم الأدياء - ياقوت الحموي - ط دار الطامون .
- ٤٧- معجم البلدان - ياقوت الحموي - ط دار صادر بيروت سنة
١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٤٨- معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة ط بيروت سنة بدون .
- ٤٩- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بمصر ط ٢ - مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ٥٠- نامات الوهراني ومقاماته ورسائله - الوهراني - دار الكاتب
العربي للطباعة والنشر - مصر سنة ١٩٦٨م .
- ٥١- المقامة - د . شوقي ضيف - ط ٢ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م .
- ٥٢- النثر الفني في القرن الرابع - زكي مبارك ط ٢ مطبعة السعادة
بمصر سنة ١٩٣٤م .
- ٥٣- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه -
د. عبد السلام عيسى ط ١ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٤م .
- ٥٤- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الشريف الإدريسي ط: المعهد
الإيطالي لتاريخ آداب الشرقيين الأثني والأقصى
سنة
- ٥٥- الوافي بالوفيات - الصفدي - ط ٢ قيسبان سنة ١٣٨١هـ /
١٩٦٢م .
- ٥٦- وفيات الأعيان - ابن خلكان - ط ١ ، مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- ٥٧- هدية العارفين من كشف الظنون - اسماعيل باشا البغدادي ،
ط : دار الفكر سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

فہرست الموضوہ حکایت

بیروت

فهرس الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوعات</u>
أ - ز	المقدمة
١٩٨ - ١	<u>الباب الأول</u> : وصف المدن والأقاليم عند أهم الناشرين :
	<u>الفصل الأول</u> : النصوص الغنية في القرنين الثالث
٤٨ - ١	والرابع للهجرة .
١	١ - الجاحظ ورسالة البلدان .
١٣	٢ - اليعقوبي وكتابه البلدان .
١٨	٣ - المسعودي وكتابه مروج الذهب .
٣٦	٤ - ابن حوقل وكتابه صورة الأرض .
٩٩ - ٥٠	<u>الفصل الثاني</u> : المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم .
١٥١ - ١٠٠	<u>الفصل الثالث</u> : النصوص الغنية في القرنين الخامس والسادس (١٠٠ - ١٥١)
١٠١	١ - الحريري ومقاماته .
١٠٨	٢ - الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
١٢٦	٣ - الوهراني ومقاماته .
١٢٩	٤ - ابن جبير ورحلته .
١٩٨ - ١٥٢	<u>الفصل الرابع</u> : النصوص الغنية في القرن السابع .
١٥٣	١ - ياقوت الحموي وكتابه معجم البلدان
١٦٥	٢ - القزويني وكتابه آثار البلاد وأخبار العباد .
١٧٥	٣ - العبدري ورحلته .

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
<u>الباب الثاني :</u>	تطور وصف المدن والاقاليم وخصائصه الفنية :
	٢٠٦ - ١٩٩
<u>الفصل الأول :</u>	بدايات النشر الفني في وصف المدن والاقاليم ٢٠٠-٢٤٢
<u>الفصل الثاني :</u>	الاساليب الفنية في وصف المدن والاقاليم ٢٤٣-٢٧٧
	٢٤٤ البحث الأول : تطور وصف المدن
	٢٦٨ البحث الثاني : تطور وصف الاقاليم
	٢٧٨ - ٣٠٦ <u>الفصل الثالث :</u> أهم الخصائص الفنية .
	٢٧٩ البحث الأول : الاستقصاء .
	٢٩٦ البحث الثاني : التراكيب .
	٣٠٧ الخاتمة
	٣١٢ - ٣١٧ قائمة المصادر والمراجع
	٣١٨ - ٣٢٠ فهرس الموضوعات